

أيام الملوك



أَيَّامُ الْمَاعِزِ

أيَّامُ المَاعِزِ

لـ «بَيْنِيَامِينَ»

ترجمة:

سميل عبد الحكيم الوافي



مكتبة آفاق 2021م

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Goat Days

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بين مكتبة آفاق

والناشر الأصلي Copyright © by Penguin India

Arabic Copyright © 2014 by Aafaq Book Store, Kuwait

فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

813 الوافي، سهيل عبد الحكيم.

أيام الماعز/ سهيل عبد الحكيم الوافي - ط1. - الكويت: آفاق للنشر والتوزيع، 2014

218 ص؛ 14 × 21 سم

ردمك : 0 - 376 - 78752 - 1 - 978

1. القصة العربية - الكويت

أ. العنوان

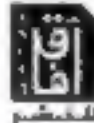
رقم الإيداع: 090 / 2014

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى: 1435 هـ / مارس 2014 م

الطبعة الثانية: 1436 هـ / مارس 2015 م

الطبعة الثالثة: 1442 هـ / 2021 م



Tel.: +965 22256147 - Mob.: +965 51000197

P.O.Box: 20585 Safat - Postal Code: 13066 Kuwait

info@aafaq.com.kw

www.aafaq.com.kw

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي» أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

"هذه الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية"

وقفت أنا وعبد الحميد طويلاً آيسين أمام مركز الشرطة الصغير بالبطحاء، كان هناك شرطيان في كشك الحراسة بجانب البوابة، أحدهما يقرأ، وتوحي جلسته وهزات رأسه وعيناه شبه المغمضتين أنه يقرأ كتاباً دينياً، أما الثاني فيتكلم في الهاتف، يسمع الواقف هنا في الطريق حديثه وضحكاته، وهما في عالمين مختلفين وإن كانا يجلسان متقاربين، وكلاهما لا يكثرث بنا.

وهناك - غير بعيد عن كشك الحراسة - شجرة تمتد أغصانها على الطريق. قعدنا القرفصاء على الأرض تحت ظلها آمليين أن ينتهي أحد الشرطين من عمله فيلتفت إلينا. بقينا هكذا لفترة طويلة. وبينما نحن كذلك، دخل اثنان من العرب بخطى مسرعة إلى المركز فيما خرج منه ثلاثة أو أربعة على الأقل، متغافلين. ولم يكن هناك شيء يدعوهم إلى الاكتراث بنا. وفي تلك الأثناء ظهرت سيارة للشرطة تخرج من سور المركز، فانتفضنا قائمين رجاء لفت أنظار من فيها إلينا، ولكنها أوغلت السير في الطريق الرئيس بعد أن توقفت هنيهة تتأكد من المرور. فعدنا خائبين نتكى على جذع الشجرة.

وكلما ظننا أن شرطي الهاتف أنهى مكالمته، مشينا بكل رجاء إلى الكشك دوننا فائدة، فنجدد نحوض في مكالمه جديدة دون أن يدع لحظة تفوته. أما الآخر فلم يزل منهمكاً في قراءته التي لا يكاد يفرغ منها أبداً.

وفي محاولة للفت انتباههما، قمنا نتمشى جيئة وذهاباً أمام كشك الحراسة، ولكنهما لم يعيرانا التفاتاً ولم يلقياً إلينا بالاً.

لقد سمعنا كثيراً في هذه الأيام عن هؤلاء المساكين الذين اضطرتهم الأسباب إلى الخروج بلا بطاقة ليتم إلقاء القبض عليهم من المرافق العامة والأسواق ومن أمام المساجد ومن ثم نقلهم إلى السجون. وفي الوقت نفسه، ها نحن ذا نتسكع بدون بطاقة في أسواق السمك والخضار والأماكن العامة بالبطحاء ولا نريد بذلك إلا أن نلقى نفس مصيرهم!

وكم من «مطاوعة»⁽¹⁾ قد مروا بنا ولم يمتنعوا طريقنا!

وكم من مرة فوجئنا بأنفسنا أمام رجال الشرطة ولم يسألونا عن شيء!

وما أكثر هيامنا على وجوهنا حول المساجد بدون أن ندخلها لنشارك في صلاة الجماعة القائمة! ولم يقف الأمر عند ذلك بل تظاهرت مرة بالتعثر بقدمي شرطي كنت أمر به، فلم يكن منه إلا أن أخذ بيدي يرفعني ملتصقاً العفو لوجه الله ثم أطلق سراحني دونما «رحمة»! أليس من المؤلم ألا يسعدنا حتى سوء الحظ حينما نكون في أمس الحاجة إليه؟

ولما أعيانا الحيلة، قررنا أن نقف أمام هذا المركز ولكن دونما جدوى. وحينما طال بنا الوقوف، اتفقنا على دخول المركز مجتازين حارسي الكشك. وما إن اقترح عبد الحميد هذه الفكرة حتى أخذت في المشي كأنني كنت أنتظرها، فلم يعد في قوس الصبر مترع. ولم نتجاوز حديد البوابة الطويل حتى دعانا الحارس الأول من وراء راقعاً عينيه عن الكتاب. رجعت إلى الكشك وأخبرته أننا نريد لقاء المدير. أشار إلينا بالدخول وسرعان ما عاد إلى كتابه. وبعد صعود الدرج الطويل، دخلنا إلى المركز من باب نحتت عليه آيات من القرآن الكريم. وداخل المركز، كانت لوحة الإعلانات، التي علقت عليها أوراق للزينة، وتحتها جماعة من الشرطة تحلقوا لأكل الخبز وشرب

(1) رجال هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالملكة العربية السعودية.

القهوة، متجاذبين أطراف الحديث بأصوات عالية. وقفنا مرتبكين بجانب الدائرة، خارجًا عن خيط الحديث، نحى^(١) إلينا واحد منهم بصره، وقطب حاجبيه بالاستفسار وهو مستمر في الأكل. حركت يدي مومًا بأننا لا نجيد اللغة. فقام إلينا شرطي آخر حاملًا في يده كوب القهوة وطلب منا البطاقة (نعم! أخيرًا وجدنا واحدًا يطلب منا البطاقة). هزرتا رؤوسنا صاغرين تعبيرًا عن عدم وجودها معنا، فوضع الكوب على الطاولة واستخرج من درجها نشافة، مسح بها يديه وشفثه ثم مشى إلى الداخل بعد أن أشار إلينا بمتابعته.

قادنا إلى مكتب المدير الذي نظر إلينا رافعًا وجهه عن الكمبيوتر وهو يستمع إلى الشرطي ثم سألنا عن أمور، غير أننا لم نظهر أية علامة على أننا نفهم اللغة. وما كنت مدعيًا للجهل؛ لأنني فعلاً لم أفهم من حديثه مع الشرطي ولا من أسئلته إلا القدر اليسير، ولكن عبد الحميد كان يتجاهل في الحقيقة، فقد سمعته يتكلم العربية بكل طلاقة من قبل.

بينما استمر المدير والشرطي في الحديث كنت أهتم بنظري في أرجاء الغرفة، كان مكتب المدير غرفة واسعة علق على جدرانها لوحات الملوك والكعبة وآيات من القرآن الكريم، وهناك جهاز تلفاز إلى يساره، والكمبيوتر إلى يمينه، وفي الناحية الأخرى أريكتان مطروحتان مع ترابيزة عليها مزهرية فيها أزهار بلاستيكية. وعلى الجدار المقابل لوحة كبيرة عليها صور. ألقيت النظر إليها بدون قصد.. أشخاص ملتحون تشبه عيونهم عين السمك الميت، ورجال سود في أقمصه عربية، وأفارقة ذوو عيون ثاقبة ولحي تشبه لحية التيس. ونحت كل صورة تعليق بالعربية، لا بد وأن تكون تلك أسماؤهم. لبثت أنظر هكذا إلى أن تعثرت عيناى بالصورة الثالثة من السطر الرابع.

(١) نحى بصره: أماله

تجمدت عياني عليها وكأنها قطعنان من الثلج. هزرت رأسي وأعدت النظر بمجامع عيني.. ترايدت ربيتي.. تناقلت نبضات قلبي.. وانتابني خوف لا عهد لي به من قبل.. ولإزالة الشك، وجدتني اقترب من اللوحة من دون أن أشعر.. إبراهيم القادري..!! وضعت يدي على صدري في هلع بدون إرادة مني.
«ماذا...؟ هل تعرفه...؟» بادرني الشرطي بالسؤال.

ارتبكت.. ارتعشت من الخوف.. تغيرت تعابير وجهي بشكل أصبح مكشوفاً للجميع.. إلا أنني نقيت معرفته بهزات رأسي. دعائي المدير إليه، وما إن أنهت حتى انتفض واقفاً، صافحاً إياي صفقة تجمع بين خدي وأذني.
آه... ريح ساخنة من فرط الوجد خرجت من أذني الأخرى.
«لماذا نظرت إلى الصورة إن لم تكن تعرفه؟» صاح المدير.

أطرقت رأسي دون أن أجيب عن أسئلته المتواصلة باللغة العربية، فتركني بعد أن منحني لطمة أخرى واستراح في كرسیه. ما بكيت قط في حين بكى عبد الحميد، الأمر الذي أنقذه من الصفعات.

وبعد أن تلقى الشرطي أوامر من المدير، أخذنا إلى غرفة أخرى وانصرف بعد أن وكل بنا شرطياً آخر. فتح الأخير الدولاب واستخرج منه القيود ووضعها في أيدينا ثم أمرنا بالجلوس على مقعد في الغرفة التي فيها أربعة أشخاص مقيدي الأيدي مثلنا. وما أدري لماذا ارتسمت في وجوههم نفس الفرحة الغامضة التي لاحت على وجوهنا؟ وبعد الظهر، فكوا قيودنا ونقلونا إلى إحدى الزنانات.

كنا ستة أشخاص في زنانة لا تتسع إلا لثلاثة جالسين. وأتذكر أنه كان من بينهم رجل من «كيراالا» يدعى «كمار»، كانت قصته مختلفة عن قصتنا، كان يشتغل في أحد محال الخضار، اتهمه كفيله بالسرقة وأودعه السجن.

والأحرار كنا من العرب وأما الرابع فكان مكسائاً وم نعلم ثباً عن
الجرائم التي نسبت إليهم.

وبت ساهرين بلث ليلية بسب تلك الخمسة المؤلة كي لو كا في قطار
متكدس بالركاب. وأصبح الحال أسوأ على الآخرين بعد ما مد العريان
أرحبهما عن راحتهما. رغم ذلك كله ما رأيت الرزاة الصيقة إلا جمة رحمة
مقارنة بالحياة التي سبق أن عشتها.

وبعد الشاي في صباح اليوم التالي، وصعوا القبود في أديب مرة أخرى
ثم حملون في سيارة دهنت سا إلى الخارج وكان فيها آخرون، مقيدون مثلي،
انتهروا الفرصة للتعارف والتحدث وحكى بعضهم لبعض ملابسات
لحرم المسورة إليهم. وانضم إليهم عبد الحميد في حين جلست مطرقاً
رأسى

وبعد أن قطعت مسيرة طويلة، وقفت سيارتنا داخل حرم سجن
«الشمسي»، أكر سجن في المملكة. لم ترل السيارات من مختلف أنحاء البلاد
تدخل إلى هناك دون انقطاع، يتدفق منها مئات «المجرمين» مر بذكرتي
لحظتها - مع أني لم أعثر على رابط يربطه بها بجري - منظر من قاعة الزوار
في بلادنا يصل أقرباء العريس ويرلون من سياراتهم في ماء لقاعة وعلى
وجوههم آثار التعب من السفر الطويل. وما أن ذا اليوم كواحد منهم في هذا
الماء!

أرلونا من السيارة وساقونا إلى مكتب مسؤول السجن الذي ازدحم
حوله حشد من الناس اجائين والذاهيين ممن فيهم رجال الشرطة والمحامون
و«المطاوعة» وغيرهم من العرب كان مكتبه للوحدة الأولى أشبه شيء بممر
المحكمة في بلادنا وكان أمامه طايور طويل جداً، التحقنا بآخره في حين

استراح رجال الشرطة الذين رافقونا، لاجئين إلى ظل في المنع على بعد يسير
من. دخل واحد بعد الآخر بكل نُظْمٍ دت الطانور إلى الأمام وعلى الرعم
من علمي بأي أدت إلى السحن وقلقي الشديد مما ينتظرني داخله، إلا أنني
شعرت حقاً بفرحة من يقف لأول مرة في الطانور منتظراً دوره للتصويت.
وقد همست إلى عبد الحميد معبراً عنها.

ولم يرل الطانور يرحف حتى أصبحت في مقدمته، ثم مرت دقائق
الانتظار الثلاث! وقد أحسست فيها ما ألهع الذي يملك أحداً عندما يكون
هو أول من يقف في طابور طويل...!

وبودي باسمي . وقام الشرطي الذي كان يرافق فوراً ليُدخل معي
وكن هناك سجل أمام المسؤول سَجَل فيه بعض البيانات من الورقة التي
قدمها الشرطي مضيفاً إليه أشياء بناء على شرحه جعلوني بعد ذلك أوقع
في العمود الأسر من السجل. ثم أخذوني إلى شرطي آخر، كان جالساً على
طاولة في زاوية، قام بوشم بعض الأرقام العربية على ذراعي بنوع من الحبر.
واستطعت أن أُمِر رقمي بسهولة «13858» بمصل ذهابي إلى المدرسة
الدبية يوم كنت صغيراً ولعلها هي الشجرة الوحيدة لدراستي في المدرسة
الدبية في تلك الأيام!

دخلنا بعد ذلك إلى قاعة كبيرة عمحية المنظر، يقعد فيها الحلاقون في صف
يمتد من أحد طرفي القاعة إلى الطرف الآخر. بعني أحد الشرطيين الواقفين
عند الباب إلى حلاق فارح إن سرعة هؤلاء الحلاقين شيء يجعل عن الوصف،
فأنت لا تشعر بأيديهم المكينة على رأسك إلى أن ينتهي الحلاق من عمله على
أحسن وجه، فلا يستغرق الأمر إلا دقيقتين أو ثلاث على الأكثر!

وبين كنت قاعدًا القرفصاء بين يدي الخلاق رأيت عبد الحميد نظرف عيني حياء يجلس أمام الخلاق المجاور وقام كل من تفرياً في نفس الوقت نظرت إلى عبد الحميد ونظر إليّ أصلعان تدمماً لم تتلك أنفاس من الصحت الحطة صحت بادرة مقتنصة من بين صحيح الألام^١

وسبقونا بعد ذلك إلى مبنى السج الكير، كان أكبر مما تتخيله عادة، ربما يمتد طوله حوالي كيلومتريين أو ثلاثة، تم تقسيمه إلى أقسام، ربما يمتد طول كل قسم إلى ما لا يدركه البصر، يخصص كل قسم لحصة معينة العرب، والباكستيين، والسودانيين، والأثيوبيين، والسعاليين، والفيليبين، والمغاربة، وسريلانكيين، وكذلك اليهود. ولا شك أن الأعبية في قسم اليهود هم الكيراليون، نقلونا طبعاً إلى قسم اليهود ووجدنا فيه حشد من الصلع، فيهم الأصلع الكامل ومن كاد ينبت على رأسه الشعر الخفيف مما يدل على طول أو قرب مدة مكثهم في السجن. وكان ذلك مطراً طريفاً. إذا شاهدت برحة وسمعت الصجة في القسم، ستقول أنه سوق حصن أقيمت لبيع الصلع وفي نفس الوقت، لن تجد فيه جواً مشبعاً بالخوف والهدوء والانسباط كما تتوقعه حين تسمع كلمة السجن.

وقفت أنا وعبد الحميد في هذا الرحام والصوصاء كرحلين ريعيين مرلا المدينة لأول مرة. وما استطعت أن أصدق الحقيقة أسي الآن في السجن إلا بعد فترة طويلة.. وبكيت كثيراً... احترنا السجن لأنفسنا بعد ما فكرنا في الأمر أياماً كثيرة وسكتنا الطمأنينة أخيراً إلى أن السجن رغم مفهومه المروع لديه كان هو الحل الأصلع المطروح لمواصلة سير الحياة في تلك الظروف القاسية التي كنا نعيشها.. نعم إنها سجت نفسي رعية في الحياة! حقاً ما أشد مضايقة المصائب والأوجاع التي تعرض لها رجل فاحترار لنفسه السجن مهراً منها..!!^{١١٩}

لم يستأن تأقمت مع نظام السجن وصلنا إليه عقب العداء والناس في
صحة وراحة كما هي عادتهم بعد العداء، وعمال السجن يحرون هه وهناك
في عجلة لجمع الصحون المستعملة. وكان العداء في السجن عقب صلاة
الظهر. تأخرنا قليلاً فصارتا عداء اليوم وعندما أنظر إلى ما مضى، يصحكي
حقاً أن أحدي أنحسر على واحة غداء تموتي

تحدثت أصوات السجن وساد السكون واستلغى الكثير من السجناء
في فتور بعد العداء ولم يكن عندما سرر ولا فرش ولا حصر، وإنما كنت برفد
على الأرض حيث نشاء. وكانت قاعة القسم شديدة الحرارة إلى درجة أنه
لا يمكن للإنسان العادي مقاومتها. وهناك ثلاثة أو أربعة مكيمات، تصبح
من أعلى الحدار، إلا أنني شككت هل هي حقاً تؤدي شيئاً من وظيفتها ؟
يحتوى قسماً وحده على ما لا يقل عن مائتين وخمسين سجين. وكان
أجسادهم وهم ينامون منتثرين هه وهناك في صورة عشوائية جثث الصحابيا
المتناثرة بعد كثرة طبيعية. وكانت ههك حلقات متفرقة بين الدئمين، أقامها
بعض الأبقاط لتجذب أطراف الحديث وكرحليين جديدين، التفت إلي
واحد من أعضاء حلقة تبدو أنها تتكون من الكيراليين، وهتف قائلاً
«لا تخاف، أكثر الناس هه كيراليون، اجلسا في أي حلقة شئت» ثم عاد إلى
حديثه انزويماً إلى زاوية مسعرة دون أن ينضم إلى أية حلقة ولعله سبب
أرق الدوحة وإعياء السفر الطويل، سرعان ما داهمها النعاس. ولم يداعب
النوم جفوناً حتى أدن للعصر، وبدأت الأجساد النائمة تقوم هه وهناك على

مهل، قمت مع من قدموا إلى الصلاة وكان هناك في إحدى الروابي مساحة
مخصصة للصلاة، وتحتها وحولها إلى الملة مع الدس اجتمعوا على الصلاة
له رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم..

فاصت في تلك الصلاة أحرابي المتراكمة في الأيام المصرفة كهر حار لم
أفوق على كصفته استكت دموعي من ذكر الله الذي حباني برعايته في تلك
الأيام القدسية. دموع الفرح من توفيقه تعالى وتقويته إيدي على احترق
صحاري الألام الشاسعة..!

وكان الحرس يدق عندما فرغت من الصلاة متوكلاً على الله في أفراحي
وأفراحي.. واستيقظ بقية النائمين وسارعوا إلى راوية تكدست من شكوى
طابوراً طويلاً انصمما إليهم على الرغم من أب لم يعرف قصدهم ولما بدأ
الصدور يتحرك، وقعت عيني على سطل شاي كبير، وكان النظام المتبع أن
يأخذ كؤواً من الأكواب الموصوعة على الطاولة أمامنا ونصب فيه الشاي
بقدر الحاجة وبأني الطاولة المجاورة لأخذ نصيباً من البسكويت - اثنين أو
ثلاثة - ثم ماوي إلى إحدى الروابي حيث نحتسي الشاي على راحتنا. وبعد
الاحتساء، علينا أن نعيد الكوب مغسولاً إلى الطاولة.

لم أشعر قط بأسى في السجن، وإنما تخيل إلي أنني الآن في بعض محبات
اللاجئين.. غمشنا داخل قسماً ونحدثنا بحرية كاملة. وكان أقصى ما أطمح
إليه منذ حوالي أربع سنوات مصت هو نعمة التحدث مع إنسان. ولذلك ما
زلت أثرثر إلى عبد الحميد بلا توقف، دون أن أتبع له فرصة ليتفوه بكلمة..
تكلمت بكل شراهة. لم أدع لساني يستريح ولو لحظة. وحدث عبد الحميد
الذي كان قد عرفني تماماً خلال تلك الأيام حير سامع يصبر على هذري.

وربما يكون تلك القصص كلها قد عدت من أن قصصها عليه، ولكن شهيتي
للمحديث لم تهدأ بعد..

وفي المساء، جاء رجل من قسم اليهود المحاور لبروري، لا أتذكر الآن
اسمه، فيما أن رأي حتى صافحي وهو يقول «رحمة الله وسعة..» ثم
بادرني سائلاً «أأنت الذي وصل هارناً إلى محل كُنْجِيكَ؟» «هزرت رأسي
بالموافقة قل، بعد ما سمعت قصتك، كنت جنب في عرفتكَ لأسم
عليك، ولكنك كنت هنا فلم أوقفك» وصافحي مرة أخرى وهو بحمد
الله وقال: «أنا وصيت هنا قبل يومين، شجار يسير مع الكميل فأودعني
هنا.. لكن لا أسي «كُنْجِيكَ» سيأتي فوراً يُصرح عني» ولم يزل يتكلم ويده
في يدي، ويحمد الله ألف مرة. وحينها، لم أتحالك بهي من السك، لم أدر
لماذا.. حتى أنكنت بيجاني ذلك الرجل العريب أيضاً واستمر بحمد الله وهو
يعود إلى قسمه..

وجاء بروري بعد ذلك كثيرون، ولم يسألوني عن شيء، لأنهم قد سمعوا
قصتي كلها من ذلك الرجل وإنما جاءوا الآن لبروري رأي العين، وحدثوني
مأخوذين بالذهشة والبعض القليل أخذوا بيدي يواسوسي كما فعل الرجل
الأول وتناقضوا قصتي حتى ملعت زملائي في قسمنا

جاءني أعين الكيراليين، منفصلين عن حنقاتهم، ليستمعوا حوي. وكان
بعضهم يحمق في كمالو أنهم رأوا حيواناً غريباً وبعضهم نظر إلي في تعجب
وتحرون في تقدير وغيرهم في تعاطف وقليل منهم في ارتياب. ومهم يكن
من شيء، علمت أن الكيراليين في السجن قد جعلوني مصعة في أفواههم
خلال ساعات قليلة وفي الأيام التي تلت، استقبلتُ عددًا أكبر من برور
أحبروني على الحديث الطويل. وما حيت رجاء أحد، بل انتهت الفرصة
لإشباع شهيتي للمحديث. وعدتُ أمراً قلبي لآلاف المرات بكل مشهد من

مشاهد قصتي . وكلما تذكرتها، أحسست بأسي أمشي على الرمال حارة
فتحترق قلماي الخافيتان..

وحينما جلسنا على مائدة العشاء بعد المغرب من ذلك اليوم، وحدث جميع
الكيراليين في قسبي منجمعين حولي ولم أكن أملك سوى دموع مسكة
مقابل حبهم الجارف..



كان توزيع الطعام في السجن مرتين حسب موافقت الصلاة في الصباح
 أساكر عقب صلاة الصبح كوب من الحليب! وبعده إلى أن يبدأ الإفطار
 في التاسعة، يتوفر الشاي بقدر ما تشع به الشهية والإفطار حر مع مرقعة
 نعدس. وبعد صلاة الظهر، يكون العداء جاهرًا والوقت يكاد يقترب من
 الثانية عشرة ووجهة في كل يوم نوع من «البرياني» العربي الذي يسمونه
 «كسة» أو «محبوس» ويُحضر الطعام في صحن كبير يكفي لعشرة أشخاص
 وعينًا أن يأكل من صحن واحد في أسلوب عربي وفي كل يوم يحبط اللحم
 أو الدجاج أو لحم الإبل أو الصان بالأرز على التواب فلا آكل شيئ في
 يوم الصان. فيقول عبد الحميد وهو يلخ عليّ: «مضى ما مضى حاول أن
 تمرّن نفسك عن سياها ولا تحرم على نفسك الطعام والسحر أفضل
 مكن لتسمين الجسم، ألا تحب أن تعود إلى الوطن وأنت على الأقل بالصحة
 والعافية التي غادرته بها..؟ ولم تجعل زوجتك تصرب على صدرها منحرة
 على صحتك الصائغة؟ ولا يسعي أن يعلم ببلات غيرنا. «ولكسي، مهما قد
 لأحرون لإقناعي ومواساتي، لم أكن قادرًا على تطويع نفسي وكنت عيبي
 تدمعان بمحرد سماع أي أحد يطق بكلمة «لحم الصان».

وفي البداية كنت أصعب يدي في الطعام من شدة الجوع فأرى فيه لحم الضأن
 فأقوم عنه صامتًا أفص يدي من بقائه. وفيما بعد، صرت استعصر عن الطعام
 مسبقًا فلا أقرب منه في أيام الصان، فكنت أكتفي بالشاي والبسكويت بعد
 صلاة العصر. ولا يختلف الأمر في الليل أيضًا، إذ يكون العشاء الذي يورع

بين صلاتي المغرب والعشاء «كُتُوس» ومِرْقَة لحم، ولا أدبوا منه إن كانت مِرْقَة
الصَّار. ربما يدفعني الجوع الشديد إلى ابتلاع الـ «كُتُوس» بدوها بعد غمسها
في الماء ولم أحد صعوبة في ذلك الأكل لآسي قد عودت نفسي مدسوت
على ابتلاع الـ «كُتُوس» بلا شيء يرطبه.

ونمتعنا داخل قسما بحرية كاملة حتى ظننا أنه ليس لسجن شميبي شيء
من المواصفات المعروفة للسجون وربما يعود سبب هذه الحرية إلى أن هناك
سجن أو قسم خاص بمرتكبي الجرائم الكبيرة وأما سجناء قسما فكانوا
من محالفي القوايين غير الخطيرة، من فاقدِي الإقامة أو حاملي إقامات منتهية
لصلاحية أو مسلم تم القبض عليه في الشارع في أوقات صلاة الجماعة، أو
أكل في بهر رمضان، أو مدخن في مكان عام أو مراول السحر والشعوذة
أو متشاجر مع مواطن وغيرهم ممن حكم عليهم بالترحيل، العقاب الخفيف
والشديد معًا..

وكنت مرتاح البال تمامًا حتى لا أذكر لتلك الأيام يومًا مثيلًا من حياتي .
يُحصر الطعام بلا تأخر.. تقوم صلاة الجماعة في وقتها أنام ملئ الجفون بل
فوق ذلك.. أقطع الوقت في التفكير بلا عنوان.. أتحدث من غير حساب..
أسبح أحلامًا جديدة للحياة . هذه هي أيامي في السجن. لكن لا يعرفنا
العلم ولا نعرفه. ! وذلك هو السجن في الحقيقة!

وشكابة عبد الحميد كانت بسبب عدم وجود تسهيلات الاستحمام في
السجن قصيا أسوأً وبحس على تلك الحال انفرطت بالصحة عندما
سمعت عبد الحميد يتدمر من إخراجهِ من التعرق المتزايد ورائحة نفسه
انكريمة عددت على أصابعي . ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام .
ولما استحصرتها في دهلي، تعالت ضحكتي أكثر. عبد الحميد نفسه ربما م
يدرك عندئذ سر ضحكتي.

ن لكل واحد من استهو إلى السجن مثلي قصه ملؤها الآلام والأحزان
والمعاناة والدموع والراءاء والعجز، ربما سمعتموها في يوم ما تألون محبلة
ولا أريد أن أستحب آلام أحد منهم وبألسنة لكل واحد منهم، فإن
طريق لي احتارها كنت شائكة. وقد حسر في الحيلة ما لا يملك أحد
تعويض عنه. بل أفكر أحياناً أن الآلام في حياتي حميفه نالسة إلى معاناة
الكثيرين منهم وفي الحقيقة أن بعض قصصهم المحزنة قد ساعدني على
الخروج من أحزاي وعلى الكفحة من أجل اللقاء حتى أقص عديكم قصتي
هذه. وإن لم يكن كذلك، ربما انتحرت من ثقل أحزاي ولا شك أن لطريق
الأمثل للتخلص من حزنا هو أن ستمع إلى من هو أعظم حزناً من

يقام في السجن طابور الاستمراض مرة في الأسبوع وذلك هو يوم
الدموع، يعود علينا مرة في كل أسبوع، تتاح فيه للكملاء فرصة للعثور
على إغاريين من مكحوليههم، ويصطف حيقاً خارج القسم بعد الإبصار
يمر على الكملاء معين النظر في كل وجه كشاهد يحدد المجرم وللأسف
الشديد، يتم في كل أسبوع تمييز بعضا من أصحاب الخط السيئ، وإد عرف
الكفيل عامنه المارب فيكون رد فعله الأول أن يصعفه صفعه تفرقع طيلة
أدنه وبعضهم يجلع حرامه ويجلد به العامل حتى تهدأ أعصابه على مرأى
من رجل الشرطة، غير أنهم لا يكثرثون به. علماً بذلك، يصرح بعضا بأعلى
الصوت خارجاً عن طوره حاملاً يترأى كميله على السعد وفي تلك اللحظة
فقط نفهم كيف يحس الإنسان إذا أعيتة الحيلة. ربما كان يعيش في السجن
مرتاج الدل بعد معذته لسنوات طويلة، ولا بد أنه لحاً إلى السجن بعد أن
لقي من كميله ألواناً من العذاب فلا يتحمل حتى تصور العودة إلى نفس
الرجل الذي كان يتعش في تعذيبه بكل قسوة

ولكن الكفيل لا يرق قلبه للعامل ولا يرحم. يحجره فوراً وهو يرميه منهم
علطة ويصبح «هذا سرق مائي». هذا حاول أن يعتصم ستي هذا
أراد قتلي «قتل مع على وجه العامل ديانة حروف يساق إلى المسلح، تعبر
صرخاته التي تنطق براءته من وراء حيطان السجن ولكنها تذهب صيحه في
واد دون أن تجد أداناً مصعبة. يتعد الكفيل قوايه كما يشاء

وإنما يعني ذلك أن المواطنين تمتعوا في سجون وطهم بحرية أوسع من
حريتنا في سجن بلد أجنبي، وفي يوم الاستعراض، تفتح بوابة سجن شمسي
على مصراعها أمام كل مواطن يحمل وثيقة بلاع رفعتها إلى شرطة، وإذا عثر
على «عده» الذي هرب منه، فمن حقه أن يحجره إلى مكتب المسؤول ويقدم إليه
بلاعاً عنه، فينزع مجرى القضية ويصبح المسجون عن مخالفة يسيرة مرتكب
جريمة خطيرة.. ثم يُترك إلى القانون ومحكمة الشريعة والعقاب، ومن حقه
أيضاً أن يستأذن من المسؤول ليذهب يعامله مباشرة، أو أن يطالب بترحيله
إلى بلده. وإن تفق أن طالب بذلك فلقد نجح العامل ولكن إذا أمر بالرجوع
إلى كفيله فقد تحدد مصيره

انتاسي خوف شديد عندما التفت إلى تجربتي التي عرفت من خلالها مأساة
هارب رُجع إلى أيدي كفيله الذي ينتظره ليأخذ ثأره. وليس في وسعي إلا أن
أسأل الله تعالى أن يقوي هؤلاء النائسين على تحمل المصائب المنتظرة له.

ويصل السجن في بقية اليوم ساكناً صامتاً يحتلح عما من عراقي رميك الذي
كان معي في هذا القسم، يشترك معي في حديثا وصحكا وأكلنا وفي حيننا
إلى أوطاسا. يتردد في اداننا صدى صراحه الذي امتد إلى القاعة الرئيسة وما
وراءها لا يربح أحد في الأكل أو الشرب أو التكلم أو النوم. ولا يلبث أن
تدمل تلك الخروح حتي يعود علينا يوم الاستعراض من الأسبوع القادم،
وتقع فيه القرعة على بريء آخر ولم يكن لنا في السجن ما تطيب ذكراه على
حال من الأحوال!

في عصون ساعتين قبل العداء، يسير أمام صبور الاستعراض مئات من
العرب المواطنين يرددون أنصارهم بين الوجود في الطابور ما أشد ما روعتنا
تلك ساعات في الدنة! نوقعا أن نلم بما الخط السيئ في كل خطوة من
لخطاتها وإذا أحس أحدا نادى مشايه، اشتعلت في قلبه يرا أن بكر
يمسك السيطرة عليها ولا تعطى إلا إذا تأكد أنه أخطأ كمله.

عندما ينتهي الاستعراض، أشعر بظمائية لا توصف، على الرغم من
أن حاجتي يوم كن على حساب دموع الآخرين المؤساء. اسمحو لي هذه
الأسية نمتلى في دخلي فرحة بأنه لم يأت أحد بطنسي ولعله نسب
التكرار لدي يعود الإنسان على أي شيء، استطعت مع مرور الأيام أن
أتعلب على ذلك الخوف الذي كان يملكني في أثناء ساعات الاستعراض
وربما يكون ذلك لاعتقادي بأنه قد مضى الزمن الذي يحتمل فيه أن محصر
أحد يبحث هني.

وعادة في عصون أسوعين أو شهر على الأكثر يقع كل عاص هارب في
فح الشرطة أو يلتجئ حلاله إلى ملجأ آمن مؤقت ولا يكون من السهل على
مواطن أن يعثر عليه بعده وهناك عدد كبير من الهاربين غير الشرعيين من
هذا القيل يقيمون في المملكة منذ سنوات كثيرة فيهي المواطن التحريث
بعد شهر أو شهرين، ويبقى مجرد بلاع لدى الشرطة وإن عثر عليه بعد هذا
فذاك من حسن حظ المواطن، لا غير.

وبعد مرور تلك الفترة، اطمانت أنا وعد الحميد إلى أنه لن يأتي أحد
ليبحث عنا. فأصبح الوقوف في الطابور من الأوقات الممتعة بالنسة لنا
مع مرور الأيام قضينا تلك الساعات بتجاذب أطراف الحديث وإطلاق
المكات والمكاهات وم تختلف الحال لأحد من وصلوا إلى السجن قبل

حسبه أشهر أو أربعة صرنا معتادين على الخوف وتكيفنا معه وهكذا
بواجه ظروف الحياة مهما تعاقمت عبر مختلف مراحلها.

وكان قسم أشبه شيء بمحطة القطار التي تردحم بالمسافرين، يعددها
القديم في حين يقدم إليها الحديد، ولا يستقر فيها أحد

وما أتى السجاءها أفواجا، بل حاروا فرادى في أوقات وأيام مختلفة من
مراكز الشرطة المختلفة من أرجاء البلاد. وربما لا نحس بهذا التزايد المتدرج
في عدد القدامى لكن المعادرة كانت أحياء بدفعة واحدة كما يحلو رصيف
محطة قطار من كافة الركاب عند وصول القطار.

ويتلو يوم الاستعراض يوم السفارات. يحصر إلى السجن موظفو
السفارات المختلفة حاملين معهم تصاريح الإفراج لمسجون بلادهم. يوم
الأفراج بعد يوم لأفراح يقف ذلك اليوم أيضا في طابور حارح من القسم.
وينادي موظفو السفارات بأسماء من انتهت إجراءات ترحيله التي يسمونها
تصريح الخروج فيتقدم هؤلاء حطوتين. كما يقضي تلك اللحظات على آخر
من أحمر. وفي ما بعد، كنت أشته من باب المزاح حالتنا في ذلك الانتظار
سملع الفتاة التي تنتظر إعلان نتيجة مسابقة اختيار ملكة جمال العالم. وهناك
فرحة تتبرعم على ثمر الفتاة عندما يعلن اختيارها كملكة جمال العالم.. ولا
بد أن تتبرعم نفس الفرحة في دحيلة كل مسجون ينادى باسمه، لأن هذا
البدء ربما يمثل خلاصه النهائي من معاناته المرمية، غير أن أحدا لم يظهرها
للآخرين. وكان كل واحد منا يتوقع أن ينادى باسمه في كل لحظة. وعندما
يعلم أن اسمه ليس في القائمة، تغتربه حيلة أمل لا توصف.. فيجهش بالسكاء
بعض من طال انتظارهم أشهرًا كثيرة

وبعد ذلك حمس دوتق التوديع، وهي فرصة نسح لنا يسما بذهب
الموظفون إلى مكتب المسؤول لإتمام إجراءات الترحيل وعلى الرغم من
كأننا على انتهاء أيام حياتنا المشتركة التي جمعت بيننا في أمسا ولاصا، إلا
أن توديع المدرسين بكل سرور. ولا يتهون من توديع الجميع حتى يقطعهم
صغير الشرطة كنواق قطار قبل التحرك فهورول إليهم انعدرون كلهم
وهل يحب أحد أن يعادر السجن وعلى ظهره آثار أسواط لشرطة ٢



ومع مرور الأيام وأنا في السجن على هذه الحال، تمسكي حرج مجهول
لقد تم ترحيل من وصل قبلي وبُعدي. ولم تتم إجراءات ترحيلي في اليوم
وكنت أعدم أنني لست مثلهم.. معهم حوارات السمر وليس معي جوار
سهمي فلا يمكن لي أن أتوقع إتمام الإجراءات بسرعة كما هو حاصل.
ونكن إن متى هذا الانتظار! لكل شيء حد وقد مر على يوم وصولي ما
يقارب خمسة أشهر على الأقل والسب الوحيد الذي يدعو للاطمئنان
هو أن عبد الحميد معي ليشاركني في هذه العجاسة ولم يتم إجراءات ترحيله
أيضا إلى الآن.

وفي كل أسرع، كلّي وصل موطئ الساعات يرق الأمل فينا. ولكنه
سرعد ما تحمده الكأبة عقب رجوعهم. إنها استسلم للشرطة واثقين
بـ «كُنْجِيكَا» حين تعهد بأنه سيرتب باقي الأمور.. وأنا حقًا واثق به..
يا الله لو لم أثق بـ «كُنْجِيكَا» فمن ذا الذي أثق به في العالم بعد؟ اللهم
اعمرني بلطمث وعمرك هذه اللحظة التي تملكني فيها الاكثاب حتى ارتت
في «كُنْجِيكَا» وسيت إحسانه إليّ حالصا لوجهك

هذه هي إجراءات السفارة لا تتم إلا في مهديها ونظامها البطيء. نكسي
قد استطعت أن أصبر كل هذه الأشهر الطوال. ولم لا أنتظر أياما قلائل
فوقها؟ وما حال الوقت الذي قدره الله لي بعد. أب كان ذلك التفسير
الوحيد لمقنع لهذا التأخر.

وجاء يوم الاسعراص الذي يأتي فيه العرب في السحر وقد صرت
أن وعد الحميد خلال هذه الفترة من سكان السحر القدماء أما الحمد
فكانوا مدعورين من قدوم العرب مشيت أنا وعد الحميد بهم بواسطة
وهداهم حتى انتهى إلى موقفا في آخر الطابور. وكان رجال الشرطة أيضا
من انتصديق معنا. أظن أنهم كانوا يتعاطفون معي بعد أن بدعهم
حكاييتي ومفصل ذلك، لم يشددوا عليا في أمر الانصراط على خلاف
غيرنا من السجاء الحمد عند الوقوف في الطابور فأصبح من عادتنا
وسحر في الطابور أن نرفع أصواتنا ونصاحك لسب أو بدونه وأن نسكر
من غيرنا.

وبينا كنت مستغرقا في الحديث مع عبد الحميد، اصممت وجهه فجاء
وامتقع لونه. ونظرت إليه في استعراب. بقي على هذه الحالة هيبه.
ثم دعاني بصوت مذبوح يا نجيب. وقد كان هذا النداء مطويا عن
أحاسيس أن نفسي لم أحط بها. وقد اختلط فيه كل من الكآبة والفرح والألم
والدمع والخر.. عند ذلك فقط، علمت أنه قد يجتمع جميع العواطف في
بده واحد ويعبر كل صابي العالم عن التعبير عن هذه اللحظة الحية من
لحظات الحياة.

وم أكر في حاجة إلى مرید من تفصيل عبد الحميد.. ألقيت النظر إلى
حيث تسمرت عياه رأيت رجلا عربيا يقبل.. وقبل أن يقترب منا، بدأ
عبد الحميد يطلق صراخات. الأمر الذي سهّل على العربي العثور على
فريسته. ها هو ذا عامله اغار ب نصب عييه يطلق صيحات الفزع..!

ولم ينظر العربي إلى وجه عبد الحميد حتى اندفع إليه كسر جائع.. وأمطر
عليه بوابل من الصرير، متسلحا بكل من بده وحرامه وعقاله حتى هدأت

أعصاه لم يكن في وسعي كعيري من رملاء القسم إلا أن أتفرح بكيا على ما جرى.

«حليبي روح لبلاد . لا أقدر أن أشتعل عندك حبيبي روح أرحوك حليبي » وعلى الرغم من صراح عند الحميد، اجتره لعربي على الأرض يذهب به إلى مكتب المسؤول.

وكان ذلك لقائي لأخير بعد الحميد، ولم يبلغني بعد ذلك شيء من أخباره مع قلقي الشديد حول ما لقي من الحياة بعد ذلك ورب حياة مشها تتوقف في الوسط قل أن تلع متهاها. ! خلق صعداء يتلاشون دور أن يفصوا على أحد حكاياتهم.

وبالسي لي، لم يكن عند الحميد واحدا من معارف الدب عشت معهم أياما من حياتي ولكنه كان لي صديقا حيا كان عاملا يعمل طوال اسهر لقاء أجرة رهيدة في مررعة كفيه الذي كان يتمس في تعديه ولما تجورت الأمور حد الصر الأقصى، هرب من المررعة ذات يوم. وحينها وصلنا إلى السجن، كان عند الحميد أشد فرحا مني بكثير كأنه أقنع نفسه بأنه لن يقع مريسة في مع كفيه طالما التحا إلى حماية الحكومة من العالم المتوح وما أسرع ما تنقلب لأمر رأسا على عقب...! وساد في القسم صمت ثقيل طيلة ليوم. كان عند الحميد بمن يحبه الناس كلهم لحسن خلقه ومعاملته مع الآخرين كان يطلق السكت والمكاهات ويواسي العير كأخ كبير وأخير، شاءت إرادة الله أن نجعلنا شاهده وهو يُجر على الأرض يطلق صراخاته العالية ولا أذكر في تلك الأيام أحدا صرح صراخا حيا أكره أن يعود إلى كفيه أشد من صرخات عند الحميد.

وفي يوم الثاني صوحت حمرنا عند سمع اسمه أول الاسماء نبي
نادى به الموطعون ذلك اليوم. يا ربي أنت ما أردت أن ينادى باسمه في
الأسبوع هذا. لو كان ذلك لاحتفت حياته واملاأت بالفرح والسرور
لا لا أندخل في حكمك يا رب، ولا أتكلم في قصائلك. أنا مؤمن بأنك
حكيم حير. وإنما أسألك الآن أن تقعه بأن أيام انتلته لم تنته بعد

وبعد رحيل عبد الحميد، شعرت بوحدة شديدة في السجن. ولم أقدر
أن أتصدق صداقة قوية مع القادمين بعده أصبحت ملتزم بهذه الرؤية
أو تلك معمر عن لباس وحديثهم. وبدرا ما تناولت الطعام. مر علي
أيام دون أن أكل شيئا. فقدت نشاطي مع فقدان عبد الحميد. ولم يعتريني
النشاط في يوم من الأسبوع إلا في اليوم الذي يجصر فيه موطعو السعرات.
انتظرت على أحر من الجمر لليوم الذي ينادى فيه باسمي.. ولم يقع ذلك
أبدا. وكنت سألتهم ملتصقا بأديانهم، أظالوا الكلام عن عديد من الأوراق
المستعينة التي لم يتم تحريرها بعد. ولكنهم مع ذلك لم يعادروا إلا بعد أن
تركوا لي بارقا من الأمل في أن الإحراءات قد تتم في الأسبوع القادم. وما
رلت عرضة بين الرجاء الذي يصعد بي عند وصولهم وحية الأمل التي تهبط
بي عند ذهابهم

وبينما كانت الأيام تمضي هكذا، كنت واقفا في الطائور ذات يوم من أيام
الاستعراض وأنا لا أشعر بشيء من اخوف أو الرجاء أو الخيبة.. ولم يرل
يمر بنا كثير من العرب. وفي تلك الأثناء، لاح لي بالصدفة وجه من طرف
الطائور الأقصى.. لم يقع في موقع النظر حتى أحدث العزع في قلبي برقاورعد.
مجلجلا.. دعوت الله في سري صارحا كما صرخ عبد الحميد قبل أيام.. وكان

دبت «أريابي»⁽¹⁾ يدي كك على اعتقاد من أنه لن يأتي أبداً يبحث عني
ولن ألتقي به مرة أخرى . هذا ملا شت أريابي الذي لفتته لأول مرة في مصدر
برياض قبل أربع سنوات . أحدثني الدوخة من شدة الخوف . أمسكت بيد
الرحل لدي كد إلى حسي حتى لا أسقط على الأرض حرعى



(1) هذا اللفظ خاص باليهود الذين يعملون في الخليج وهي تعني «أصحاب العمل» وأصلها
ثاقب في لغة عربية وذكر أبص في لسان العرب وعن الرعم من أن الكلمة جمع في الفعة
العربية إلا أنها تعامل معاملة المفرد عند اليهود في الخليج

وضعت حرب العراقيه الأولى أوارها وكادت تهدأ اضطرابات التي هزت الخليج وبعد فترة يسيرة من الانقطاع، فتحت من جديد أبواب عديدة إلى سوق العمل في دول النفط على مصراعيها. وبالصدفة أحبري صديق لي من «كروان» أن عمده فيرا للبيع، فوقعت في نفسي رعة لم تحظر بالبا إلى اسعة. إلى متى أقضي الحياة ها كعوامس. ؟ ماد لو سافرت مرة..؟ لا لسوات كثيرة.. لست طماعا إلى تلك الدرجة.. بل حتى أتمكن من سداد ديوي وبناء غرفة إصافية لبيت الصغير. إن هي لا أحلام يحلم بها كل كيراي عادي وعلاوة على ذلك، سمعت الناس يقولون إن الخيمات المعبة توشك أن تحظر استخراج الرمال⁽¹⁾ من النهر لاحقا وإن فقدت هذا العمل فمن يعصبي عملا آخر. ؟ هل أصبر على الخوع ؟ استطعت ذلك في ما مضى من ارمس ولكن الظروف قد تغيرت الآن. تروحت تقبادا لإلحاح أمي. وروجتي حامل في الشهر الرابع.. ستراكم عني المصدريف في القريب العاجل ككشان رملية. وإصافه إلى ذلك، فقد اعتراني مؤخرا برد وحمى ستولي عني تمام ريبا يكون سبهما الغوص المستمر في الماء كل يوم إذا تركتهما على هذه الحالة قد يتحولان إلى التهاب رئوي حاد.. وحتى لو حدث ذلك، هل يمكن لي أن أتوقف عن العومس. ؟ لا شك أن هذه فرصة أتاحتها الله لي. لا ينبغي لي أن أدعها تعوتني.

(1) يعتمد أهل كيرالا على رمال الأهدي في أعمال البناء حيث تعد الأبار المصدر الوحيد لرمال البناء

«هل عندك أحد يريد السر س يكون هد بواسطة نسيبي وهو الآن موجود في السلا في إحارة وإذا أرسلنا معه القلوس فوراً سيرسل ك التأشير في غضون شهرين» قال الصديق وقد لمعت في راوية قلبي صورة الحوار الذي قدمت الطلب له انقيادا لإخاح ريسب الطويل دعم أبي لم أكن في حاجة إليه:

«نعم، عندي واحد، فلا تعطه لأحد آخر» أجمته بحماسة فملكنتي حبيها.
«فتعال إلى بيتي عدا، دعنا نذهب معا للقاء نسيبي حتى تتفق معه على باقي الأمور».

وبعدما نصرف الصديق كنت قلقا مترددا في الأمر. شعنتني الفكرة وقت طويلا وإسما شاطرتها ريسب حينها لم أستطع حملها لوحدي وكأية امرأة، ما سمعت بالخبر حتى طارت في حماسة.

«هذه فرصة أتاحتك الله، لا ندعها تموتك، وما أكثر ما ألححت عن إخوتي.. لم يتم شيء إلى الآن».
ولها أخوان، وهما في الخليج.

«لكن يا ريسب، الأمر يتطلب مبلغا هائلا.. هل عندنا ذلك المبلغ؟»
«العريضة تحقق كل شيء» هل يسافر الناس كلهم إلى الخليج بعد أن فاصت أياديهم بالموس..؟ توكل على الله وادهب إلى صديقك من «كرونا» بكن عريضة. «شجعتني زينب

كانت زينب هكذا على كل حال. لا تنفوه بكلمة تحييب الأمل.. ولها قدرة عجيبة على أن تجعل فقرها يبدو ثروة للناظرين وكنت أعتر بها في سري..

وحتى قل أن يمر عام على رواجها، تفكرتُ عبر مرة أنها امرأة بعد قدومه لكل النساء.

ودها معا إلى «النسيب» في اليوم الثاني طلب مني ثلاثين ألف روبية واشترط أن أدفع له عشرين ألفاً منها في غضون أسبوعين قبل رجوعه حتى يتمكن من إيفاء لوعده لستم بإصدار التأشيرة إنما «تأشيرة» إني عهدي لتكاليف التذكرة وغيرها ويكفي دفعها بعد الحصول على تأشيرة إلى الوكيل في «مؤمني» ورغم أنه لم يكن في وسعي جمع ذلك مبلغ الكبير لا أسي أحسست بجرأة مخشيتي على القول، وتم الاتفاق

وكان لأسبوع الثاني ملياً بأيام السعي الحثيث.. ولا نأخذ من قصة هذا السعي حياة أحد ليس له قريب في الخليج ليدعمه ومنتظت أن أجمع سبع في آخر المطاف أرهت في السك مكتبة البيت والخبية الذهبية لصغيرة التي كنت ترين صدر ريب . واقترضت من كل زملائي العواصم ما تيسر لديهم من الفلوس.. ونسبت مبالغ بسيرة من كل معاري وفي تعبير أدق، جمعت المبلغ كما تجمع نفودي «الخصلة». وعاية القول، بني تمكنت من إيصال المبلغ إلى «النسيب» قبل سفره ليلة . (وكان بإمكانه أن أتسب من أخوي زيب (أوطي)، وهي التي معنتني من ذلك، لأنها كانت متصيفة من عدم اهتمامهما بأمرنا حتى اليوم).

ومر على ذلك شهران. أيام الانتظار والأحلام والاقتراصات المتسلسلة. بقي عليّ للوكيل عشرة آلاف ونجحت أن أملاً هذه «الخصلة» أيضاً وفي تلك الأثناء كنت أسح أحلاماً عديدة. تلك الأحلام التقليدية التي ربما سجدت قبل السر كل واحد من الكيراليين «الخليجيين» الذين يدفع عددهم أكثر من مليون ونصف . ساعة ذهبية.. ثلاثة . تلهار سيارة مكيف سلسان ذهبي ثقيل . وقد شاطرت أحلامي زيب قبل النوم في تلك الليلة .

«لا أريد شيئاً» قلت رست «عليك أن ترجع حاملاً ينوهر عندك من المال»،
يصمن حياة كريمة لوليدنا القادم (هل هو ولد أم بنت؟) .. ولا يريد أن
يسكثر من المال كإخوتي فلا يرغب في بناء بيت يشبه القصر مثلهم وإنما
يريد حياة كريمة تجمع بيننا ولا نفرقنا.

وربما كان ذلك ما تقوله كل امرأة لزوجها الذي يريد السفر إلى الخليج
إلا أن الخليجيين يضطرون هؤلاء إلى قضاء عشرين أو ثلاثين عاماً من
عمرهم في تلك العرنة^١ وما سر هذه المعصلة؟

وفي النهاية استلمت برفية من الوكيل بـ «موتباي» تقول «الغيرة جاهرة»
تعال ها ساقى الفوس» لخطتها كدت أطير فرحاً كنت فعلاً أشد فرحاً
من ملايين الكبراليين الذين سقوي إلى الخليج .. نعم، كنت أشد الناس فرحاً
في تلك الليلة .. لم يعانق أحد روجته كما عانقت ريس في تلك الليلة والفنق
الوحيد كان على بنتي أو ولدي. لا أكون هنا يوم ميلاده أو ميلاده .. ولا
يمكن لي أن أقف بجانب زينب أربت على جسدها المتراحي عند ألمها الأكبر

قلْتُ مراراً بطن زينب المتنامي وأنا أبأدي. «يا نبيل .. يا صفية» (اسما
اخترتهما للمولود) «كُنْجِي. تَشْكِي ..» (اسما الدلع) «يا ابني ..» (؟) يا بنتي.
(؟) أبوك لا يكون هنا ليراك تأتي إلى الدنيا بعينيك المفتوحتين ولكي يوم
أعود إليك سأحضر لك هدايا عملاً يديك ..

والآن، تعود تلك اللحظات إلى الذاكرة كبعض مشاهد أفلام تافهة تثير
العشيان ألا تفوق حياتنا في بعض الأحيان المشاهد السينمائية في سخريتها؟
ذهبت إلى صديقي بـ «كروآنا» لأخبره بأني استلمت الفيرا. وبعد ذلك
فقط علمت أن ولداً من «دهانوا تشورام» قد حصل مثلي على فيزا العمل

في نفس الشركة عن طريق «السبب» نفسه وبالمسة لكل من، كان السفر خارج البلاد تجرئتنا الأولى، فاتفقنا أن يسافر معا.

ركبنا مع العطار من محطة «كنافاكلام». وكان ذلك لقائي الأول بذلك الولد الأمرد المحل الذي كن يدعى عبد الحكيم

بكت أم عبد الحكيم من وراء نافذة القطار وقالت لي

«يا ولدي، سي عبد الحكيم لم يسافر إلى الخارج قبل الآن أتركه معك في دمتك وعمايتك».

أما أن فقطعت نظر عن أمي وريبت لناكيتين، لأني كرهت أن أبكي أمام الناس.

كان الفلق أسود من الفرح في تلك الرحلة أفلقني متاعب السفر، وخوف على المبلغ الذي في الشبطة.. والهلج من المدينة التي مسرون بها. ومن حياة الوكلاء التي سمعت عنها قصصا كثيرة.

كان في «مومباي» صديق قديم لي يدعى «ششي». وقد نصلت به لأخبره عن مجيئنا ومع ذلك خفت ألا يجضر إلى المحطة في الموعد المحدد

قضيت تلك الأيام الثلاثة والهواجر تتلاعب برأسي ليست فقط عن نصبي من عبد الحكيم أيضا. وهو لا يزال طفلا يلعب ويستمتع بالرحلة..

ولما وصلنا في «مومباي» اصمحت تلك الهواجر كلها حينما أظهر «ششي» نفسه أحبا شقيقا لي في كل شيء.. حتى أنه ترك عمله ليومين من أجلنا. ولا شك أن حرص الكيراليين بـ«مومباي» على مثل هذه الخدمات شيء جدير بالذكر. أسكننا «ششي» في عرقته الصغيرة التي كنت ملجأ لثمانية

اشخاص آخرين أحسب بأن العرفه استقلنا أيضا دون ما تضايق. بل
بدت مستعدة لاستقبال واحد آخرى إنه توسع لا يمكن أن يصعبه إلا
الكبير اليوس في «مومتي»

دفع المسبح إلى الوكيل فقط بعد أن أربا التأشير الأصلية. ومكثنا في
«مومتي» أسبوعين أسبوعين طويلين. بدا لنا أن الوقت فيها شيء راكد
لا يتحرك. أحسب بأن المحطات فيها كانت تساوى قروبا والأيام كانت
دهورا.

وإذا ذهب «شني» ورملاؤه إلى العمل، نخرج للمشي. مشيا بلا
مقصد من طرف لا يعرفها وبدون لغة تتفهم بها مع أهل المدينة
منسحين بحراة مجهولة مشب في أرقه «دهارآوي».. عبرنا شوارعها
بصفة بطولية.. ذهبنا بلا قصد إلى محطة القطار بـ «أندهيرى» حيث وقف
نأمل زحام المسافرين أكلنا «أوباجي».. شربنا «سُرْت».. رربا معارض
الأفلام شربنا «سير» في صحة «شني» (ولعد الحكيم فقط مشروبات
بردة) سهرنا لياليا في مفاهي الرفص. قصصا هكذا أسبوعين

وأخيرا، جاء يوم السفر ولم تكن عندي أعراض كثيرة. سوى إدام
و«أنشأ» (المحلل) أعدتهما ريب الحامل في حب أسماها إعياءها
و«تشمندي» (مطحون حور الهد المحلوط بالملقل) الذي طحنته لي أمي
منحامة على نفسها و«أنشأ» السمك الهري. وروح أو روحين من
الملاس (قالت ريب لم تحمل الكثير وأنت تروح إلى بلاد فيها أكثر)
مديل الخمام وصابونتين. ومعجون الأسنان والفرشة.. وكذلك الحواز
والتدكرة وبعض أوراق الروية الهندية. لا غير ولكن عبد الحكيم كان
يحمل أثقالا قد حيل إلى أنه يحمل في شنته كل ما تحتاج إليه عائلة كبيرة في
عام.. ضحكنا منه أنا و«شني».. لا شيء إلا أن نرى نخجله حينها.

والإصافة إلى «شني»، رافقنا إلى المطار زميل له في العرفه وكما يقول كل كبير لي «حسني» عندما يودع صديقه في المطار، تركتهما مع وعود بأسي سارسل هما فور وصولي في المطار تاشربين هما، سأحصل عليهما «لاحتاس على العربي» فاشسي اتسامه تم عن عدم تصديقهم وأنا حهما يقول «ما أكثر ما سمعنا ذلك!».

ألم ترزع كلمتي مع ذلك بذور الأمل في قلوبهم؟ وليس الكبراليون المعتزبون في «مومباي» يقومون بطروفيهم القاسية منسحقين نصيص من هذه الآمال..؟

وخلعت ساعتني من يدي أهديها لـ «شني» لقاء ما قدم لي خلال أسوعين من الخدمات. كنت هي ساعة أهديها أخو ريس حينما جاء من الحبيح لأول مرة حاولت أن أتصل بالبيت من نقطة اتصال في المطار. وهالك هتف في بيت جربا ولما فتح الخط بعد محاولات كثيرة، أوكلت إليهم بإلاع الخبر إلى بيتي.

والإجراءات في المطار كانت سهلة وسريعة. وعند دائرة الهجرة فقط، سألي الموظف بعض الأسئلة.. اقتحمنا تلك العفة بسرعة بفصل ورقة مائة روبية أديحتها في جوارني قل أن أقدمه إليه وأبصا بفصل أني لا أفهم لعتة أهدي ولا يفهم هولعتي الملايالية كانت الرحلة في طيران هدم من «مومباي» إلى برياص واستغرقت الرحلة أربع ساعات ونصف ساعة. وهبطت طائرتنا في مطار الرياص في 30 4 مساء حسب التوقيت المحلي بتاريخ أربعة من الشهر الرابع في سنة 1992 م

يا مدينة أحلامي ها أنا ذا جئتك فأحسي صباقتي.



نزل من الطائرة إلى عالم عجيب أعجب مما توقعناه وفي تلك الأيام، لم تكن وسائل الإعلام المرئية تبث لنا إلا أهل القبيل عن لعالم العربي ونكس صورته تكونت في ذهني من أقوال الذين سقت لهم ريارته ولديك أدهشتني تلك المناظر الجديدة التي تشير إلى قمة الرفاهية إن كانت في «مومباي» تشكل كنوساً فقد كانت الرياض تمثل دهشة

خرجت من المطار بعد أن تمت إجراءات القدوم ولم يكن باستطاعت أن يطيل لاستمتاع بالمناظر في ذلك الموقف جعل اخوف يدب فيها لم يأت أحد بياخذنا من المطار . وقد عاين جميع المسافرين الازليين معاً في سيارات أصدقائهم أو أقربائهم أو كملانهم أو مندوبي شركاتهم، ولم يحضر أحد لياخذنا.

قال لنا الوكيل بـ «مومباي»: إن كفيلاً سيكون بانتظارنا في المطار ولكن الطائرة وصلت هـ متأخرة ساعة عن الموعد. فهل يكون قد رجع بعد ما ينس من وصولنا ؟ وهل يتجول في المطار بحثاً عـ ؟ وكيف يميزنا من بين آلاف القادمين ؟ وصورتي في الحوار قديمة لا تكاد تشابهي . فلا أصل أب تعيده وهل يكون قد نسي يوم محبنا ؟ وهل تعافلت الوكالة عن بلاعه هـ ؟ أكوام من الأسئلة تراكم في ذهني ويتعاطم ثقلها مع تقدر وقت الانتظار.

بحر أمما مئات العرب.. الرجال والنساء. وجدتي لخطتها أنجيل نفسي في القدرة القطبية أنتاركتيكا.. وهؤلاء العرب المشبة كسرب الطارقة

الطريقة البصاء والسوداء. حدثت بكل رجاء في وجه كل طريق (وفي عيني «سطريقات» السوداء المحتجيات). ها أنا ذا نجيب الذي تبحث عنه. وهذا لولد الأمر الذي معي هو عبد الحكيم الذي نظره مارلت أقوه لكل واحد منهم في لعه كلياً نظراتي وطريقة وقوي وتعابير وحيي لمؤسسة ولم ينتم إلى أحد. واختص الجميع سرعين إلى شؤونهم

وقد طال ما الوقوف هطت خلال ذلك طائرات كثيرة. نزل منها كثير من الناس من مختلف الحسيات. يتكلمون بلغات مختلفة ويلبسون ملابس مختلفة. تفرقوا كبهم في سيارات مختلفة. ولم يشعر بقدوم الليل إلا حين سمعنا أذان المغرب. وقد مضى وقت الصلاة دون أن يأتي أحد. عرضت المشككة على موظف كان يبدو كبيراً... سألي اسم الشركة التي استقدمت لم أكن أعرف اسمها. سألي رقم جوال الكفيل كنت نسيت أن أحده من الوكيل. سألي رقم أحد من معاري هنا. لم يكن لي هنا أحد أعرفه إنها كان عندي عنوان الشركة التي يشتغل فيها «النسيب» من «كروانات» استخرجت له ذلك. اعتذر بأنه منطقة بعيدة من الرياض. قال أخيراً «انتظروا قليلاً وسيأتي أربابكم» واستعد عا إلى دوامه ومن ذلك الرجل الأجنبي سمعت لأول مرة تلك الكلمة - «أرباب».

أرباب. أرباب..! كررت في سري تلك الكلمة حلوة..! كلمة حلوة لسماع من هو الأرباب؟ ما هو الأرباب؟ وعلى أية حال، فهمت أنه لابد من حضوره الآن لنخرج من هنا تعال بسرعة يا أرباب! كم انتظرك هنا يا الله بسرعة وأخرج عا هذا الفرع يا أرباب..! أرباب..!!

يبدو أنه قد مضت ساعة أو ساعتان. لا سبيل إلى معرفة الوقت.. تركت ساعة يدي الوحيدة في «مومائي» هدية لـ «ششي».. ولم أرفع في التحول في المطار في سبيل البحث عن ساعة تخبرني بالوقت. وليس في ذلك فائدة

بل فيه خطر أن يحصر الأرباب في عصور ذلك فيرجع دون أن يراي وقد
ستضاء العالم حارح المصدر بمصباح الليل واندفعت في دحنا ييران
مدعو.

وسما نحن كدث، فوحننا بعرية قديمة صحاحه لست من نوع السبارة
ولا الحيت ولا لشاحه. بي عرفت بعد مرور أيام كثيرة أنها تسمى بيت
أن ووقفت عند بوابة المطار الرئيسة رعم أن اللوحات تشير إلى أن المنطقة
ممنوع الوقوف بها ووثب من داخلها رجل عربي . وما أدري لماذا همست
إلي نفسي حينها أنه هو أربابي الذي أنتظره . وجعل يمشي وارع لصر حنة
ودهان في المطار . ولكنه لم يهتم إليا مع أنها ألرب أعست تنبعه بدون
انقطاع . وكن يمشي والارعاع واضح على وجهه . ولم أنجراً على الإفصاح
بمبادرته بالسؤال . «هل أنت أربابي ؟» فصلا عن أن عبد الحكيم لا يجتمل
أصلا أن تدور الفكرة بحدده.. وحتى لو سأله فأي لغة . ؟ وبعد صواف
المطار مرتين أو ثلاث مرات، اكتشف لحسن حظنا منيبا يبه على مهل

«عند الله ؟» سألني مشيرا إلي بإصبعه . ولم أسمع في حياتي صوتا أحسن
من صوته هزرت رأسي بآه . «عند الله ؟» كرر السؤال إلى عبد الحكيم
نفي هو الآخر وهو يهر رأسه.. سألتا بالعربية أشياء في صوت يسم عن
عصبه لم أفهم حسن حظي شيئا منها ولا كان عبد الحكيم أكثر فهما مني

تركنا حيث نحن، وعاد يحول في المطار.. يتزعزع من كل واقف ممرد
حواره فيظرفه وأحيرا رجع إليا . وسحب جواربي من يدي بقوة قلب
صفحاته . ثم انتزع حوار عبد الحكيم أيضا . ومشى دون أن يفور لنا شيئا.
وتبعناه نحمل حقائبنا.

وكان مفهوم العرب عندي عبارة عن رائحة العطور و الرشاش و قد
فاحت تلك الرائحة الشهية من عثات العرب الذين مروا بها . وقل قليل،
أقمت عند الحكيم بما جعلته نكته بأن الرشاشات الحديدية تصنع بتقدير دول
العرب الذين يتعطرون دوماً ولكن رائحة أرباب كانت مفعمة نفاثة لا
توصف..! وكذلك ثيابه أيضا منوسحة رثة تسعث منها رائحة كريهة فوق
حد تعبير في حين يلبس العرب الآخرون ثيابا مكوية ناصعة البياض

ومهما يكن من شيء، سررتني فكرة أنني أيضا حظيت بأرباب! وقد
أصبحت «حليجيا» وحصلت على أرباب لي.. هذا الرجل الذي يسير أمامي
هو حارس أحلامي وربي المتجسد الذي يتولى تحقيق جميع «أحلامي». أرباب!
أرباب! داعبت الكلمة في داخلي في حب لم يحب أحد مثله كلمة في العام



كنت عربة أردني أقدم عربة رأستها. وقد تقشر طلاؤها في ماصق الأبواب والسقف وعطاء المحرك واحتل مكانه الصدا وكانت الأبواب مربوطة بالحبل قد حترت أبقاها. وكانت المقاعد مهترئة ستهدك وثارها وتطل من خلاله الرنيركات.

ولم يصل قرب العربة حتى انتزع الأرباب حقيني من يدي ورمأها إلى الصندوق الخلفي المفتوح. يا أربابي! الله أنشأه السمكي الذي أعدته أمي والله أنشأه الليموني الذي أعدته زيت. تحطم قلبي وأسرع عبد الحكيم يصع حقينه في الصندوق قل أن يرمي بها الأرباب. وكانت في حقينه كثير من نفوارير الرحاية معبأة بأشياء مثل «أنشأه» وزيت جور الهد

فتح الأرباب باب السائق واقتحم المقعد ولم يكن المقعد بشع. لا لفرد واحد بالإضافة للسائق. ونحن اثنان..! وليس في ذلك مشكلة. هيا تنفس.. هممت أن أفتح باب الجباب الآخر.. فصاح الأرباب في وجهي صيحة طيرتني إلى الخلف. أشار إلى حلف العربة. ولم نرح مكانا ولم نهم قصده. أشار مرة أخرى «يا الله» صاح الأرباب. تمير من العيط. نزل من السيارة وانتزع يدي بحدبني. طرحني في الصندوق المكشوف. أسرع عبد الحكيم لدي كان يشهد المشهد يرمي معه إلى الصندوق. شغل الأرباب السيارة فوراً فسارت مسرعة.

وكان معي في الصندوق تقريباً ثلاثة قدور كبيرة من ألومنيوم، وقليل من الرصيم، وأكياس مربوطة كثيرة. جلسنا هناك كيفما استطعنا، متمسكين

بالعصا الحسية. وكانت السيارة سهب الطريق رغم أنها قديمة جدًا إلى حد
أني طستها متحدرة من فديم الرماد. علب فيها أصوات مرعجة ونبت
لـ مرعتها الحقيقية ومط عديم عادت الطريق الفرعي ودحبت إلى الطريق
الرئيس. كانت منات السارت تتحدوها دون أن يلقي لها نالاً. وهي لا
تتجاوز إلا أدخنة سوداء تخرج من عادمها.

هذه رحلتي الأولى في طريق خليجي. لم يعجبني طبعًا أن تكون في
صندوق عربة. وفي الوقت نفسه فرحت بأنها أتاححت لي فرصة للاستمتاع
بمناظر العمارات لشاهقة والمصاييح المثلثة على حاسبي الطريق لا حائل
بيي وببها. ولو كنت داخل العربة مع الأرباب، لخرمت من منعة كل هذا
الحمال الخليجي في أوضح صورها. وهذا إلى أنه لم يرب أحد من ركاب
السيارات الأخرى بفصل الليلة الخالكة التي لعمت الطريق بردائها

م أدر كم طول ما هذا الجلوس المكشوف. ولا كان عبد الحكيم أدرى
ممي به، وبدأت أصواء المدينة اللامعة تضمحل عن المطر تدريجًا وانصح
لي أن الطريق الطويل قرب أن يودع المدينة، وقل عدد السيارات التي تمر
إلى جانبنا من حين إلى آخر، وأصبح الضوء منحصرًا حول مصاييح الشارع
التي تظهر بين المسافات، وبعد أن سرنا هكذا طويلًا اكتشمت أبا ذرق
الطريق الرئيس سالكين طريقًا متفرعًا لا يأتيه نور إلا من تلك لمصاييح
على الشارع لبعيد، نظرت إلى عبد الحكيم.. كان مستغرقًا في النوم. لاشت
أنه متعب من السفر الطويل. تركه ينام.. وانتهى الطريق الفرعي أيضًا،
وسلكنا طريقًا رمليًا معتمًا ليس فيه إلا الطلام الدامس، وسارت بنا العربة
بين كثبان الرمال وهي تثير سحائبًا من الغبار

لم يدخل في بطني في ذلك اليوم إلا الماء القليل الذي حصلنا عليه من
الطائرة قبل ساعات كثيرة، وعلى الرغم من إلحاح «ششي»، لم نسمع

إلى نفسي المسعجة جددك تناول الفطور هل لمصر، ولم كل شئ في
 الطائرة؛ لآسي لم أكن أعرف طريقة تناول تلك الألوان العربية، كنت حقاً
 جوعاً الخوج لشديد الذي كب أشعر به حيناً أفرغ من عمل استخرج
 الرمل من البهر بعد أن يرسو على الشاطئ البروق المشحون بالرمل. ولما
 أحترت عبد الحكيم عن جوعي من انظار قال إنه على وشك الموت جوعاً
 وددت أن أصرح «لأرب قنلاً» أوقف السارة في مكان ما، واشترى ما
 شئت من الطعام. وقليلًا من الماء. ولكن الصوت ظل محوساً في الخنجر
 ولم يرحح حارحها.. حفت أن أرفع أربابي بصراحي. ولم ير في الطريق محلاً
 للطعام. وليس فيه إلا ظلام ساهر. ولا بد أنه مرت عيب ساعة من أكثر
 بعد ما سدكنا هذا الطريق الرمل.. بدأ ظهري يوحمني بسب اهتزاز السيارة
 وتجاوجها. وثار العبار بشكل يتعذر عيب التعس معه. «ما هذه الرحلة يا
 ربي..» قلت دون وعي مني.

منذ تلك اللحظة، مثل ذبابة طامة بدأ خوف مجهول يحوم حول نفسي.
 وصابت صدري شكوك مجهولة.. هذه الرحلة لا تقودني إلى حياة خليع
 التي سمحت حولها أحلامي. تنسب إلى الدهن فكرة غير مرحب بها. أن
 هذا لا يشبه الخليع الذي سمعت كثيراً عنه من الناس.. ويبدو أن هناك
 خطراً يخفى في مكان ما. غير أنه لم يثنني لي. وفكرت أن أحفف عن نفسي
 هذا التوتر بتقاسمه مع عبد الحكيم. ولكنه كان في سبات عميق. دعه
 ينام. تخمت أنه لو استيقظ على هذا الدعر والريبة لأجهش بكاء.

ولم أحد سبيلاً إلى معرفة الوقت. لعنت مرة أخرى تلك اللحظة
 التي أهديت فيها ساعتني لـ «ششي». ولكن، هل يفيدني حتى لو عرفت
 الوقت..؟ «إما مصل إذا وصل» أنا الآن في عربة أربابي. في يده، أمة
 حياتي ومردهرة.. فبم أقلق على الوقت؟^{١٩} رقدت في الصندوق مسنداً

برأسي إلى حرمه من الرسيم والسحوم في السماء قد نامت محنة أصواتها .
استلقت على طهري متأملًا في قصاء السماء المظلم . ومن شدة التعب
شعرت بضجيج العربة وصوت اهزارها بربمةً بي في تلك الرعدة ولم
يكن أن عمري اسوم .



استيقظت على هرات الأرباب ليوفصي ولم أر حولي إلا صلاتاً يحترق العين لم أسطع تغيير المكان الذي وصلت إليه ولم تعد العين ودرء عن البصر إلا بعد فترة طويلة ما زال عبد الحكيم في يومه العميق كأنه ميت والأرباب يصرب عاصتاً عن قصان الحافة فيصبح صوتاً عالياً . انتفض عبد الحكيم مستيقظاً أشد الأرباب أمراً بالزول . ولما هممت مستعجلاً أن أجمع أعراسي ، معني مثيراً بساته إلى عبد الحكيم ولكنه لم يستمع ثماناً من غمرات النوم . فهم يفهم شيئاً أصدر الأرباب رثيراً كسر هاتج ولم نفهم ما كان يقول..

نحن مسكبان لا نعرف شيئاً . لماذا تعصب عيب هكذا بلا سب ؟ هل تعرف يا أرباب بأنا نكاد نموت من الجوع والعطش أشد من ذلك . ولم بعض في حياتنا يوم محاجة مثل هذا . صياغة كريمة..! وفوق ذلك ، لم تعصب عيب بلا سب ؟ ولكن لماذا يؤنب أربابا المسكين ؟ ألا يكون مثب عطشاناً ، جوعاً ، تعباً ؟ ربما يكون قد حرج إلى المطار ليستقيماً قبل ساعات كثيرة.. في الوقت الذي كنا في الطائرة ، كان يقود عربة قديمة كل هذه المسيرة الطويلة دهنًا وزياناً ولم يسم قط . وقد استرقا اليوم قدر ما استطاع ونحن في الطائرة وصندوق العربة . ربما ينتظر إيصالنا ليشرب شيئاً من الماء ويأكل شيئاً من الطعام ويأخذ شيئاً من الراحة . فلنك كل الحق يا أرباب أن تعصب كيها تشاء ونحن المقصرون لأننا لمنا ولم نستيقظ حتى بعد وقوف العربة

قفر عند الحكيم من الصدوق بحقيقته وقد بي أناسا مربا أرسا (غير دي
زرع) لا يسكن بها أحد ولم تقع عيني بمدى البصر على شجرة ولا سيدة
وعلى امتداد الأفق تلوح ما يشبه النوديان أو الكنان كأنها خريطة مرسومة
وتعالى في صدري صراح وصل الحلقوم ياربي ما هذ المكان الذي وصلنا
إليه..؟!

مشى أمام الأرباب مشية من يعرف طريقه ونسعه عند الحكيم في تردد
حاملًا حقيقته على كتفه ما هذا..؟! ألسنا إلى شركة واحدة ؟ ألسنا معًا
في الشغل والسكر ؟ لماذا أترله الأرباب ها نوحده في هذا الظلام ؟
ماذا تركني في العربة..؟! أين يذهب به في هذه الليلة ؟ وأمه قد وكشني
به. يا أربابي الظالم إلى أين تأخذ ذلك المسكين ؟ قفرت من السيارة
متحرثًا على أي شيء.. حاملًا حقيقتي، حرثت ألاحقهما. التفت الأرباب
إليّ رأيت عييه المحمرتين من الغيظ حتى في طلعة الليل.. سألتك أشياء
بلغني إيلامية فحاول أن يطردني إلى السيارة بإيذاءات غاصبة لما فشمت
محولاته، جمع حرامه وأداره في السماء دورة. أمر عني الصحيح الذي انطلق
منه وحدثني أرجع إلى العربة عصيًا عني..

وحتى في طلعة الليل، بوحد في السهول نوع من الضوء أشعة منعكسة
عن أرجاء السماء وأهدق الأرض النائية. ولما تأقلمت عيني مع ذلك الضوء،
استطعت أن أرى الأرباب على البعد.. يقف أمام نواة حديدية خطيرة
محاطة بسياح حديدي يتحسس في حيز ثوبه. يستخرج مفتاحًا يفتح به
قفل النواة يدخل بعد الحكيم إلى الداخل. شعرت برغبة ملحة (مختلطة
بحوف) في مشاهدة ما يجري في داخل السباح. غير أن السماء لم تجذ عليّ
بصوه يكفي للرؤية.

والشيء الوحيد الذي استطعت أن أميره في الحوك هو ربح كريباً لا عهد في بها. شعرت بأنها نفس الرائحة التي انشئت من الأرباب وقد عرفت طبعاً أنها كما سير في الصحراء حتى لأن هل تكون هذه رائحة الصحراء ؟. أنها رائحة كما يقال إن للبحار العصفرة رائحة عمرة ؟ وأول ما وقعت العربة، قد وجدت الجو لها مشعاً بهذه الرائحة تفكرت حينها ربما تكون ناتجة عن العود الذي أذنته العربة

صار الأمر الآن أوضح اكتشفت بأنها سطلق من ناحية السياح التي دخل إليها الأرباب بعد الحكيم كأي رائحة مخلوطة بروث الحيوانات ومسحوقات عظمها وهل تكون لشركة التي استقدمتني يصنع مسحوق عظام. ؟ وإن كان كذلك، فليس سيئاً ؟ أين المعدات وأماكن ؟ أين أكرام المسحوق المتح. ؟ أين أنابيب العادم. ؟ لله أعلم يحدث كده..

صلت في صندوق العربة منتظراً عودة الأرباب وكلني مرع يسلي بدأت أشعر أنني في خطر حسيم. وبدوا أن عبد الحكيم قد أصبح محبوساً في سجن الأرباب وسيأتي دوري لاحقاً ربما يريدني سجن آخر. يعني أن الود بفرار قبل ذلك لأنني بصفي من هذا الخطر ولكن إن أين ؟ ولا أرى من حولي إلا صحراء ممتدة وإن هربت، سأصل طريقتي ونجدي في الصحراء ويكون في الصحراء هلاكاً حتماً ولم أعد أطبق العطش والوجع.. فكيف أقدر على قطع المسافات. ؟ فعدت مسرعاً في لصندوق بدون حركة، رغم رغبتني العارمة في الهروب .

وبعد قليل، خرج الأرباب بمعهده من الخطيرة مقللاً نوتها من ورائه وجبها وجدني أقصر من الصندوق فجأة.. هزعت إلى الأرباب سأته أين عبد حكيم ؟ لكنه مشى سريعاً إلى العربة بعد أن نظر إلي بوجه عوس وسعته بترككم أشياء وهو يمشي . طبعاً بترككم بالعربية. فما فهمت شيئاً دخل إلى العربة.. أسرعت إلى الصندوق..

وبعد أن سارت ما تقارب كلومترات، وقعت العربة في مكان آخر في
الصحراء قرب الأرباب بولت معه حاملاً حقيقي . نبعثه إلى حيث
توجه اصطدم نظري خيمة على بعد يسير . فهمت أن الأرباب يقصدها..
وباب الظلام في خيمة، وليس فيها إلا دلت الضوء الطبيعي الذي تحتفظ به
الصحراء اقتراباً منها. فخرج منها أرباب آخر، وهو رجل قصير القامة في
ثوب عربي كأنه شخص من أشخاص الحكايات العربية القديمة وكان
ثوبه ورائحته أسوأ من الأرباب الأول.

تحدثنا قليلاً . ثم رجع الأرباب الأول إلى العربة تاركاً إياي مع الأرباب
الجديد.. أراحتني فكرة أن الأرباب ربما رجع بعد أن وكل بعد الحكيم أرباباً
آخرًا.. كنت حائفاً عليه . وهو لا يزال طفلاً غير مميز ربما تركه الأرباب
في زنزانة مظلمة..

وعلى بعد يسير من الخيمة، كان هناك سلسلة من سياج طويل اكتشمت
أن هذه الخطيرة أيضاً مصدر لتلك الرائحة الكريهة التي انبعثت من داخل
الخطيرة التي ترك فيها عبد الحكيم.. وبدا لي أن هناك أشياء غير واضحة
تتحرك داخلها ورجع الأرباب الجديد إلى خيمته بعد أن أومأ لي إلى ذلك
السياج. وكانت الخيمة مكشوفة من جوانبها الأربعة، وليس فيها شيء سوى
السرير الذي استلقى عليه الأرباب.

احتججت عماً . يا أيها الأربابان. انصرفتما بلا سلام ولا كلام بعد أن
تركتماي بلا وازع من الضمير في الظلام أمام هذه الخيمة..؟ ألا تعرفان أنني
جديد في الخديج ؟ هل أكلت شيئاً..؟ هل تريد ماء..؟ هل أنت جوعان. ؟
ما سألتني عن شيء من ذلك حتى من باب المجاملة وما أريتماني أين
مسكني؟ وما عزفتني على زملائي العمال! أهذه هي آداب الضيافة التي

عُرف بها العرب مد القدم^{٤٤} أرابي . أي ربّ أب^{٤٥} أرحوت ألا تحذني
لأنك حاصري ومستقي وأحلامي وطموحاي .

ما أدري كم صار بي ذلك الوقوف في الظلام رسم رحوب أن يرجع
الأرباب الأول بعد قبيل حاملاً في يده طعناً بي

وعقب قبلاً رحياً ذلك ثم مشيت إلى حيث أشد الأرباب بعد
القطع الرجاء .

مشت عن مسكني هنا وهناك . لكبي لم أجد شيئاً . لا توجد حتى
خيمة فصلاً عن مسكني . حجارة هاجتني فكرة . إذا كان سكر أربي
هنا في حصن الصحراء في خيمة مكشوفة، فكيف سكرني!!؟

مشيت نحو السياح في قوس شديد وتراءى لي داحض أشباح تتحرك .
تنفهر أصدرت حجارة مأمأة خبيثة كما لو نسيت حضوري . وكنت تلك
مأمأة ماعر . انظرت بمجامع عيني إلى داخل السياح العنم امتات بها^{٤٦}
قصيع كبير تتموح كسحر هنج وثبت لي صورة مدنية عن وظيفتي هـ
واحسنت بأن داهية من السماء هبطت على رأسي .

وفي أهوال تلك الداهية، مشيت إلى الأمام بحجاب العربة . وبعد خطوات
قليلة، فوحت سرير موضوع إلى حوار العربة وعليه إنسان يقعد انقرصه
مطرقاً رأسه . تمحرت مدعوراً من ذلك الشبح

دبوت من ذلك الشبح رهيب وحسدي يرتعش من الخوف شعر مثلد
كشعر بربري يعيش في العادات الحية طويلة نفس أسفل بطنه قميص عربي
يس أوسع منه وأضيف إلى ذلك رائحة شنة تطرد كل مقرب

قد رأي أقرب منه . ولكنه لم يندُ حافلاً بي ترددت خطوة. هل يكون
حقاً إنساناً أم هو تمثال أو ميت ؟ صدرت منه ضحكة ماعنة ضحكة
عالية مرسله لم أدرك خطتها ولا بعدها ما تعني تلك الضحكة وما هي
مماستها . ثم قال لي أشياء باللغة الهندية.. لم أفهم منها شيئاً لآسي قد أهيت
حياتي المدرسية في الفصل الخامس ولم تدعي حاجة إلى تعلم اللغة الهندية
طيلة حياتي . ربما فهمت اللغة العربية أكثر من اللغة الهندية!

ولكنني فهمت أن حديثه يجتمع فيه كل من التماطف والاستهتار
والامتداح والاستياء والاستهراء . وكذلك صراخ مستجد من مصيره
لحر.. والعواطف لا تفتقر إلى اللغات.

ثم انطرح على السرير كما تسقط أعجار نخل متقعر . ونام فوراً، ولم يلتفت
أن علا شخيره.

الآن صرت على بية من المصير الذي وصلت إليه . ومن وظيفتي التي
يجب أن أقوم بها. وتصورتني لحظة كيف أنحول إلى شبح رهيب آخر مع
مرور الأيام. ينبغي أن أهرب قبل ذلك.. من الساعة.. هذه اللحظة.. ولكن
إلى أين..؟ إلى حيث أستطيع وكيف..؟ كيفما أستطيع. الأرباب في الخيمة

مسعري في يومه وهذا قد رُم الشبح رهيب ولا يراني أي أحد.. إن
قررت الآن أن يسكن في "أصل" في أي طرف "بأي اتجاه"؟ إلى أي
مدى "سني" جواب شيء من ذلك كله، وأصدي الدعاء حينما قدرت
بوقت سني مسعريه رحمتها ومسحها من الخدين إلى هنا وقد تمكن هذا
لذعر من حبيبي هناك دون أن أبرح مكان.

تقدم سبيل كثير. هبت رياح باردة دكرتني نحو كيرلا في شهر
"مكرم" وأنهيكي بقاء الصبر وأما جوع ولعظش والسكوت عنها
فصل وقد عودت وأنا في البيت أن أنام في الساعة التاسعة بعد ثواب
نعمته. وقصص متحدثاً في تلك الأرض المقفرة دون أن أحصل على شيء
محموس عليه فضلاً عن الاستلقاء. اضطرب الوجع في رجلي إلى وضع
حقيبته حب سرير الشبح رهيب لأجلس عليها. ولم أعد أهتم بـ"أنتشرت"
سني أعدها في أمي ورينب تلفت حولي.. لاح لي خزان ماء كبير إلى جانب
معرفة دبوت منه في طمع وهناك حميميات في أسفل الخزان. فتحت
واحدة منها في شراهة يا سلام. حرج منه ماء بارد. عسته عت حتى يرتوي
ظمئي ويمسني به بطي. وقد شرست ما يكفيني ليومين مقليل كأسني خشيت
أن يحضر على بعد يوم شرب الماء. وبأها من راحة تلك لتي أحسست بها
عند ذلك ياربي. لا أدري كيف أعبر عنها. قعدت فائزاً تحت الخزان قبلاً
من الوقت مشيت إلى سرير الشبح رهيب.. جلست حبه ولما تمكنتي
تنعب، ألقبت نفسي على الأرض متوسداً حقيقتي. وحين شعرت بوجع
في ظهري من ذلك الاستلقاء، ضحككت من نفسي. من أحلام نسحتها
سيارة مكيفة، غرفة نوم مكيفة، سرير وفوقه فراش وثير، وإلى جبهته نهار
وهل أملت الآن إلا الصحت وأنا ملقى في هذا المصجع المكشوف؟ وليس

(١) لشهر ربيع في التقويم الهلالي والدي تنوع أيامه في شهري يناير وفبراير

أحد أسرع مي في معرفة الترق بين الأحلام وواقع « الحياة خيالية » .
وهكذا انتهت « ليلة العرس » من حبات الخشب كأصحوكة عظيمة

صحت في الصباح على صوصاء مثات الأعمام الشعية فحت عني
والشمس قد كست الأرض صوة غير أن شعتها القوية لم تتشر بعد . فمت
من الأرض سطة . أوجعي جسمي كله بسبب النوم على الأرض العرية
وكنت قد عطيت نفسي سطينة ربما اسحر حنها من الخشب في هريغ من الليل
دفعاً لرد الصحر . لا ذكر متى فعلت ذلك ها هي دي الطابية منفدة في
ارمال متعصة متعمرة . ولم يكن الشبح الرهيب الذي رأبه النارحة موجوداً
على سريريه . شككت أن يكون كابوس من كوابيس الليل .

جلست على سرير وتلفت حوئي . كانت العم أكثر مما توقعتها النارحة
امتد سباح العربة الطويل إلى بعد كبير . تم تقسيمها إلى زرائب تنصص كل
زريبة مثات من نعم . ووراءها صحراء غير مناهية كأنها تنصص أطراف
السما . ولا يحول دون البصر حتى رأس شجرة . وهناك نل كبير في إحدى
الوحي . أما الواحي الأخرى فكلها كشان رملية لا يتجاوز ارتفاعها قمة
رجلين أو ثلاثة رجال . ولكنها نشوة وحه الصحراء الأقي المستوي .

وبعد قليل ، حرح الشبح الرهيب فأنج دب الرربة . رالت عني
الشكوك . وحبيها استطعت أن أرى مطهره المحيط عن قرب وبوصوح . قد
تشكل الوصح الملتصق طقات متراكمة من جسمه . وما أدري كيف أصف
لكم الوصح على شعره ولحيته . ولا بد أنه قد مر على آحر استعجم له حسن
سوات على الأقل . طالت أظفار يديه المقرقة ملثوية ومسودة بالأوساح
المتسرة . ويبدو كأنه ما غسل ثيابه منذ قرن .

و جاء الشيخ الراهب يكوّب كبير من الخبث و قدّم بي قليلاً منها وهو
 يقول لي شيئاً سمعته ههنا . وكان الخليل يحدّث كأنه قرب العهد بالبار
 تعجب أن صرّح أنعم حرّة لهذه الدرحة . شربت الخليل كله ظناً أنه
 ربي مربي بشره . كنت ممن يحب الخليل الساحر . وكنت أعيش على
 العيش و احوّج من يوم . فلم أنو في الكوّب شيئاً . فذكرني الشيخ الراهب
 على رأسي وهو يهمهم كأنه أراد أن يسألني شيئاً أو ربما كان يسبي . ولكن
 عدولاً به فشبّ أمام حاجر النعة . بدا عاجزاً عاصياً وهو بعد إلى كوّن آخر
 لأعطيه للأرباب

دخنت بالخليل إلى حجرة الأرباب وهو مستلق على سريريه . ولم يكن أقل
 وسخاً من الشيخ الراهب . كان جسده موطن رائحة كريهة مغلّفة بشب
 رنة . لم تحدّ فيه شيئاً يدل على استحمامه القريب . جلس الأرباب وهو
 يشاء . أحدمي الكوّب . شرب الخليل كله في رشعة واحدة . وكان في
 الكوّب ، على ما ظن ، ما لا يقل عن حمّة لترات من الخليل ..

ردّ بي الكوّب وهو يسألني عن شيء . و طبعاً لم أفهمه . اجتهد كثيراً أن
 يفهمني قصده بكميات عربية مختلفة ، غير أنه لم يدخل إلى رأسي شيء منها .
 حط الأرباب على الأرض عاصياً . فلم أتمالك نفسي من حسّ الدموع ثم
 كنت أكفكفها إلى الساعة . أحشيت بالبكاء أمامه .. ولا أدري لماذا فعلت
 ذلك . بكيت بكاء شديداً . لعل تلك الدموع فيصان حرن و غضب و جوع
 انحشرت في داخلي منذ يومين . وكنت أنذر ماكباً : « لا أطيق هذا .. أريد أن
 أذهب .. وما جئت لهذا العمل » . علمت حيناً أنه لا يهم شيئاً من كلامي
 إلا أنني ظننت أن من و احبني أن أنظلم إليه . أو ربما رجوت أن أسترحه
 سكاتي .. ولكنه طردني في عيظ و دفعني إلى الخارج . ذهبت ماكباً نحو سرير
 الشيخ الراهب وجلست جنبه . كان الشيخ الراهب مشغولاً بأعماله .. ما
 أنفقت إليه بالاً . كانت عياني و قلبي تفيض بالبكاء جميعاً

كان الشبح الرهيب يتحدث إلي عند دخوله إلى الرربة وحروجه منها أثناء عمله بدا لي كما أوحته تعبيرات صوته أنه ربما كان يعزفي على بيثة العمل الحديدية أو يواسيني أو يشاركني في حروبي.. وقد أدهشني اللامالة التي تميز بها وجهه وصوته حتى حين يتحدث.

أسفر لصبح واضحًا كذب الشمس حارة ولو لم تنصب أشعتها بعد أضيق الشبح الرهيب العم من رربها حرحرث مركب من حولي وأدصب إلى الصحراء وتبعها الشبح الرهيب تاركًا إياي لوحدي

جاءت سيارة برل منها الأرباب الأول الذي أوصلي هت المارحة وبكه جاء اليوم في سيارة كبره أحسن من عربة الليلة البرحة، وبكمي لعائلة كبره وما كنت لاحظت حتى الآن أن عربة البرحة لا ترال هك، متحبة بعيدة.. فرمى رجع الأرباب المارحة في السيارة الحديدية.

شعرت بالراحة جبى رأيت أربابي الأول.. هرولت إليه. ولم ألمح عى وجهه غيظ المارحة. غير أنه لم يلتفت إلي كأنني غير مرئي له مشى إلى خيمة بعد أن أحد أعراضًا من حفية سيارته مشيت حصفه ككسب تبع صاحبه محرك ديبه. وعند اللقاء تعانق الأربابان وهما يتدلان تحبات كثيرة استعرفت على الأقل خمس دقائق وبينما هما يتحدثن، ألمب على بطرات عذرة فهمت أسما يتحدثان عى وبعد ذلك، رجع لأرباب الأول إلى سيارته جامعًا في يده أكياسًا كثيرة تحملها في حفية السيارة ثم سلم على صديقه واتعد بسيارته.



كنت لا أراهن أنكى وإن وقف خارج الخيمة عندما جاء الأرباب يرب
على كفي وهو ينموه بكلمات يبدو أنه كان يريد أن يواسيني بها كدليانه حقاً
حمنت من بكئي وإن لم تنجح في مواساتي

دخل الأرباب إلى الخيمة وفتح كيساً بعطبي منه شئ يشبه «كُتوس»
«كُتوس» (حبر) لقد سمعه بوصوح وهو يقول تلك الكلمة . أهده هي
الـ «كُتوس» ؟ كاسي سمعت الكلمة من قبل.. ربما كان ذلك من أوشك
الدين كانوا يملأون حلقات الحديث على شاطئ النهر بحكايات معمراتهم
في حينهم خبيجية «كُتوس»^١

أشار إليّ بالأكل ولكني لم أكر فرشت أسدي في الصباح ولم أقص
حاجتي ولم أستحم لا أشرب في الصباح وأنا في بيتي حتى كون من القهوة
إلا بعد أن أحد حماماً سريعاً في النهار، سواء كان ذلك في أيام المطر أو لرد
الفرس وهذا أول يوم تخل فيه عاداتي كلها.. لقد شررت كون من الحبيب
في الصباح اسأكر بدون تعريش الأسان. الجوع الذي كان يصطحني منذ
يومين حملي على ترك نظام حياتي المعتاد. جلست خارج الخيمة وحشرت
فمي بذلك الأكل الحديد الذي يسمى الـ «كُتوس» في نهم شديد، على أي
م أحد شيئاً أغمسها فيه لأحفف من خشوتها. ولا شعرت بحاجة إليه..
كانت الـ «كُتوس» لا تزال حلوة ساخنة لأنها معدة صباح اليوم. وكلما
أجهدت أساني في كسر هاهمهممت في حماس «كُتوس» «كُتوس» أكنت
أربعة منها حتى تشع شراعتي.. واستقر معي اسمها في نفسي ويطي بشكل
لا يمكن محوه أبداً.

بعد الأكل، أعطاني الأرباب كوبًا من الماء شربت ذلك قدّم لي
«كُتوس» آخر وأب له بعدم حاجتي إليه كتب شعراً ومرثناً وقد
فرحت بعديته بي

وصل الشح الرهيب واحد بالأغنام ساقها إلى الزريبة وحلّس أمام
خيمة. أعطى له الأرباب حوالي ست كبوسات. أكلها كلها في دفعة واحدة
بعمها في ماء وشرب فوقها يربق من الماء ثم انصرف صامتاً. وكنت أنظر
في وجهه وهو يأكل لم أرى فيه إلا «حياة» حتمت آلامها وأحراها بعد طول
العهد واستأنف عمله بدون استراحة ولو لدحطة واحدة

مشى الأرباب إلى السيرة وعاد شوب وحذاء قدمهما لي. شربت
الشوب. انطلقت منه رائحة تثير العُباب. كانت متسحة إلى حد كبير قد
وهو يمسك قميصي وسروالي «شيل هادي» شيل هادي..» كرر ذلك
ثلاث مرات حتى فهمت أنه يريدني أن أخلع قميصي وسروالي فخلعتها
كأن حطوة إلى تسير بصبي وتحولها إلى شح رهيب آخر، لست عن
مصص ذلك شوب النتن. خلعت حذائي الحلدي الحديد الذي شربته
من سلاسل قبل السفر واستبدلته بذلك الحذاء المنسج رغم أني كنت عن
بسة من الأمر، لأنني أحسب خطئها أن أطيع أربابي في كل أوامره بموجب
امتناني الشديد له على الـ «كُتوس» التي قرأ بها قبل قليل.

قال لي الأرباب شيئاً بالعربية مشيراً إلى الشح الرهيب. ولم أستطع أن
ألتقط من كلماته الكثيرة إلا كلمة «مَسْرَة» (مررعة) فقط. وعنى اعتقادهم
أن لكلمة تدل على الماء، أخذت سطلًا واتعت. لشح الرهيب طائعا له
وبرحت الماء من الخزان ملاً السطل. حملته إلى الزريبة.. صببت الماء في
حوية كبيرة شففت الطريق إليها بين رؤوس الأغنام. وكانت عبارة عن

حوصل مبي بالإسمت بطول حوالي ثلاثة أمتار وعرض متر واحد وارتفاع ثلاثة أرباع المتر وتم تقسيم الرابية إلى عدة أقسام، يتراوح عدد الغنم في كل قسم بين خمسين ومائة وكان هناك حوالي خمسة وعشرون قسمًا، وفي كل واحد منها حاوية ماء بالإضافة إلى حاويات الشعر والنس وبرسيم والأعنام تأتيناها تأكل وتشرب على راحتها

ولما فرغت من تعبئة حاوية القسم الأول، فتح الشيخ الرهيب لقسم الثاني وأطلق الغنم التي فيه . انطلقت القطيع راكضة إلى الحارح قال لي شيئًا بهندية أو العربية مشيرًا إلى حاوية القسم وهو بهم أن يخرج لتعبئة الأعدم . ولم أفهم مما قال إلا كلمة «ميس»

التبست على الكلمة . «ميس»؟ ما هو؟ أهو ماء أم حاوية؟ وإن كان كذلك فما معنى كلمة «مسة» (مزرعة) التي سمعتها من الأرباب؟ ما هي الكلمة التي تدل على الماء . أهى مسة أم ميس؟ لله أعجم . مهما كنت معانيها . بما مهمتي الآن تعبئة الماء . يجب علي أن أقوم بذلك وقد ملأت الماء في الحاوية قبل أن يرجع الشيخ الرهيب بالأعدم

قمت بتعبئة الماء في حاويات القسمين . الثالث والرابع ولم يكن ذلك عملًا سهلاً . قد أوجعتي طهري بسبب نقل الماء . كنت عطشانًا جدًا تحت الشمس التي تحترق فوق رأسي

وقبل أن يعادر الشيخ الرهيب غنم القسم الثاني حرج الأرباب من الخيمة يقول له شيئًا بالعربية فهو رأسه بالسمع والطاعة أعطاني الأرباب عصا طويلة . استلمتها بكلتا اليدين . حُتِلَ إليَّ أب «حفلة تنويح» لراعي غنم.

ذهبت معي بالأعدام إلى البادية . ما بقينا قليلاً حتى ناداني لأرسل من
الوراء وهو يصغر بديه منيب إليه راحقاً وصم في يدي شيئاً نظرت
فيه أقلبه في يدي . كان ذلك مطاراً على حد علمي .

م أفهم ماذا أعطيه ! . همت أن أذهب به وراء العسم طناً أنه ربما أعطيه
لأعثر به على نافرة أو شاردة من الأغنام ..

«شوف شوف»

شجعني الأرياب على النظر معه .

أعجبي ذلك . كنت أرى المطار لأول مرة . نظرت من ماسورتي
يا لله أدهشي ما رأيت ما أوصحه .. ! لمحت الأشياء على بعد عدة
كيلومترات بوضوح .. حتى الأعمام العيدة بما على جلودهم من خطوط
ويقع . أدركت سطر حولي في الأراضي المحيطة بنا .. فرحت بالمطر

شوف؟؟

سأل الأرياب .

هزرت رأسي مجيئاً له .

واسترد المطار من يدي وأرجعه إلى الخيمة . ثم رفع وسادته واستخرج
من تحتها مسدساً ذا ماسورتين . جاء به خارج الخيمة ورفعته إلى السماء
كان هناك طائر يحلق في أعلى السماء . أطلق الأرياب الرصاص على غرضه
فباد به يسقط على الأرض منقطعاً عن عالم السماء . وقفت مفزوعاً .. نظرت في
الأرياب وعلى وجهه انتسامة مثنية من طرف شعنيه .

شوف ..؟

سأل الأرياب مرة أخرى . هزرت رأسي بالموافقة

«يا الله، روح».

أرسلني على أثر المطيع ويبس تلك اللحظة أن حياتي حقا شُدت
وثاقها هذه الأعمام بصورة لا أملك منها فكّا أند.

كعبة مسلح عن حلقها، حرحُ إلى البادية مسبحاً عن مائة حيلة
لتهروب . كنت مستجمعتها في ذهبي الراحنة وأصحت في حله بفسية
لا يحكمها إلا شرود الفكر والفوضى.

وقد اتعد عي الشيخ الرهيب مع أعنانه بعيداً جداً تأملت الصحراء .
كنت محتفة ثمناً عن تلك الصحراء التي سمعت عنها أو نادراً ما رأيت
صورتها . حينها كنت أسمع كلمة النصحراء ، تشادر إلى الدهر أمواج الرمال
الهائلة وكثافتها أما هالم أرشيتاً منها .. أراض صلبة وسفوح دنت صخور .
وقد رأيت مثلها في شمال بلادنا الهند .. والعرق يسها أن في بلادنا يوجد نبات
عل التراب والصخور بينها لا تلوح هنا بقعة حضراء أراض عقيم مبة
لكن، لماذا تأتي هنا في سيل البحث عن مراعي لأعنام ؟! لاحقني الشك .

لا نعد الأعنام شيئاً نكته .. إنها ترعى هنا وهناك تستشق لأرض بحث
عن الكلا بطبعتها العريرية مثبتت طويلا حتى وصلت مع الشيخ الرهيب
وأعنامه كان الشيخ الرهيب قاعداً على صخرة تاركاً الأعدم تسيم . فعدت
على صخرة أخرى . لم أحد شئ أفعله ولم أعرف ماذا يجب أن أفعله وددت
أن أسأله عن أشياء كثيرة . لكن . اللغة .¹ وإياها الوسيلة الوحيدة بيننا الآن
هي الإيماءات . ولكنه كان يجلس غر عابئ بوجودي بجانبه فصلاً عن أن
يتبه لإيماءتي . إلى أين ينظر هو .. ؟ لا إلى الأرض ولا إلى السماء . وإياها كنت
نطرات شاردة وبعد قليل ، نهض من جلسته وأخذ في جمع شمل القطيع
وكان ذلك مهمة مرهقة . وهناك ما بين خمسين ومائة من العنم . يركض هذا

إلى يمينه يساراً ذلك إلى يساره ولا يسيطر عليهما حتى يجري الثالث إلى النجاء
آخر وبعد جهد جهيد بدله مع الأغنام. اتجه الشح الرهيب إلى الرابية. وإما
كأن مهمي هي مشهده أعماه نظراً لعدم إتقان شيء منها

ولما اقتربنا من الرابية قال لي شيئاً بالهندية.. ففهمت أنه يريدني أن أدخل
الأعمى بـ «مسرة» وهو سائي لاحقاً

«أجل فتعني كمنه مسرة رابية الغنم.. فلا تكون «مابين» إلا للماء..
أيها الكهات العربية تفصل إلى واحدة بعد أخرى.

أدخلت الأغنام إلى الرابية جاء الشح الرهيب بأعلافها.. أحصرنا مع
الشعير وإماء إلى لـ «مسرة».. «مسرة».. قلت كذلك..؟ هل لاحظتم أنني
بدأت أستوعب الكهات العربية بهذه السرعة..!

دخنا إلى «المسرة» التالية خرجنا إلى البادية نسيم الغنم التي فيها .
هكذا تكررت عملية الذهاب والعودة بالأغنام في ثلاث مسرات. حتى
صرت على شيء من المعرفة بالأعمال وليس القصد من أخذ الغنم إلى البادية
لترعى على كلاًها. بل كانت تشيظاً لها وتمريضاً صباحياً لجوارحها لكي لا
تموت حيويته من الحبس المستمر في «المسرة» المعلقة.

أردادت حرارة الشمس التي تشتعل فوق الرأس انتهينا من رعي الأغنام
من جميع المسرات، وتقديم العلف والماء لها. وحلال ذلك، طرأ لي أمر خطير
جداً. شعرت بالاندفاع إلى قضاء الحاجة.. كانت المرة الأخيرة التي قضيت
فيها حاجتي قبل الركوب على متن الطائرة.. مرت السارحة من غير ضرر
لأنني كنت صائماً تماماً. ولكن اليوم، وقد أكلت في الصباح أربعة «كُتوس»
هي التي تدفع الآن.. أين أقضي هذه الحاجة؟! وبالنسبة لي، لا يحتاج الأمر
إلى ستار جدران المرحاض الأربعة.. ولست ممن تعود على ذلك. لو كنت في

بلادي الآن، لالتحنت إلى وراء هذه الأدغال أو تلك الأعشاب على شاطئ
النهر.. كل شيء سهل هناك. وبعد القضاء أرب إلى النهر للاستحمام
ويكن هذا لا يمكن لي أن أفعل شيئاً من ذلك وحولي صحراء مكشوفة.
الإنسان يحتاج إلى شيء من حجاب في بعض شؤونه، وإن كنت مما يفعله
ويعرفه الجميع أنيس كذلك ؟ على أي كنت متردد في أن أصرحكم بهذه
الواقعة. لكنني في النهاية قررت أن أقولها لكم . لأن أحببت أن أكشف
لكم عن الحالات التي تعتبرها عادة من أتمه الأمور في الوقت الذي يتصرر
فيها بعض الناس وتؤدي بهم إلى مصايقات نفسية عظيمة وبدون ديث، فما
الفائدة من هذه القصة..؟

صحيح كل ذلك . ولكن القصة هنا ليست مما أملك لسيطرة عليها.
لقد استويت عن بطي وعكة تتعاقم في كل لحظة.. سحبت إلى وراء
«المسرة» حيث يحول بيبي وبين الشبح الرهيب والأرباب حائل رقيق تصعه
مَسْرَة العنم اكتفيت بذلك وقصيت حاجتي معمص العين. الحمد لله
الذي أذهب عني العذاب وعافني. هذه هي الراحة التي لا يعدها شيء من
الراحات في العالم.

وكقطة، وريت «سري» بالرمل والخصي وقعت. ومن ثم بررت مشكلة
لاستحمام.. كن حلها سهلاً علي . إذ هناك ماء عرير في الخزان . سآحد
شيث مه في دلو ثم أوى به إلى وراء كومة الترس أو الرسميم. هكذا فعلت
«سترت بكومة التبن والبرسيم وفي يدي دلو من الماء

وقبل أن تقع على دري القطرة الأولى، وقع على ظهري سوط . تكمش
ظهري من تلك الصرمة المائعة على حين غرة . استعصت منتفئاً في رعب،
هذا الأرباب وعيابه مدلعتن بالعصب. ! لم أفهم شيئاً. ما هي الجريمة
التي ارتكبتها. ؟ هل قصرت في شيء من عملي..؟ وهل اجتريحت شيئاً
ممنوعاً؟

تكالبت عليّ الأرباب محتطاً بالدلو والماء من يدي. قدومي بالشتائم في صوت عالٍ . وخلع حرامه بصري به . كلما حاولت أن أدفع ضرباته في شكل أو آخر رادي صرناً وشتناً حتى سقطت عن الأرض . فانصرف إلى الخيمة حاملاً بيده الدلو.

وكلما فهمت من كل شتائم الأرباب وضرباتِه أنه يريد أن يعلمني أن «هذه المياه لسفاية أغنامي.. لا لتغسل بها دبرك.. أنت لا تعرف ثمنها . فلا تأخذ منها شيئاً لمثل هذه الأشياء الغير الضرورية مرة أخرى. وإن عدت للمسها لأقتلك»

هكذا تعلمت الدرس الأول. هو أنني محرم إذا استجيت بالماء بعد «البيرة»¹

قممت في استمرار شديد لم يسبق في حياتي شيء أشنع من هذا . أما الماء وبدونه لا راحة لي . وكانت الطاقة من المبادئ التي تقوم عليها حياتي حتى كنت أكيد على ريب إذا لم تمنحهم مرتين في اليوم . أما أن تقتصيت كل يومي في الماء بموجب عملي ! ولكن هذه الأيام كانت بداية احتلال نظم حياتي كلها . وكان منع الاستنجاء بلا شك أثقل شيء عليّ

مشيت راجعاً نحو السرير . جلست جنبه على الأرض . والشبح الرهيب يجلس عليه يأكل «الكنوس» . مد إلي ثلاثة منها . ولم أكن أطيق حتى انتمكر في الأكل بل الاستنجاء . نحتيتها إلى الحاسب دون أن تمسها يدي.

وحسبها، لاحظت مطراً على البعد.. قطاراً من قطيع الإبل خمسين منها على الأقل. تتقدم في صف واحد.. مطر رائع فعلاً.. في مقدمتها أكبرها. ثم الأكبر فالأكبر . تمشي بدون أحد يحدوها أو يقودها . إنها تختار طريقها وتسيره بنفسها.

اقتربت ما . أون مرة أرى الإبل . تأملته معجنا مستعريا . خُيِّلَ إلي أن
حاحيه الضحمتين تنهد عن جميع قساوات الصحراء العامضة . ومجره لا
يرالان يفسحان ويغنقان كخشومي السمك فمه عربص عنقه قوي
وشعره ، ككثيف يشه أعراف الهرس . وفوق رأسه أدنه كقريين متصتين
والدي أعجسي أو أوجلبي أكثر هو بطراته الشاردة غير خافدة شيء ..
بطرت إلى عيه مرة واحدة فقط ، سرعان ما سحبت منه عيني كأسى كنت
أنظر إلى شمس الظهر . أحسست بأن عينه يكم فيها غوامص الصحراء
وفسحتها وشراستها ووحشيتها .. وبطراته الشاردة توحى أنه يستحيل
التعلب على ذلك كله ..

أود أن أقول ، إن الإبل ما هي إلا تجسيد للامبالاة و لا تفيد .

عَبَرَ الفطيع أمامي ودخل بعنه إلى إحدى الررائب . كانت تلك
«مَرَّتْهَا» الخاصة .



خُملت مسؤولية تعليف وسهاية الخيال التي وصلت راجعة من نحو الخا.
دبوت من «مَسْرَتها» وأنا أشعر بخوف منها .

هل الحمل من الحيوانات المؤدية للإنسان. ؟ وإن كان كذلك، فكيف
يواجه عدوه؟ بالرفسة ؟ أو بالعصا. ؟ أو بالخططة ؟ أم بالخططة ؟ ليس
لدي فكرة ولكن يجب علي أن أدخل إلى «مَسْرَتها» لتعليفها وسفيتها
ولم يكن أمامي أن أتراجع عن واجبي بحجة الخوف . لأن من ورثي أرباب
شرسا ذا عيين ثاقبتين.. وهو أخوف عدي من الخيال التي تؤدي الإنسان.
مخاطرا نفسي، دخلت إلى «المسرة» في عزيمة.. وقد عدفتها بالرسيم وسقيتها
الماء.. كنت أتوقع في كل لحظة رفسة أو عصا كلها تسلبت من حلال الحمل
وبين أرجلها. واتصح لي اليوم - كما في الأيام التي تلتها أن لطروف قد
تعلم الإنسان كيف يتغلب على مخاوه؟

ومها كان من شيء، فلم تؤدي الخيال كما طنت. قدمت لها أربع حاويات
من الماء، وثلاث من الرسيم، وحاويتين من الشعير، وثلاث من التبن.. ولم
فرعت من المهمة، كان ظهري فعلا مشه مكسر. وكنت أتوسل الشح
الرهيب نظراتي وإيماءاتي أن يعاونني، ولكنه كلما هم أن ينهض ليساعدي،
سعه الأرباب تين لي حينذاك أن ذلك عقاب لي على حريمة سرقة الماء
للاستعجاء.

وعذب نفسك بحر سرير الشح الرهيب وجلست إلى جانبه على
الأرض وقد هدا اللعوب والمهات، شعرت بالخروج يستدني.. هناك تلك
كثوس التي اعطاها الشح رهيب قلبي، لم أتريث.. ولم أعد أزعج
معدم الاستعداد.. ولم أدمر من عدم الطاقة بل التهمت في دفعة واحدة
أربعة «كُوس» صحمة بعد غمها في الماء.. وعت عقها قدحين كبيرين
من الماء

وما انتهت من الأكل، ناداني الأرباب إلى حيمته يُنقي إليّ سعير
لنعمت والبريحات.. وفتت مطرقاً رأسي.. متظاهراً بأني أستمع إليه
وأعي كل ما يقول.. واتضح لي مدى حسامة الحرم الذي ارتكبته رغم أبي،
أهم شيئاً من كلامه.

وحانت ساعة الاستراحة. قلمتُ حولي بحثاً عن مكان ظليل.. لم أجد
فيها حوي قد شيئاً يمكن أن يُسمى طلاً.. فقط الشمس في كل مكان وحري
الحارق.. لا في حيمة الأرباب التي يستأثر بها كأنها قصر سلطان.. لا يُسمع
لأحد بالدحور، ليها.. ولا أنا مشجاعٌ حتى أنسلل إليها.

وكان الشح الرهيب في نعاس هادئ غير مهال بالشمس.. يستلقي على
سريره ويعطي وجهه بقطعة قماش.. تفكرت أن الشمس تفشل أن تصرب
حسمه ابتساع بالأوساح المتراكمة عليه. حاولت أن أدفعها بمشعة مطوية
وصعتها فوق رأسي.. وجلست حسب السرير.. لم أزل أجلس هكذا حتى
اكشمت ظلاً محتثاً تحت السرير.. وحُيِّل إليّ وقتها أنه هو الاختراع الأعظم
في العالم.

وإذا كنت أهمية الاختراع تقدّر على أساس ضرورته والظروف التي
تقتضيه، فلا شك أن هذا بالنسبة لي أعظم من جميع المخترعات. ولطالما

عَرَّضَ الشَّعْخ الرَّهِيْبَ بَعْدَهُ لِلشَّمْسِ تَأْكُدهُ وَهُوَ فَرَّقَ مَرِيرَهُ . وَلَمْ يَكْشِفْ
هَذَا الصَّلَ الْفَرِيْبَ .^١ اسْلَطْتُ إِيْ بَحْتِ السَّرِيْرِ فِي فَرْحٍ مَقْرُوطٍ وَاسْتَنْفَتِ عَلَى
الرَّمَالِ احَارَةً لَنِي وَحَدَثَ فِي سِنِّ انْحَضَاتِ أَرْوَحٍ مَصْصَعٍ اصْطَحَعَتْ
عَلَيْهِ.

لَمْ يَكْدِ لِنَعَاسٍ يَسْلُ حَقْوِي حَتَّى يَنْقُضِي اسْدَاءَ كَمَا فَعَلَ فِي الصَّاحِ ،
حَرَحًا بِالْأَعْنَامِ سَيِّمَهَا فِي السَّادَةِ فِي مَجْمُوعَاتٍ وَقَدْ فُهِمَتِ الْآنَ كَيْفَةُ
تَصْيِيفِ الْأَعْنََامِ وَ«مَسَرَّاتِهَا» بِشَكْلِ أَوْصَحِ . «مَسَرَّةٌ» لِلْعَرَابِ احْلُوبِ ،
وَآخَرَى لِمَاعِرِ الصَّرَابِ حَامِئَةٍ بَيْنَ الذَّكُورِ وَالْإِثْثِ . وَالثَّلَاثَةُ مَحْصَصَةٌ
لِلْمَصْعَارِ فِي أَحْجَامٍ وَأَعْمَارٍ مَحْلُئَةٍ . وَالرَّابِعَةُ لِنَصْدُ بِنَا فِيهَا الشِّبَاءِ وَبَعَاجِ
وَالْآخِرَةُ لِلْجِيَالِ .

قَبْلَ أَنْ يَحْرَحَ لِرَعْيِ الْمَجْمُوعَةِ الْأَوَّلَى ، فَتَحَا بَابَ «مَسَرَّةٍ» . الْحَبَرِ .
فَانْطَبَقَتْ الْجِيَالُ تَحْرَحَ بِنَفْسِهَا مَتَّحِدَةً طَرِيفُهَا فِي الصَّحْرَاءِ . وَعَدَمَ رَجْعِ
مَعْدِ رَعْيِ الْمَجْمُوعَةِ الْآخِرَةِ ، كُنْتُ اجْتِمَالُ قَدْ ارْتَدَّتْ رَاحِئَةٌ إِلَى «مَسَرَّتِهَا» .
وَبَعْدَ ذَلِكَ تَأَنَّى أَعْمَالُ الظَّهْرِ . . الْمَاءُ ، وَالنَّسْ ، وَالرَّسِيمُ ، وَالشَّعِيرُ .

جَاءَ الشَّعْخ الرَّهِيْبُ بِإِذْنِ كَبِيرٍ دَخَلَ بِهِ إِلَى «مَسَرَّةٍ» الْحَبَرِ ، أُنْ أَيْضًا
دَهَسَتْ مَعَهُ . بَدَأَ يَحْلُبُ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى . . كُنْتُ مَحْرُودًا وَاقِفًا بِتَحْرَحٍ سَرْعَةٍ
عَمَلُهُ فَائِئِمَةٌ جَدًّا . قَدْ مَلَأَ ذَلِكَ الْإِبَاءَ الْكَبِيرَ فِي جَلْسَةٍ وَاحِدَةٍ . حَلَبَهُ مَعًا إِلَى
الْخَارِجِ . . ظَنَنْتُ أَنَّ الْخَلِيْبَ لِلْبَيْعِ . لَكِنْ جَاءَ الْأَرْبَابُ بِشَرَبٍ مِمَّا شَاءَ . ثُمَّ
شَرَبَ الشَّعْخ الرَّهِيْبُ كَوْبَيْنِ مِنَ الْخَلِيْبِ . وَقَالَ لِي أَيْضًا : اشْرَبْ مَا شِئْتَ ،
إِلَّا أَنِّي لَمْ أَقْدِرْ أَنْ أَشْرَبَ مِنْهُ سَبَبَ رَائِحَتِهِ الْعَلِيْظَةِ .

نَقَلَ الْبَاقِي كُلَّهُ إِلَى «مَسَرَّةٍ» . . أَصْغَرَ الْحَمْلَانَ سِلًا . وَسَرَعَانَ مَا لَقِئْتُ
الْحَمْلَانَ حَوْلَ الدَّلُوِّ مَتَّقَانِدَةً فِي الْوَلُوجِ إِلَيْهِ مَرُؤُوسَهَا كَأَنَّهُ كَانَ «كَادِي»^(١) .

(١) إِبَاءُ الْمَطْرُوحِ مِنَ الْأَرْرِ ، يُقَدِّمُهُ لِمَرْبُوعٍ فِي كَبِيرٍ لَا مَانِيَهُمْ

وهذا لاحظت شنت - أشياء جديدة بدأت تحرق ذهني وعيني - إنه يُفرّق بين الرضيع وأمه في «مستتين» مختلفين" ولا رضيع يرصع صرع أمه. بل تحب الأمهات جميع دفعه واحده - يجمع حبها في دلو واحد.. ولا أم بشرت حبيب أم أخرى - أليس الولد يعرف أمه من خلال التشمم والسعي والاحتكاك؟ وهل يوجد فرق في دنت بين العنم ولكلب والبق والإسب؟ أم هذا المشرب الجماعي يستهدف قطع العلاقة الروحية بين الأم وولدها؟ أم، الله أعلم، لكن هكذا عادة لعرب، أو على الأقل، هكذا عادة أرببي - ولا حبر لي إلا اتاعها، فما الفائدة في التناق والتفكير فيها...؟!!

امتدت الظلال واحسأت الشمس وراء طيات الصحراء. وقدم الليل مقرش ظلامه وحصر أرباب الليل - أمرل المواد معدانية والماء من السيرة - وصرخ بعدد من ضمن فيها أرباب النهار أشياء أخرى

وكان من بين ما أحصره أرباب الليل «الكُتوس». فقط «الكُتوس» لا مرقه - ونصح لي كيف تكون قنمه الطعام في حياتي البقية!

في الصباح ساكر الحليب الطارح من الصرع الساحنة، إن كنت رعا فيه.

الفطور «الكُتوس» والماء

الغداء «الكُتوس» والماء

بعد العصر الحليب الطارح من الصرع الساحنة، إن شئت

والعشاء «الكُتوس» والماء

إضافة إلى ذلك - فقط عند الضرورة الشديدة - الماء العاتر شبه المعلي من الخزان الحديدي..

استبقى شمع الرهيب على سريره بعد أن فرغ من أعمال الليل فرشت
بغاية على الأرض . كان الأرباب في حيمته أردت أن أسأل الشبح برهيب
عن أشياء كثيرة ولكن لم تُعص حمس دفنوني حتى علا صوته بالشحير

استلقت وحيداً متوسداً خنثيتي التي اسعشت منها رائحة المحللات
تذكرت عائلي.. تذكرت أمي وريب وودي (أوستي) الخنوب الذي لا
يرال بسمو في بطيها . لا بد أنهم قلقون علي لأني لم تُصل بهم بعد الوصول
هب إلى «الخبيج» . كنت على وشك الكفاء من تلك التذكريات احتججت
عما . وما السيل إلى الاتصال بهم ؟ حتى أحرهم على الأقل أبي وصدت
بالسلامة وأنا مرتاح هنا (؟).

تفكرت في عبد الحكيم مدام بشنعل هناك . ؟ لم أره منذ ذلك الحين
حبها أصر من هب ، يدولي أن هبك شبه «مسة» كبيرة على بعد . ولا
يحتمل أن يكون أقل مؤساً مني يا الله كم كنت رائعة أحلامه التي
ركب الطائرة على أكتافها ! وكيف يتحمل هذه المصائب كلها وهو لا يرال
صغيراً ؟ ولم يكن من أسرة بائسة بل كان أبوه يعمل في دبي منذ سنوات
كثيرة.. جاءت هذه الميزا يسها كان يحاول أن يأخذ ولده إلى دبي

«خلاص . توكل على الله.. هذا أحسن من أن تفسد أخلاقك مع شباب
الحارة وهذه فرصة لك أن تتعلم اللغات والحياة هناك . إن شاء الله . بعد
ستين ، أوريها قبل ذلك إن أمكن . سأرسل لك فرصة في دبي» قال له أبوه

كيف تتحمل هذه الحياة . ؟ وهو ليس مثلي . وبالنسبة لي كنت أعيش
على العمل الشاق ، استخراج الرمل من النهر . فأمرني هيئ ولكنه كان
يحتفل شبيه مع أترابه في الحارة ما أدرى كيف يكون مصيره^١ . كل شيء
من تدابير الله لا بد من الصبر عليها . وليس لدينا خيار غيره.. ولا تكون

الأيام القادمة إلا وهي أسوأ من أمسها. نري، انرفوف الرحيم، سألك أن
تغوي حتى حناز أن وعد الحكيم هذه الأيام الشقة. وفي تلك الليلة أص،
قد عاندني اليوم كثيرا بسبب مضجعي المزعج

سُمرُ نَصَحَ عَن يَوْمِ صَحَرٍ وَي حَرٍ وَقَدْ صَرَتْ مَيْكَ تَمَامًا سَبَّ عَمَلِ
 نِيرِ السَّنِ، وَاسْتَقَطَتْ مَن نُّورِ وَحَدَنِي وَجُو رَحِي تَوَجَّعِي بِصُورَةٍ لَمْ
 تُعْرِضْ فِي حَتَّى يَوْمِ كُنْتُ أَسْتَحْرِحُ الرَّمْلَ مَن الْبَهِرِ طَوَالَ الْبَهَارِ، وَرَبِّهَا كَانَ
 لَا يَرِغَاجَ مَن عَدَمِ الْإِعْتِمَادِ بَعْدَ الْعَمَلِ أَشَدَّ عَنِّي مَن أَوْجَاعِ الْخُسَدِ كُنْتُ
 عَمَّنْ يَفْضِي يَوْمَهُ كُلَّهُ فِي الْبَهِرِ، وَمَعَ ذَلِكَ، لَمْ أَتْرُكِ الْبَهِرَ عَدَا انْتِهَاءَ الْعَمَلِ إِلَّا
 بَعْدَ أَنْ أَحْدَثَ فِيَّ . وَهَذَا أَنَا الْيَوْمَ أَسْتَلْزِمِي هَذَا بَعْدَ أَنْ قَصَيْتُ يَوْمًا كَمَلًا
 نَحْتُ الشَّمْسِ الْخَارِقَةَ أَسْبَحَ فِي عَرَقِي.. أَمْشِي بَيْنَ الْأَغَامِ حَتَّى أَتَعَرَّ وَأَحْمِلُ
 عَنِّي جَسَدِي نَصِيًا مَن يَوْمِ وَرَوْنَهَا . وَإِطَّيَّ وَفَحْدَايَ مَتَلَا صَفْدًا بِقَعْنِ
 الْعَرَقِ.. وَأَنَا أُرْتَدِي قَمِيصَ الْأَرْبَابِ الرِّثِّ إِذَا مَا لِلْمُصَاحَةِ . أَمَا حَدَنِي
 الْمَثَلُ بِالْعَرَقِ فَلَا أَمْلِكُ لَهُ وَصْفًا.

وَلَمْ أَكُنْ أَقُومُ مَن تِلْكَ الْأَوْجَاعِ وَالْخَوَاجِسِ حَتَّى وَصَعَ الشَّحُّ الرَّهِيْبَ
 دَوْنِي فِي يَدَيَّ ، وَأَشَارَ إِلَى الْغَنَمِ بِأَمْرِي بِحُلِيِّهَا.. أَنَا..! أَحْلَبُ الشَّاةَ..!؟

أَحْسَسْتُ فَرَاغَ هَانِلٍ أَمَامِي . كَأَنَّمَا أَلْقَيْتُ بِي فِي هَادِيَةٍ مَن الْخُفَةِ

مَا قَصَيْتُ فِي حَيَاتِي دَقِيقَةً أَتَأَمَّلُ فِيهَا غَمًّا . نَعَمْ . لَعَلَّكُمْ تَسْتَغْفِرُونَ وَلَا
 تَصْدُقُونَ أَنِّي لَمْ أَرِ مَا عَزَا مَن مَسَافَةِ قَرْيَةٍ..! وَتَسْأَلُونَنِي هَلْ أَنْتِ نَازِلٌ مَن
 السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ تَوًّا ؟!

صَحِيحٌ أَنِّي رَأَيْتُهَا . وَقَدْ رَأَيْتُهَا جَمِيعًا . وَتَعْتَبِرُ الْأَعْدَامَ مَن الْحَيَوَانَاتِ
 الْأَلْبِيَةِ الَّتِي دَخَلَهَا الْإِنْسَانُ مِنْذُ أَنْ اِمْتَدَّاتِ حَيَاتُهُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ فِي سِتَّةِ مِائَةِ

آلاف أو سبعة آلاف قبل الميلاد وهي الحيوانات الرقيقة التي يربها جيريالي «مرياً» و«جانكيما» و«ويلاندهان كتي» وغيرهم وهي حيوانات حميلة المطر، ولا يمر أحد بعذّي إلا ويود أن يأخذه بين أحضانه. العنم تمنح له حبيبي وحملها وروثها. يشرب الحليب وبيع الحعلان في سوق الخميس^(١) وبيع الروث تحت أشجار الموز سبادهها. والعنم تأكل الرسم والنس وتشرب ماء «كادي»^(٢).. وعمرص إد أكت أوراق الميهوت (كسافا Cassava).. تعرض إذا حصلت على أوراق الككاي (jackfruit) هد كل ما أعرف عن العنم. من ربما تعرفون أتم عنها أين موطن نشأتها؟ ومن هم قدماء أهلها؟ وما أنواعها؟ وما ميزات كل نوع من أنواعها؟ فضلاً عن هذه المعلومات البعيدة، أن صغر اليدين من المعلومات الأولية عنها كم عدد حلمات ثديها؟ كم عدد أطراف أرجلها؟ وكم مدة حلب العنم بعد الولادة؟ وما مقدار الحليب الذي يمكن حله في مرة واحدة؟ وكم مرة تحلب في اليوم؟ وما كيفية حلبها؟ وكيف تصفط الحمة حتى يخرج الحليب؟ وهل هي ترفس برجلها الخلفية كالأبقار؟ أم برجلها الأمامية كالفرس؟ وكيف تنقي رفسها؟ لم أكن أعرف شيئاً من ذلك.

ما أتيت أحداً أسأله عن هذه المعارف قط. ولا أحد أخبرني بها.. وبو كنت عرفت سابقاً أن هذه هي الوظيفة التي تنتظرني ها، لأعددت لها نفسي. وكانت جاري «جانكيما» التي كان بيتها بعد بيت اثنين من بيتنا قرب ثلاثة من الماعز رأيتها مراراً ترعى في جوانب الطريق وفي الحقول.. وترنع صغارها ها وهاك، فلا بد أنها حلوب.. ولو كنت علمت الغيب، لذهبت إلى جاري ذلك اليوم لأتعلم عندها حلب العنم.. ولكسي للأسف لم أكن

(١) كان يقدم في بعض أنحاء كيرالا سوق خاص بالمواشي كل خميس

(٢) الماء المطروح فيه الأرز، يقدمه المربون في كيرالا لمضيفهم

أعبرها التفاتاً.. وكم من حيوانات مثلها تعبث حولنا!.. ولا أظن أن أكون أحسن حالاً إذا كان الأمر يتعلق بتربية البقر وترويض الكلب أو تدجين الحصان. وإنما لسبب أننا لا نباي بلك الحيوانات ولا نفكر فيها إلا عند الحاجة. فأسف قائلين يا ليتني لاحظت.. تعلمت.. تدرّبت.. وعلمت الآن وأنا ملقى غاماً بين أياب الضرورة أهمية النظر إلى ما حولنا من أسنة.. ماذا أفعل لأن؟ قطعاً وجدتي في حالة اضطرت فيها إلى تعليم نفسي، كما ينتهي الجميع إلى نفس المصير رغم صعوبة العوز فيه

دخلت بالدلو إلى «المسرة» . اقتربت من عرة . وكنت لاحظت بهلادي أنهم يغسلون انصرع قبل الحلب . أما هذا فلم يكن ثمة داع لذلك إذ لا يعتس هذه أحد ولا ينطف حلت حنفها هدوء وقربت الدلو من صرعها.. صعطت عليه صعطة واحدة.. لم يخرج شيء من الحليب . لم يقف الأمر عند هذا الحد بل وثبت العزة باهرة نحو القطيع بعد أن أسقطني برجلها إلى الأرض مع الدلو . ومع ركضها المجدون، هيجت القطيع كله داخل «المسرة» وأحدث في هرج و مرج وأنا ملقى على الأرض وسطها.. وقد حبطت على ظهري واحدة منها حطة تلويت منها وجعاً . فمت من هالك كيفما استطعت وقعدت انقرصاء حنف عرة سككت من ركضها . ما مسست ثديها حتى قهرت وطارت مني . أقمت على الثالثة فلم تلبث أن تسر هي الأخرى.. يا رب! كيف أحلب عرة تركص؟! وفقت متحيراً في تلك «المسرة»

عدت أستجمع همتي لأقعد خلف واحدة بعد أخرى بعريضة من عليه أن يحلب أسوم عرة . ولكن كل واحدة منها لم تلبث أن تصرفني عنها إلى أحنها. ولم أزل كذلك حتى جاء الأرباب والشح الرهيب بعد نصف ساعة تقريباً فثرباً معدر الحبيب الذي حلتته هو جثا بي أقفز كالصعدع خلف عزة بعد أخرى ولم تسقط في دوي قطرة من الحليب

ولما رأيا حالتي، انصرف الأرباب إلى حيمه وهو يقدمني دشائهم وأما
الشبح الرهيب فجاء إليّ وناول من يدي الدلو وأراني كيف أقترت من عنقه
لحمها.

لا تأت أبداً عنقه لتحلبها من حلمها بل إنتها من بين يديها. وقل أن
تباشر الحلب، عيث أن تداعها كما لو كانت طفلاً.. تمسح بحمال على
وجهها وأديها ورأسها وترت على كتفيها وظهرها وتجلس بهدوء بأحد
حاسبيها تلامس صدك بطنها مرتين أو ثلاث ثم تمس بلطف أحد ثدييها. ربما
تنتقص العرة لأنها تشعر بالدغدغة تمام كإلسان. فعبيك أن تُسكّر
دعدعتها كأها عذراء تداعها من خلال لمسات خفيفة على ثدييها

في بلادنا، يقوم وليدها بهذه المهام كلها من خلال معدنات لود العميق
وملامساته بين الأم وولدها.. حتى تسكن الدغدغة ويكاد الحليب ينز من
ثقب الصرع تحقيقاً على ولدها فيسهل عليها حبسها. وهنا ليس للحملان
حق في تسكين دعدغة أمهاتهم حتى تنز لهم الحليب فنقوم بمهامهم بنية
عنه. فعند التأكد من سكون دعدعتها، نبدأ بضغط على إحدى حلمتي
ثديها من أعلاها إلى أسفلها بالساعة والإبهام بشكل لا يوجعها لكن يسحب
الحليب إلى ثقب الحلمة. وهذه بلا شك مهارة يحتاج اكتسابها إلى ممارسة
كثيرة وهي التي يُقدّر بها مستوى تمكن الحلاب من وظيفته..

ولا تحلب أبداً بيد والإناء في الأخرى. وهذه ليست بطريقة صحيحة
بل عبيك أن تصنع الإناء على الأرض لتضغط بيد وتلاطف بالأخرى
عن ثدي بعرة.. فتقاد لك العنزة مهما كانت عدائية من غير أن ترفض
أو تنتقص بالعقر أو تطرح الإناء. ما أحمل هذا المظهر..! استوقفني لشبح
الرهيب الذي يطوّع لغنم للحلب دوماً مشقة. واستغربت من تلك الأعمام
العدائية التي تنقاد له عن طواعية!

وبعد أن جلب عددًا من الأعنام، مد الشح الرهيب الدلو إلى . قلّدتَه في كل ما فعل لا شك أن أفعالي لم تكن خالية من عبور التقليد علمت فيها بعد أن هذه الحركات تصدر بعفوية وعن ودلّ للحيوانات ويمكن لها أن تميرها بعبرتها . والأهم من ذلك هو التعايش معها . يقال. إن العنزة تعرف إذا تعيرت اليد التي اعتادت أن تلمس ثديها كل يوم.

رغم ذلك كله، لقد طوّعت عرّة.. وأمسكت فعلاً على ثديها وما أدري كيف أصف لكم المرحّة التي شعرت بها عند سقوط أول قطرة حليب في ديوبي كأسني سححت في التدريب وأصاحت مؤهلاً لوطيفة مرموقة لقد استسلمت لي واحدة من تلك الأعنام التي سأكون أنا أيضاً من مربّيها وستأتي على أثرها جميع أحوانها إلى متناول يدي إن شاء الله

قد حسنت نصف الدلو كيفي استطعت وخرجت من «النسرة» مبتلاً بالعرق في ذلك الصباح كما لو أنني بذلت جهداً جهيداً.



انصرم يوم آخر من غير شيء يذكر

وخلال هذه الأيام، كان اشع الرهيب قد أحس تدريجي عن رعي الأغنام في الدابة وعدمي كيف أقود القطيع من حاسبها، لا من أمامها. وكيف أسبطر عصاي على النافرة منها وأراني كذلك مقادير لشعير والرسيم والس انتي أصعبها في كل «مَسْرَة» في يوم واحد

أحسنت بأن سهر اليوم أشد حرارة من أمس. يكاد حنفي يحف من العطش كلما مشيت خطوات معدودة وكلما شربت الماء شه اعلى في اخرايا الحديددي ارداد لالتهاب في حنجرتي شعرت باضطراب شديد في بطبي بسبب شربه المنكر... ولا أدري كم مرة تدرت اليوم بعد الإفطار ولم أعد استحيي مثل لأمس وأصحت اليوم أتدري في العراء على حيثما كنت بعد لإحساس بحاجة ومنحيت بالأحجار بدلاً من الماء نجاتاً لصربات الأرباب واصدأبت إلى أن العادة في الاستجاء تجري في كل بلد على منحدر كثير الأشياء وحوداً فيه ولدنت يستعمل الأوريون لورقة لأسها كثير شيء عندهم ولما عربر عبدنا الكبير اليين، لذلك فقط يظهر بالماء أما بسنة في هه فكت الأحجار كثيرة، فاكتمت بها طمعا

وبعد برون، رددت الشمس حرارة. جعلت تبعث حية بحارية كأنها تسير لأحاديثها معها لقد أرهقني ذلك كل الإرهاق بالتصافير مع مرور الإسهار وأحبرت الأرباب والشمع الرهيب بوصفي الحرح، إلا أن

ذلك لم يحفف عني من العمل شيئاً ولم يكن الأرباب ليأخذ إعيائي وفنوري
بعين الاعتبار بل استمر بحملي عملاً على عمل.

ومع العصر، أصبح الجسم لرحاً دقاً كئني وقعت في شورة الأرض،
وحادثي من عدم الاعتناء مد أيام قد وصلت إلى حد أن تعجز للكلمة عن
وصفها سرقت شيئاً من الماء المخصص للأعنام وعسلت به بذي ووجهي
ومع ذلك ، بقي الأبرعاج الأكبر وهو أبرعاج الجسم وخاصة في منطقة
الإبط والعانة.

توجهت إلى سريري متحملاً كل شيء ولما قلت «سريري» فلا تفكروا
أسي حصلت على سريرو . إنها سريري الآن لرمال والسريرو الوحيد الذي
عندما قد استأثر به الشبح الرهيب.. وكانت حققتي تحته. استعرجت منها
بطايتي - وقد أصبحت متسحة تماماً خلال هذه الأيام - ومرشيتي على
الأرض وكانت في لرمال حصيات صغيرة توضع طهري. رقدت عليها غير
مدال بها متحاملاً على نفسي.. إنها أنا الغني الذي بحث في تلك الظروف عن
أدنى شيء من الراحة.

كنت من يدين لا يستطيعون النوم مهما تعبوا، إلا إذ استمتعوا برحة
المضجع . رقدت منغمساً في الأفكار. في الحقيقة، كان المروض أن تحملي
تلك الأفكار إلى ملادي وبيتي وأمي وولدي (أو بنتي) في بطها.
وتجلبدي شي وحرب بسبب العراق . لكن بدا لي كل ما ألقته عريياً عني
كأنني انتقلت من الدنيا إلى الآخرة. أهله السرعة ...! لعلكم تستعربون.
«نعم» هذا هو جوابي لكم.

لا تعيش في ذكريات الماضي إلا في تلك الفترة التي يعتق فيها أملاً على
سوح فرصة لتواصل واليثة الواعدة بها وقد تجاوزت تلك الفترة يوم

واحد فصار ما مضى من حياتي منقطعاً عن حاضري لا طائل من التأسف والتحسر. أصبح الماضي بالنسبة لي عالماً عربياً عتيقاً. أنا الآن في عالم جديد خصصت لقصائمه وقدره وانكست على وجهي على واقعه المر. وسجاني فيه مرهون بأن أهني نفسي لمعاداة تجارب الحياة الجديدة. وهي لطريقة الوحيدة للمقاومة من أجل النقاء. وإلا لهلكنا في مكان ما مهكاً بقلق يتردد أو عريقاً في آلام تحيط بي. ربما نكسر كل المحتجزين هنا مثلي من بعد على قيد الحياة بهذه الطريقة.. أليس كذلك؟

وإذاً، هل لكم أن تحموا بينكم كتم أفكر فيه في تلك المصيبة؟ كتم أفكر كيف أذهب إلى «المسرة» لحلب الأعنام كيف أطوعها كما يفعل الشح الرهيب حتى أخرج من «المسرة» بدلو مليء بالخليق فتقر به عين الأرباب. كيف يمكن لي أن أرمي نفسي كل الأعنام في «مسرة» واحدة وأرجع بها من المادية؟ كيف أحقق هذه الأحلام كلها؟ ما الاحتياطات اللازمة لها. ما الأخطاء التي وقعت فيها اليوم. كيف أصححها

لم أنحسر على الأمر ولم أنطلع إلى العد وإنما تدبرت كيف أواجه اليوم وهكذا كتم طيلة حياتي «المسرة» على ما أظن.

وحاولت في مرقدتي ذلك أن أستذكر كافة الكلمات العربية التي تعلمتها إلى الآن مع معانيها. صار لي بها فقط يومان، ولكنني اكتشفتُ قد تعلمت من المفردات العربية ما هو فوق الكفاية لي.

واليكم مفرداتي العربية مع معانيها

الأرباب	:	المقذ
مُسْرَه (مررعة)		ملجأ العجم
كُتُوس (حبر)		طعامي الوحيد

ماين (الماء) سائل مازر جدا فلا بد من أخذ كل لحيلة عند استعماله
(لا تعلموا من أهمية الأمر فلا تنمي فهم كلمة «الماء» في سياق كيرالي، لأن
مفهوم ماين لدى الأرباب مختلف تماما عن مفهوم الماء لدى أهل كيرالا التي
يتوفر الماء بوفرة في أراضيها)

غم	:	غم
حليب	:	حليب
تبين (القش)	:	تبين
برسيم (العلف)	:	برسمي
جل	:	جل
لا / لا يوجد	:	لا
أمرّك يا أرباب (مأخوذة من اللغة الأردنية)	:	حي هم
اغرب عن وجهي	:	يا الله

وبعد ما تم استذكار الكلمات التي درستها، علمت أن تلك التي لا
أعرفها والتي لا بد من معرفتها كثيرة جدًا اسمعوها .

شعير ، إباء ، حزان الماء ، سيارة ، مدفع ، صحراء ، ثوب ، غسل ، حراء
(براز) ، إسهال ، ضرب ، عصب ، شتم ، حيمة ، والعديد من الأفعال كـ
حاء ، ذهب ، ما فعلت ، لا أدري وهلم حراء

وإذا أراد علماء اللغة العربية منكم أن يطرحوا عليّ سؤالاً عن صحة
نطق ومعاني الكلمات العربية التي قلت لكم هنا، فلي يكون جوابي هم إلا
أن أقول «لا أدري في الحقيقة».. سمعتها هكذا . وفهمتها هكذا وهكذا

بعدمتها استطعت أن أستخرج من تلك الأصوات معانٍ لها . فهي كلمات صحيحة نالسة في .. ويطبقها صحيح وعلى أي حال ، ما تعني الكلمة ..^{١٩} المهم النحيم .. فهتت هذه الكلمات ما قل في الأرواب ، وفهم بها ما قلت له .. هذا كل ما أريد من مهارة اللغة .

مضى وقت طويل وأنا معمى في التذكر والتأمل . تركني الوجد مع تعب ويوم يعمران جسمي كله .. وانزلت إلى نوم عميق . ولا بد أن انوت قد تجاوز منتصف الليل جيداً .. غير أنني لم أشعر بذلك .

واستيقظت متأخرة جداً لأحد الشمس ساطعة في المشرق تحديق في بمجامع عيها . قمت عن الأرض .. نظرت إلى السرير كان فارغاً عدت أن الشبح الرهيب قد بدأ عمله مكرراً أسرع إلى «المسرة» خشية أن أتأخر عن الخلب . إلا أن الشبح الرهيب لم يكن هناك أبداً

وعلى خلاف عادته ، لم يبق الشبح الرهيب لعم .. ولم يعشها بالمرسم ولم يصع الشعير في الخوايات ولا فعل شيئاً . جعلت الأعمى تندي دخل «المسرة» احتجاجها على الخلل عاداتها بحركات غير عادية فكرت أنه ربما يكون في «مسرة» أخرى تفقدته في جميع «المسرات» ولم أجده في أحد منها . دهشت أين ذهب في الصباح الباكر؟ رجعت إلى السرير تسللت إلى صدي ربة حمة تصايقي . انحيبت أنفذه تحت السرير . لقد رأيت أمس نحتة حقيقه أخرى في جانب حقني . كانت تلك الحقيقه قديمة جداً معكروه بالعدر شكل بشر أنها له . لم أحدها اليوم في مكابها اشتكت في نفسي حصوة اربية .

وحيثه حرج الأرباب من الخيعة يُقبل علي.. مد إلي إناء الحليب وأمرني
بحلب الغنم نظرت إليه في ريبه. ولا شك أنه قد فهم أن نظرائي تسأله أين
ذهب لشح الرهب اليوم؟ فقال لي جملة من الكلمات كانت مشبعة بكل
من العصب واللعن والعطف والاستهتار والاستهانة
وكل ما فهمت من تلك الكلمات هو شيء واحد أن شبحي الرهب قد
هرب من هذا الحميم!!

لقد عرفت منذ يومين محسب . لا أدري هل تسمى هذه معرفة ؟ لم تبادل إلا كلمات معدودة . ولا عرفت اسمه ولا بلاده ولا شيئاً عنه . رغم ذلك ، جعلني خبر عيابه كاسف البال لسب لم أعرفه . قد يكون ذلك ما صرت فيه من الشعور الشديد بالوحدة . شعرت بفنور يعمر كل جسمي . الصدمة التي نتاب أحده حينما يُفاجأ بوفاة أمه أو أبيه أو غلدة كده . وفي الوقت نفسه ، لاحظت اللامبالاة التي ارتسمت على وجه الأرب حين أحرق بـخبر إنه هرب معم إنه قد ذهب لأشياء أكثر .

إلى أين ؟ كيف ؟ مع من ؟ كأن الأرباب لا يريد أن يعرف شيئاً من ذلك

فحاة ، برق في نفسي بصيص أمل .. أنه لو سمع يوماً نسي قد هربت ، فلن يكون رد فعله أكثر من هذا أيضاً . إن هرب الشبح الرهيب يبقى محجب ، وإن هرب محجب يوماً فربما فرحنا أكثر ولا أكثر

وما حسنته أن يكون هكذا نظراً لما رأيت من شدته وطريقة تصرفاته في اليوم لأول كان يطلق الرصاص في القماء ويعرض منظاره بيدي في مدى إعطيته للعبدة ويراقبنا من فوق السيارة كلها خرجا إلى البادية ويجوم حوباً في سيرته إذا رأى أما ذهبا بعيداً أيقنت عند ذلك كله أنه لن يدعنا أبداً نتخلص من هذا المحمم وقد لاحظت هذه الخشية والحيطه في كل حركات الشبح الرهيب ومسكاته . وفي كل كلماته التي قلها في أو حاول أن يقوها ..

« لا تحاول الهروب أبدا.. إذا فعلت، سيفتكك.. لأنه قاس وحشي متحجر القلب»

لكنه فر هاربًا بعدما حذري من الهرب ! كذاب ! كأنه كان يتطرق ليوكل إلي كل شيء قبل ذهابه. فلا يسعي أن أهرب، ولذلك خوفي هذه الأكاذيب ! انظروا ما أهدأ الأرباب اليوم. لا يدي حتى عصه المعتاد. من هرب هرب.. هذا هو موقعه.. وقد سررت بذلك لثلاثة أمور

الأول لقد تحرر الشبح الرهيب من هذه المعاناة كيفما استطاع والثاني يمكن لي أيضًا أن أتحرر يومًا مثله. والثالث: وهو الأهم، سأحصل عن السرير الذي كان يستأثر به الشبح الرهيب. وستنتهي لاحقًا معدني من الاستلقاء على الرمال.

هرولت بإزاء الحليب إلى «المسرة» طفرًا بروح الحماسة التي بعثتها في نفسي فكرة لتحرر. حدث عددًا من الأعمام. وقلة الخيرة كانت واصحة بشكر لافت.. غير أني لم أكن أسوأ حالًا مني بالأمس. وقد قل عدد الرفسات التي تنقيتها من الأعنام لقد تطورت كثيرًا عن مرحلة العجبر عن سحب قطرة حليب واحدة.. لا شك أن هذه طرفة كبيرة حققتها خلال يومين.. ولكن مع ذلك لا نظنوا أنني أصبحت مثل الشبح الرهيب في مهارته.

وكما هي العدة، أعطيت للأرباب نصيبه من الحليب، ووصعت السني في «مسرة». الصغار. وقد ألقيت على عاتقي وحدي كافة الأعمال المتعبة التي كانت مقسمة إلى اليوم بين رجلين.

أطلقت الخيال بعد العلف.. وصعت التن والرسيم والشعير في «المسرات». ملأت الماء في الحاويات وأثناء ذلك، جاءت شاحنة الماء. ساعدت صاحبها على تعبئة الخزان. وجاءت شاحنة التن أعنت على

تربيتها ولم أستطع التخلص من الأعمال مع أن ظهري قد انقضم بسببها..
حان وقت رعي الأغنام في الصباح (لقد اكتسبت ملكة تقدير الساعة بصرًا
إلى الطلال!) لكني لم أفرغ إلى الآن من توزيع البرسيم على نصف عدد
«المسرات».

شتمني الأرباب على التخلف عن رعي الأغنام في وقتها رغم أنه كان
يراقبني من الخيمة وأنا أحتهد قدر طاقتي.

«أنا رجل واحد، لا أطيع أكثر» . نعم . فعلا أجت عليه هكذا بلغتي
المال بالامية.

ولم يكن جواه إلا أن مرع حرامه وضربني على ظهري صربة قاصصة
جواب لا يحتاج إلى لغة! وأتذكر أن رصوص تلك الصربة الموجهة نفيت
على ظهري لمدة ستة أشهر..

واصرف مصيفا بعض الكلمات.. فهمت بوضوح أنه قال إن هذه
الأعمال كان يقوم بها رجل واحد إلى أن وصلت هنا قبل يومين . نعم، قد
فهم كل شيء بوضوح مهما كانت اللغة غريبة أجنبية جريت باكيا إلى أعماي
المتقية واليوم لم يتسع لي الوقت حتى لتناول الفطور ولا دعائي الأرباب
لأجله..

م أكد أنني من رعي أعنام «المسرات» حتى دعائي الأرباب . وقد
حصرت شاحنة تنقل الأعنام الناضجة إلى السوق . ومن واجبي تحميل
الأعنام السميكة والكبيرة إلى الشاحنة وكان أربابي الكبير هو الذي جاء
بالشاحنة.. وليس هناك أحد يساعده غيري..

دعيت بي «المسرة» والأربابان واقفان في الخارج بشيران إلى واحد
من العنق قنن «هذه».. أحاول أن أمسكه ولكني نزلت من يدي كسمكة

رأس الأفعى ويحدد سبلها بين القطيع . ولا أرا أن أطرده حتى أقض عليه كيما استطعت (وكيف أقض عليه ؟ لو كان في بحره حل لسهل عني المص) أحزّه إلى الشاحنة والشئ العويص تحميلة إبيها لا أقدر لوحدي عن محبته . ولا يركب العم أبداً نفسه . أدفع كل واحد من السيارة كيما استطعت . ولا أدري كم استغرق هذه العملية من وقتي وطقتي ! أهكت تماماً عندما فرغت من اثنين أو ثلاثة سجاج . ولكن الأرباب لا يزالون يُصارفوني إلى المسرة بدون توقف . يقولون مشيرين إلى واحد «هذه أبيض» أحاول أن أمسك واحداً فريئاً أسود منهم أمهي يريدانه «يا حمار ! ما في أسوداً أبيض، أبيض» يصيح لأرباب أنرى ثم أقبل على سمين آخر فيصرب الأرباب على رأسي قنلاً «يا حمار ! مع ما في ، هدي . هذه أبيض» ولا أفهم أنه يريد ذلك السمين الأبيض إلا بعد ما أحطأت مراراً أحذه إلى السيارة حتى أحمله فيها كيما استطعت . وأمر راجعاً إلى «المسرة» . يقول الأرباب «أسود» . أكرر عبوتي مرة أخرى حتى أهتدي في النهاية إلى الذي يريده الأرباب

وعند فرغت من القصص في هذه الصورة على عشرين حروفاً، انغبت فعلاً على لأرض مهوك القوى لعت نفسي والس أحعين هذا جرني عن هروب رجل كن معي ! أعمال تقصم الظهر . ! ضربة قاصمة لن أساه ! وهذا إلى جانب حرمان الطعام إلى منتصف النهار.



كنت أعلم نفسي كيف أواجه الحياة لوحدي! وأتنبأ لمهمة غريبة .
 وأناقلم مع مناح عريب.. وأربي قطعانا من الحيوانات بمرددي ولم يكن
 ذلك بموجب قرار باسل صممت عليه بل إني كان بموجب عجري
 اكمل.. إذا اضطر أحد إلى عمل يقصم الظهر من أجل شربة ماء لا شك
 أنه سيسرع إليه، بل إلى عمل يقصى عليه.

وعندما كنت أنقسم العمل مع الشيخ الرهيب في اليومين الأولين،
 كنت واثقا من أنه سيمكسي أن أتعلم الأعمال اللازمة سرعة حيث إنها
 متكررة رتيبة وليست مما تمثل تحديا كبيرا عند القيام بها. وإني وجدت نفسي
 في حاجة إلى التدريب فقط على فن الحلب ورعي القطيع في البادية أما
 ما سواها فكلها يسيرة يمكن للأعمى القيام بها بشرط أن يتمتع بشيء من
 الصحة هكذا كانت تخميناتي. ولكن كلما تقادمت الأيام تعلمت نفسي
 أشياء عديدة تتعلق بعادات الحمال وحياة العم وتربيتها والظروف تقوى
 لإنسان على كل شيء.

ودات يوم، كنت أرعى العم كالعادة. ولم يمر على يوم وصولي أكثر من
 سبعة وكنت في القطيع عرة حامل كنت ألاحظ لها فتورا وبظنا مد
 لدانة. لكي أهملت ذلك معسرا ذلك بأنه ليس إلا سبب تعب الحمل كما
 شاهدته على ريس الحامل.. وقد استشرت الأرباب قبل أن أحدها معا
 بهر رأسه أذنا لي في أخذها.

ولما وصلنا إلى منتصف الطريق، انعدت العبرة عن القطيع إلى ناحية ورقدت على الأرض ووقفت إلى جانبها مرتكاً مسحيراً . لم تستأنس أن تلوث ورحلت.. ولم يقع في ذهني إلا حين ذاك أنها قد ألم بها المحاص . فشلت كل محاولاتني في الرجوع بها إلى «المسرة» حيث إنها كانت تخطو خطوات ثلاث أو أربع وسرعد ما تسقط في أحضان الصحراء.. وقد سبق القطيع خلال ذلك بمسافة كبيرة وبدأ يتشتت شعله . والغنم تظل على سكبتها طامه كانت متجمعة في القطيع ولكنها ما إن تختلف الصفوف ويتفرق القطيع، سرعد ما تظهر غريبتها الوحشية، وعلى الرغم من ألقتها مع الإنسان مد حوالي ستة آلاف سنة، إلا أنها هي الوحيدة من بين الحيوانات المستأنسة التي تظهر غريزة تعود بها إلى طبيعتها الوحشية كلياً مسحت لها الفرصة. وليس ذلك، كان واحد من التوجيهات الصارمة التي تلقيتها من الشيخ الرهيب في اليوم الأول ذاته هو أن أحافظ على لم شعث القطيع واتحد صموه.

تفرقت كل واحدة من الغنم الخمسين إلى خمسين جهة..! وواحدة نرقدها في الطريق نتطر ولادتها. وقعت فعلاً في مأرق حرج بين أن أتركها حتى أذهب وراء بقية الغنم وبين أن أقف بجانبها مهتماً بأمرها تاركاً بقية الغنم تنتشر في البادية قررت أخيراً أن أقف بجانب التي هي على وشك الولادة متذكراً مثل الراعي الذي حرج يبحث عن الواحدة تاركاً وراءه تسعة وتسعين معجزة.

ما شاهدت أبداً ولادة أي حيوان فضلاً عن الغنم.. ولا أدري كيف أتعامل معها. ولا ما ينبغي فعله عند ولادة حيوان.. لم يكن نربي في بيت حيوانات داجية بها فيها البقرة، والغنم، والكلب، والقطعة . ولم أذهب إلى الحيران لمشاهدتها. ولذلك، لم يكن حينئذ أمامي إلا أن أقف بجانبها موقف المتفرح وبعد قليل، ظهر رأس الوليد يطل . شاهدت ذلك في رعب.

واستمر يجرح باستدريج وأمه تتحرج أشد الألم ولما أشرف على اسقوط إلى الأرض، وحدث نفسي أهرع إليه على غير شعور مني لأحده بين أحصائي ولكن ، قل أب أمك من شيء ، انزلق من يدي إلى لأرض بلوجه السوائل الخبيثة.

وجدتني حينها أحتفظ في ذاكرتي بعلم قديم اكتسبته من أحد ما.. أنه يجب إرالة المشيمة من جسم الوليد . قمت برزالتها عن وجهه وجسمه ولكن أمه كانت أوعى مني .. قد غسلته باللحوق وجعفته خلال لحظات . وما أسرع ما يكرر الغنم ! أأخذ الحمل الوليد في اللحظة التالية يحاول أن يهضم عن أرجله . وقد نجح في محاولته .. توجه على مهل نحو ضرع أمه . اكتشمت حينها أن الوليد ذكر..!

وفي تلك اللحظة ، خرج قلبي عن طوره مطلقاً كل عده . وهرع إلى انوطن بسرعة فائقة لا تصفها الكلمات . صريت على حذران القلب أمواح عاتية من ذكريات مسية مد أيام زوجتي ريس حامل .. وذعنها وهي في حالة تتوقع فيها الولادة في كل لحظة .. ولم يبلغني بعد حر من أحارها . وعمل هذا شري من الله إلي مباشرة .. زينب .. زوجتي الحسة .. قد ولدت اليوم ..! أنجبت لي ولداً كما كنت أتوقعه . ساء على هذا الاعتقاد ، سميت هذا الحمل الوليد نبلا ، الاسم الذي كنت اخترته لإسني انتظر سين .!

لقد تلوثت يدي وثوبي بدم المشيمة أين أعسلها ؟. إذا دهست إلى «المسرة» لوحدي بدون الأعمام فتوبخ الأرياب محتوم ويدون أي تردد ، صحت في ثوبي القدرة كلها . وأخذت بين أحضاني ذلك الحمل الحميل الذي كان يتوجه إلى ضرع أمه بخطوات غير مستقرة . «أهلا بك يا بني الحبيب...! أنت هدية الله إلي..!» قلب وأنا أقبله.

أحدث سبل إلى أمه قربت وجهه إلى ضرعها ولحظتها، فوجئت شيء عات نسقطي بعيداً على الأرض بقيت فاقد الوعي للحظات... أدركت أن الشيء لعاني لم يكن إلا ركلة قوية من الأرباب.. وقف ناظرًا بعينين محندتين بالعياط وهو يصيح مشيرًا إلى العبد. نظرت إلى حيث أشار كمت الأغنام نحول في أحصاء الصحراء متشرة عن القطيع بشكل تام. نعمت بعض الكميات مثل «عرة» «ولادة» «حمل» «مشيمة».. لكن صدره لم يكن رحا حتى يستمع إلى كلمات نوسلي.. تقدم عن امتعاض إلى ولدي سبل يبعده عن ندي أمه. ثم عاد إلى «المسرة» حاملًا يباه على كتفه.. مستهزأ بموقعي المستضعف ونظرات أم بييل المستريحة بلا وازع من الضمير

انطلقت أجري على إثر الأغنام تاركًا العزة الوالدة في مكابها. ولم أقدر على جمع شمل نقطيع إلا بعدما بدلت جهداً جهيدا معها. ولما رجعت بها إلى «المسرة» انصمت لوالدة أيضا إليها حينما رأت أنه لم يبق أمامها غير ذلك وكان الأرباب بانتطاري ليسلمني الهدايا الباقية. استندتها في صورة الضربات القواصم وقذائف الشتم. وقدم إلي لائحة الاتهام التي تشتمل على تهمة أربع. الأولى محاولة سرقة الماء لعسل الدم وأقذار المشيمة عن يدي وثوب الثانية. تأخر الرجوع بالقطيع. الثالثة: تمضية الوقت بالتفرج على ولادة عرة لا داعي لمراقبتها حيث إنها تستطيع أن تلد إذا حانت ولادتها دوماً تدخل بشري الرابعة: وهي العليظة، محاولة إرضاع الحمل الوليد من ضرع أمه.

وقد كنت أعرف أن حملان «المسرة» تشرب الحليب المسحوب في الدلو. ولكي ما فكرت أنها تحرم من ضرع أمهاتها حتى في اللحظات الأوائل من ولادتها.

كأفاني الأرباب على محاولة تقديم الخدمة لعمرة عند ولادنها باقة الشنائم،
رجلد الحرام، والركلات والبصاق وحرمان العداء.

ولكنني لم أكن حريئاً ولا مكروباً.. بل كنت على يقين من أن الله سيجازيني
عن صبري الخراء الأوفى في أبي ورب في الوطن. أو كنت أحاول أن أقنع
نفسى بذلك الاعتقاد. ولو لا هذا الاعتقاد فكيف كنت حالتي عذاك !.



أعطيت لبيل من العناية والمودة ما لم أعطه لبقية العم في «المنزلة» . رسم لم يكن في حاجة إلى ذلك . سيعيش ها كغيره من الأعمى . لكسي لم أستطع أن أهمل أمره.. لأنه وُلد بين دراعي كهديبة من الله بيانة عن فلة كدي. ولذلك كنت أرصعه من ضرع أمه في أحيان غفلة الأرباب . وهو حظ سعيد لا يحظى به هل من الحملان في ثلث «المنزلة» . وهل يمكن لي أن أمنحه شيئاً أعلى من إتاحة هذه الفرصة السعيدة ليرضع من ثدي أمه؟ وعند الشرب الجماعي من الدلو، كنت أسقيه لوحده . خصصته سواعم البرسيم . وفي وقت لرعي، لا أدعه يتعد عني.. لكنه كان يتقافز عني أحياناً على حين غفلة مني.. ينطلق بهجري إلى لأعمى كولد مشاعب . ثم يتهمت إلي فأسرع إليه لأمسكه . ولكنه يهتلع مني متسللاً إلى القطيع . وأستمر ألاحقه حتى أمسكه . أعمره بالقبيلات لأنه بالنسبة لي، لم يكن واحداً من مئات الحملان . بل كان أسي حقاً

كان مشاعباً كبيراً مد صعره . من عادته أن يناطح تيوماً أكبر منه بعضها يستسلم للملاعباته المرححة حياءً عليه.. ولكن لبعض الآخر يطعنه بقربه في ثأر . وكم من مرة عاد إلي بجروح تنرف! أسرق الماء من الحاوية وأغسل حروجه . أرش عليها بالردادة الدوائية التي كانت عند لأرباب . وكان سيل يعرف ويقدر هذه العناية والمودة التي خصصته بها.

وفي أحد المصاحات يسما كنت أتناهب لرعي الأعمى بعد تدوين «الكتاب» ، ناداني الأرباب قائلاً:
«لا تخرج.. عندك اليوم شغل آخر»

رجعت بالأعنام إلى «المسرة».

وبعد قليل، خرج الأرباب من الخيمة بسكين حاد مشحود أصاصي
الفرع كلبرق. يا الله، هل يريد أن يذبح بشاين يدي لأكل لحمه؟

والأرباب يسأل ولا يُسأل وقوله مسموع. وأمره مطاع سواء كان
مفهوماً أو غير مفهوم. هذا هو الطام. ولذلك خفت أن أسأله شيئاً
واتبعته صامتاً.

توجه إلى «مسرة». الصغار. أشار إلى تيس يأمرني بقبضه. أيقنت أنه
يريد أن يذبحه قبل أن ألتفت إلى الكي لم أتحرك على الاحتجاج. دخلت إلى «المسرة»
على مصص وجئت بالتيس الذي أشار إليه. أمرني برفع رجليه الخلفيتين
بعد ما أمسكته مدبراً بين فحدي. ولم أدرك قصده هذا الفعل. والتيس الآن
قائم على رجليه الأماميتين..

جسمه بين فحدي ورجلاه الخلفيتين بيدي.. حيث يستطيع الأرباب
المقبل أن يرى موصوح كل ما تحت جسمه. يرتعش تيس خوفاً.. من أن
أشده ارتعاشاً والأرباب يقبل وهو يتأكد من حدة السكين. أمّا ما وقع
بعد ذلك فلا أذكره. إنها سمعت بعده صوت صراخ عال لم أسمع مثله
أدنا.. رأيت دمًا متدفق كأنه يسحب من الصور.. وكان التيس يتلوى في
يدي بشدة ويرفس بأرجله بكل قواه حتى خفت في اللحظة أن يتملص من
يدي «لا تحلبه!» صاح الأرباب. وخوفاً من امتعاضه، تغلبت قوتي على
قوة التيس.. استخرج الأرباب من حبيبه رذاعة. رشها على الحرح. صدر
من التيس ثغاء تكاد تفيض معه روحه. أمّا الزيف فقد وقف لتوق كما هو
شدته ربطة. أخذ ارتعاش التيس يبدأ تدريجاً. أشار الأرباب لإطلاقه
إلى «المسرة». ولم أضعه عند واجهتها حتى اندفع إلى الداخل بسرعة دنقة
كخترير أصابه الرصاص.

وا أسفاه . تيس قد فقد «تيسيته» وحصيته ألقيت على الأرض أمام
الأرباب قطعة لحم وقطرات دم . وقد لاحظت أنه لا يسمح لكل تيس أن
يعيش برجلته وفحوته المتكاملة . ولذلك العرص هناك تيوس مختار
وهم إذا بلغوا سنًا معينًا ينقلون إلى «مُسرة» . الإناث ليعيشوا معهم
وهم أن يصاحبهم كلها شاءوا . مستمتعين بفحولهم بكل إمكانياتها
أما غيرهم من التيوس فهم عاجزون جنسيًا تم إحصاؤهم قبل المسخ
معيروهم . كنت قد لاحظت أن نمو الأغنام المحصاة سريع جدًا . ولكي لم
كن أعرف أن ذلك يتم بهذه الطريقة القاسية!

أشار الأرباب إلى تيس آخر دخلت «المُسرة» وجئت به والأرباب يعلم
جيدًا من نمو كل واحد منها . ومتى يسفي أن يتم إحصاؤه . ويكون ذلك
في شهر الأول لبعضها وبعد شهرين لآخر . وبالنظر إلى «موهب» التيس
«رحوبية» استطاع الأرباب أن يحتمس بمهارة هل يتبع إذا كرتسلًا جيدًا منصفًا
«شط» ولحركة؟ وهل يجب عرات حلوتًا؟ وهل يعطي عرات ولودًا؟
وساء على تخميناته، يتم اتخاذ القرار بإحصاء التيس أو الإبقاء على فحوته

وم أرباب أحصر واحدًا تلو آخر حسب إشارات الأرباب . ولم يزل يقطع
حصصها بسم السهوية التي بقلمها أظفاره . وبعد خمسة أو ستة مذابحه
«تيس آخر» توقفت عندها بضات قلبي . لأنه أشار إلى سبيل هذه المرة..!
«مكر قمي..! نبيي»! أنت الذي أتمنى أن تمرحها بكامل رجولتك!
«اسي»! لا لا أدعك عرصة لكينة . ولن أطيع ذلك ومتجاهلاً
بالأرباب يريد هو بالذات، قصت على آخر دافعًا سبل بقوة إلى ما بين
الأغنام ولكن للأرباب عيبا سر.. فرغم أنه يجلس كسلانًا في الخيمة عادة،
كان يستطيع أن يمتد كل واحد من الأغنام كحطوط كفيه .

«لا هذا.. ذاك» امتدت يده إلى بيل مرة أخرى لكي لا أستطيع لفض عليه. لا أطيق تعذيبه بهذا العذاب. قصت مرة أخرى على رجل نير قريب آخر.

«حمار!» صاح الأرباب. وكان ذلك نهاية صرعه القصوى وبعد تهبط على ظهري صرعة قوية.. أعرف ذلك جيدًا. دعم ذلك قصت على آخر في المرة الثالثة أيضًا.. هجم على الأرباب رافعا رجله. بصرت بها على ظهري صرعة طيرتني إلى الأرض. وقصص على رجل بيل. وجره في امتعاص. قمت إليه أهوي على قدميه موسلا لنطعه «أرجوك أن تتركه لأبي أحمه ولا أريد أن يساق إلى المسلح. دعه يعيش معي هنا.» استجديته بكل لغة أعرفها

«حمار.» صرسي على رأسي «أنا أعرف انتقاء المحول جيدة التي تقدر على إنتاج نسل قوي بسمو سرعة ونشاط، هل تعرف شيئًا أنت، الحمار المهدى؟ وهذا لا يلت أن ينقل إلى المسلح» جرّه الأرباب في استهزاء، ثم أمرني برفع رجليه.. وبعد ذلك بلحظتين! كانت حصيت بيل كعبه من التيوس ملقاة على الأرض متصرحة بالدعاء للرجة

ولم تتحرر أدي حتى الساعة من الصراخ الذي صدر من بيل حينذاك وأحسست بأن هذا الصراخ يجرح قلبي كقطعة صوان حاد. ولا أذكر بعد، لا أن بيل أسرع إلى «المترّة» وهو ينكي. ولما استيقظت بعده، وجدت نفسي مستلقيا على ربطات الترس. وكانت الشمس قد بلغت أشدها أعطني الأرباب شيئًا من الماء ثم أمرني بأعمالي اليومية. ويوم فقد بيل رجوله، فقدت أيضًا حيويتي وبشاطي. ولم أفهم إلى الآن سر ذلك الاقتران وكيف سقطت رجولتي مع رجولة تيس!

وعى الصان في الادة ليس بالأمر العسير لعنكم شاهدكم صورها في
 لأفلام. ثم في مجموعات متكافئة. ويكون في طبعة القطيع واحدة
 فائدة تتبعها تلك التي بعدها، ثم تتبعها التي بعدها وهكذا إلى آخر القطيع..
 وما عيب إلا أن سوق القطيع من الجوانب. ولا نعين طبعاً فائدة إلا واحدة
 هي أشد القطيع ألفة معاً وعليها مسؤولية قيادة جدد القطيع وصغارها.
 وكنت عدي في «مصري» فاندات ثلاث، سميتهن هذه الأسماء: «اللتا»،
 «الغني»، «راكبي»

وفي بوقت قصير، رعى الماعز مهمة عويصة فهي لا تسير ولا تجري
 إلا بشكل مجبور إذا توحشت واحدة إلى الأخرى تتوجه الأخرى إلى اليسار.
 وتعطى لتي أروعها تتكون من عدد يتراوح بين خمسين ومائة من الماعز.
 تحبوا، يا إخواني، حالي مع قطيع تنصن هذا العدد من العم المجنونة..
 طرأني قد سبق لي أن أوصحت لكم طباعها العربية لم يكن من بين
 الحيوانات التي رباها الإنسان ما يظهر عريتها الوحشية كما صنعت له
 الفرصة كالماعز، على الرغم من أنها تعيش مثل الصان مع الإنسان منذ حوالي
 ستة آلاف عام. والسيطرة على الخداء الثبوس أمر شبه مستحيل فليس كبير
 قد يكون في مثل قامبي وأما الثبوس التي تُصم إلى قطيع لعرات من أجل
 لتبيع بالسكوت عنها أفصل لا هتم لها سوى المتعة والأكل. إذاً هاج
 واحد منها يدي بأمر يا أحد أناس الباطرين

دات يوم، صررت واحداً منها من حلقه أثناء الرعي توجه إلى الورا
كانه حقا من حناج بخوبى قوة شديدة حتى رأيت البخار يخرج من صخره
وفي اللحظة التالية، محم على لسطحي على صدري دون أن يتيح لي فرصة
للإفلات شعرت بأنه قد وقعت على صدري مطرقة حديدية يريد ورس
على ألب طر.. رأيتني أطر إلى بعد حوالي عشرة أمتار كالعرسم الذي يسقطه
الطن في الأفلام الهندية سقطت حلاً وقد الوعي.. ما أدري كم طالت
بي ثلث لرفة؟ ولا أفقت وجدت الأرباب حلت أمدمي.. وما إن فتحت
عيني حتى سكبت على وجهي ماءً ساخنًا «يا حمار» أخذ يصيح بالشتائم.

وقمت من هناك بصعوبة بالغة، مددت بصري إلى الصحراء.. رأيت
الأعنام مسائرة في مساحة أرضية تبلغ حوالي خمسة كيلومترات تمتد
يدي اليسرى. شعرت بأن فطيع بها «أشعر بأن يدي قد كسرت» - قلب
للأرباب، فصرخي بحرامه وصاح في وجهي آسراً بجمع الأعنام وأدري
بأنه سيكون اليوم أحر أبامي إذا ضيعت واحدة منها

حررت في الصحراء بيدي المضممة بالأم. كانت الأعنام تستمتع بحريتها
العير متوقعة قد أظهرت طائعتها الوحشية بحدافها.. مثلها كمثل أمه
مهصت بغتة ناشورة من العودية والاحتلال.. فصارت إلى عوصى نامة
وقبل أن آتي بواحدة إلى ناحية، قمر منها الأخرى التي كانت هناك ولا
أحري وراء الدابة حتى تتحد الأولى سيلها في البادية. بعد محاولات كثيرة،
تبر لي أنه من المستحيل أن أجمع بين الجميع وأقودها إلى «المسرة» في قطع
واحد.. انتهى بي الأمر إلى أن أطلق مسرعاً إلى «المسرة» بما اتفق أن وقع
في يدي من الأعنام فأعلقت بابها عليها.. أعود أجري إلى البادية وأرجع
إلى «المسرة» مرة أخرى حوالي عشرة أعنام تمكنت من قضها تواصلت
العملية هكذا وكنت المسافة بين «المسرة» وأقرب رأس إليها بين

الأعنام مباشرة تدلع كديومترين على الأقل.. وغتد المساحة التي تتورع فيها
لأعنام حوالى خمس كلومترات من حيث وقوف العنم الأقرب ولا أعداد
لمرات ركوصي فاصعاً كل هذه المسافة. ولا أذكر شيئاً سوى أنني كنت تعست
إلى حد الخوف على نفسي من الهلاك. ومع ذلك، أوسعني الأرباب صرناً
حيما توقفت هيهة لأشرب قليلاً من الماء. استزع مني الكوب ورماء بعيداً،
و ستمررت أركض هكذا لاهث اللسان بحلق ياس

أثناء الركض، كنت أرفع بصري إلى السماء. أشكو إلى الله شيء وحرنى
يا الله يا مولاي.. ما رلت أدعوه بصوت عال. كنت أرى الأعنام ترعى
على بعد بعيد لكي كيف أصل إليها! عطش متلهب. حر حارق. قدمان
متفحطان من الإعياء كما لو أصابها داء العيل. يد يمزقها الألم.. ركضت
وراء الأعنام وصوتي يعلو بالصراخ والسكاء. لكن السماوات بدت هدئة
سكة غير أب واصلت إرسال لفحات الحر الشديد.

وقد رب لظهر حبي وصلت بأحر العنم إلى «المسرة» وها أن ذا اليوم
أنعجب من نفسي كيف استطعت أن أبقى حياً تحت لسعات الشمس اللاهية
بدون لحظة إستراحة ولا فطرة ماء على مدى تلك الأوقات الطويلة! وما
ساعدي على النقاء في تلك اللحظات إلا الإيهام القوي بالله والرعة في الحياة
مهم كنت الظروف قاسية. وبعد أن أدخلت الرأس الأخير إلى «المسرة»
انطرحت على السرير في تعب مفرط.

جاء الأرباب مجلس بجواري. صب في فمي قليلاً من الماء. «الماء..
الماء» نفوحت بكلمة طالبا مريدا من الماء «المبدرون أمثالك لا يعرفون
لاقتصاد في استعمال الماء مسرومون حقا أنتم» سمعت صوت الأرباب
وأد في شبه عيونة ولم ألت أن فعلت شعوري.. ولما استرددت وعيي في
وقب لا أذكر متى كان من الليل، وجدت يدي متفحة بشكل غير طبيعي

أحسست فيها بألم قطيع لا أكاد أطيعه . تأكدت أنها قد كسرت . مع ذلك كنت أعاني من ألم شديد في القفص الصدري الذي دمرته ضربة التيس فمما كنت عطشانًا جدًا قمت بحطوات غير ثابتة وشربت الماء . ذهبت إلى خيمة الأرباب متحملاً الآما عارمة . رمى إلي بثلاثة «كُتوس» وهو يعانني عن ثعبان الوقت في يوم طويل .. أكلت في سراحة تلك «الكُتوس» كلها بعد عمسها باماء لأي لم أعد أطبق الجوع . ولم أستطع النوم في تلك الليلة من شدة الألم أتيت مرارًا أمام الخيمة باكيًا أستحدي الأرباب ليقلني إلى مستشفى لأن يدي قد كسرت لكن بدائي لم يلق أدنا صاعية .. وفي الصباح أتى لي يوقصي . حاملاً معه دلو الخليب . يأمرني بحلب الأعمام عرضت عليه يدي . لم يكن حواه إلا أن صرمني ضربة قوية على رأسي ..

لم يذهب شيء من الألم من القفص الصدري . بقيت يدي منتفخة كمالو أصابها داء الفيل . الألم لم أطق احتماها . توجهت إلى «المسرة» في حطوات مترجحة حاملاً يدي المكسرة كيف أحلب العم بيد واحدة .. عادة . أحب عمرة مضجعة بلا صعوبة كبيرة مستحدفًا كلتي اليدين واضعًا الدلو على الأرض بكر بالسة للمتمردة فلا بد من الملاحظات على جسمها . ومما أفعل بيدي المكسورة هذه ؟ وإذا رصت العزرة ينقلب الدلو على الأرض بالخليب الذي جمعتة به بيد واحدة . دخلت إلى «المسرة» على عريضة متوكلاً على الله وكانت أول عمرة وقعت عليها عيني تلك التي سميتها «بوثشادر رمي» وهناك قصة من وراء تسميتها بذلك الاسم ، وسأقصها عليكم فيما بعد .

قلت لها ناظرًا إلى عيها «حبيسي رَمي» لا أقدر أن أحرك يدي . وذلك هدية استلمتها من أحد رجالك لكن الأرباب لا يملك إلا أن يشرع الخليب في الصباح سواء إذا كسرت يدي أو سقطت السماء على رأسي

مهم، كان، إنما يريد الخلب في الصباح.. فلماذا أن أخلب له وإن تعاوت
معي، تحبصت من بقية صرنا.. فيليك أمري اليوم.

واحق يقال، وجدت الأعمام في أحيان كثيرة أكثر فهمًا لي وأشد تعاطفًا
معي من الإنسان. وقعت «رَمَس» اليوم هادئة ساكنة من أجلي استطعت أن
أحب ما يكفي للأرباب. وضعت الدلو أمام الخبقة وأد ألعه في نفسي
بالدع الكميات «اشرب يا حنزيو» اشرب حتي يشع همك.

بعد شرب الحبيب، جاء إلي يأمرني أن أخلب نصيب الحملان الرصيدة..
وكتت فعلا مبهوك القوى. ولحظتها، وجدني أصارحه قائلاً بل أظن
أنني كنت أصبح في وجهه «لا أقدر! لا أقدر! لا أقدر!» اندهن من ذلك
الأسلوب الخديد الذي لم يسمعه مني قط. وانطرحت على السرير علي
نصي مستطراً أسواط حزامه على ظهري. ربما سيقتلني. حبه يقتل حبه
يقسي ويأكسي، سيكون ذلك أرحم بي من هذا العناء. وما الذي بقوى
على تخويف الإنسان إذا كان على استعداد للقاء الموت! يا الله، لقد تعهدت
لك ولشريعة دينك أنني لن أقتل نفسي أبداً. ولكي لا أظن أنك ستؤخذني
بـ حيلت بين نفسي وبين هذا الأرباب القاتل أنا المحروم لدي لم يُقدّر له
رؤية وده. ولكي لا أنحسر على ذلك إن أفذتني من هذه المعادة وأدتني
في الموت بيد الأرباب..

على خلاف ما صحت، لم يأت الأرباب إلي بعد ذلك. وأحدث الأعمام
سدي حتاحها على احتلال عاداتها.. هكذا هي.. تعيش على نظم. إذا
حدث شيء من لتعير في سمط حياتها، تقلب الأمور كلها رأساً على عقب..
حل كل شيء يذهب إلى الحميم. لا يهمني شيء. استلقيت مسمراً على
سريري..

وبعد قليل، عرفت أن الأرباب الكير قد حصر بسيارته لكنني تجاهلت قدومه وبعد أن تحدثت قليلاً، أتيت إلى الأرباب الكير.. فحضر معي يدي وهو يجلس مكان تورم كنت أصرخ من شدة الألم . أتوسله أن يأخذني إلى المستشفى. إلا أنه تصرف داهياً إلى سيارته . مستهتراً بصراحاتي المتواصلة ولم أترج السربير بعد قليل عاد الأرباب إلي ببعض من الأدوية العشبية هرسها في بية . وضعها في المطفة المتورمة من يدي.. لف حول يدي قفصاً وقميصاً وجعلها كصيدة. عرست عليه تورم صدري.. وضع الدواء عليه أيضاً ومارت أتوسل إليه ليأخذني إلى المستشفى. وكان يجيني قائلاً: «ما يهمك سيتحسن فوراً» لكنني لم أضغط إلى كلامه.. حسيت أن يريد لتورم وتنقيح يخرج حتى يؤدي الأمر إلى نزع يدي.

أعطاني الأرباب بعض الكتوس. اتدعتها فوراً بكل شراهة بعد عمسها في الماء. وأمرني برعي الأغنام منها بأسي قد تأحرت الآن كثيراً.. ولم أكن أملك عصيانته.. هرولت إلى «المرة» حاملاً يدي المكسورة.

أحسيت مع لصهر بأن الألم قد أخذ يروول عن يدي . وما جاء للبل حتى عاد هذا الألم تماماً انحفص تورم الصدر واليد في غضون يومين وبعد مصي حوالي عشرة أيام. فككت الصيدة الخشبية.. خلال هذه الأيام، كنت أقوم برعي الغنم وحلبها بيدي الصحيحة.. أتذكر اليوم مستغرب كيف أن الأعداء لم يرفسوا طيلة هذه الأيام ولا قلت دلو الحليب وما همت أن تنطحني!

والحق يقدر كذب الأعداء في كثير من الأحيان أفهم لي من الأرباب ربما كنت تعرف أسبي لن أوديتها مهما ادني ومع ذلك، احتفظت بعدد من السيوس إذا قفرت علي أفنت منها أو أوسعتها صرناً بعصاي ولذلك لم يسقطني على الأرض تيس فنياً بعد.

دعوي لأن أحر كم شيئاً لم يرد في حكايتنا إلى الآن... هل تصدقوني إن
 قنت لكم: إن أقصى ما طمحت إليه في طفولتي هو أن أكون راعي غنم؟
 وربما تكون تلك لرعه راحة عن تأثير قصيدة «زمن» الشعبية⁽¹⁾ في نفسي
 ولتي كنت أُمي تحبها كثيراً. أتجول من بلد إلى آخر. أمشي الهوا مع
 تقطيع في سهول والوديان. أحيّم في كل يوم في مكان حديد. أحرص
 الأعداء في سلبني الدردة إلى جانب موقد نار. كان راعي الغنم بالنسبة لي
 تجربة حالية سمع عنها فقط في الحكايات العربية والعجبية.

ويوم أصبحت راعي غنم في الواقع، أدركت مع استياء البعد الشاسع
 بيني وبين حلمي. إنه أقول لكم: إنه لا ينبغي أن تحلموا ولو عثاً بالأشياء
 بعيدة عنكم أو لأمر التي لا علم لكم بها. وأذكركم بأن تلك لأحلام إن
 تحققت يوماً في حياتكم ستكون أروع مما تطبقون النظر إلى وجهها.



(1) قصيدة مالا بالامية مشهورة تناول قصة راعي غنم.

لولا شحنة الشعر التي تحضر مرة في الشهر وشحنة التسن التي تجيء مرة في الأسبوع وشحنة صهر يبع المياه التي تأتي مرتين في الأسبوع، لتيقنت أنني أعيش هنا في كوكب آخر لا يوجد فيه أحد سواي ما عدا الأرباب ومجموعة من النعم. وهذه الشاحنات هي صلة الوصل الوحيدة بين كوكبي هذا وبين أرحاء الكون الأخرى وكان سائقوها كلهم باكستانيين «بَطْشِين». ويشتمل اتصالنا بالعالم الخارجي في اتصالنا بهم، وعلى أقل تقدير، يمكن لي أن أحيطهم عني بوحودي هنا وهم وحدهم بقدر أن يشقوا لي يوما طريقا لنجاة لأخرج من هنا.

حيات في نفسي أملاً حقيقياً أن تسع لي فرصة أو أخرى في يوم أو آخر لكن الأرباب كان يتدد تلك العرص كلها، حيث يرسلني مكرراً إلى البادية في أيام محنتهم وبشرط عليّ أن لا أعود إلى «المنزلة» إلا بعد دهاهم وليس لي حق، لا لأساعدهم في تعشة الماء في الخزان وتربيل التسن والبرسيم والشعير من شاحنات رعم ديك كله، تحتلني في قلبي الفرحنة كلما جاءت شاحناتهم، نفس الفرحنة التي شعر بها حينما يرل في بيتنا صيوف مقربون... وفي تلك الأيام أتحدث إلى الأعمام بصوت عالٍ فوق العادة لكن حينما أرى تلك الشاحنات تسعد عيني بخلفة ورائها عماراً ثائراً، أحس بأن العالم كله يتعد عني ولخصها يعمرني فتور كأن قلبي استنزفت دماؤه.

ودأت يوم، وصلت شاحنة وليس عليها عمال لإفراغ الأغراض التي
تحميها واصطر الأرباب أن يدعوني من البادية وكان سائقها - وهو أبصر
داكستاني - ثالث إنسان أراه عن قرب بعد زمن طويل. أحسست بأنه كان
يجمل معه رائحة طاب لي معها حتى ربيع عرقه مما يبهي إلى مدى التانة التي
استوطنت جسدي لم أتمالك حسن فرحتي بقاء إنسان حتى حاولت أن
أسه وقد شعرت حينها بحبوط الفرحنة تتصافر في أعماق قلبي..

وأناء عملية التفريع، حاولت أن أقصي إليه بمأساتي مصاعبة في جميع
وسائل التعبير التي أملكها. طلللت أتوسل له! لينقذي من هذا الجحيم
كيف يستطيع لكنه لم يكن يستمع إلي وقد فحمتني اللامبالاة التي أبدتها
وحده حينما نوح إلي الأرباب بيده يدعوني إلى الشاحنة، كنت أطير نحوها
على أكتاف الأمل و فرح. محبسا الأعمام كلها.. مدفوعا برغمتي العارمة في
الحياة واستهزولها أيقنت أنه قد حانت اللحظة المنتظرة.. لكن نظراته المبتة
قصت على آمالي كلها. كنت أنظر إليه نظرة من يستجديه كلما وضع عن
رأسي حرم التمس والرسيم أثناء تنزيلها من الشاحنة حاولت لفت انتباهه
بالتلويح المتكرر. توسلت له حتى ينقذي من هذا السجن بينما كنت أشي
سجاسة أثناء العمل على هيئة تدو للناظر طبيعية تماما. بل إن هويت على
قدميه متطهر بأسي كنت أنحني لأحد حزمة برسيم وفي الحقيقة ألقينها إلى
الأرض متعمد. وحتى حينها أبقى أن يتكرم علي ولو سطرة واحدة. أه. أ.
وحدتي أعرف كيف يحطم قلبي حينذاك

ولما انتهت عمسة التفريع، رجع بشاحنته حتى بدون ابتسامة عابرة
انتشر الظلام على أملي لعنه حينها بالعاظ أستحيي أن أذكرها الآن. لا
أطر أحدا في العام قد لعن رجلا عربيا أشد مما لعنته حينذاك.. وما فقد أحد
على أحد كما فقدت عليه.. صرمت على صدري صررات قوية لتسكين هذا
الحقد الثقيل ولو قليلا وأنا في طريقي إلى البادية لجمع الأعمام

و لأن فهم حينئذ أن ذلك السائق المسكين الذي يعرف أربابى منذ سنوات كان عذراً تماماً عما رخصته له.. ولا يمكن لأحد أن يحسن كيف يكون رد فعل الأرباب إذا رأى سائقاً يتحدث معي! ودات يوم، ما إن هم سائق شاحنة الشعير أن يتحدث إلي حتى جاء الأرباب يجري حاملاً في يده مسدسه وأدرك كذلك سائق شاحنة المياه لدي صريره الأرباب بعقب مسدسه صريره أسقطته على الأرض عقاباً على جريمة التحدث إلي. ومن يدري كم من «الأعمام» مثلي قد احتجروا هنا في هذه «المسرة»! ربما لم يتحرر ذلك السائق الكندي إلى الآن من ذكريات العقاب الذي تلقاه من الأرباب بسبب محاولاته لإيقاد بعض من هؤلاء «الأعمام».. ومن يدري رب يكون الآن يركي في سيارته نكء شديداً متحسراً على تركيها بلا رحمة وأحسنت أن أؤمن بأنه ما تركي متعمداً وقبل مضي ذلك اليوم، نجحت في إقناع بصي بذلك لاعتقاده. وهكذا كنت أتعب على كثير من آلامي. يا لله ربي ابرؤوف الرحيم.. أنت الذي كنت علي مكافئة تلك الأيام لتتدبني بها وحدي عمرك من حقدي ولعني شخصاً آخر بسببها.

في بداية، شعرت بالرائحة النتنة تسعث من كل شيء في «المسرة» رائحة تشير لعثيد تجتمع فيها عفوية جميع فصلات العم بالإضافة إلى النسر والرسم المسس سوها. ولا عهدي بمثل هذه الرائحة إلا في حيمة السيرك حتى الخفيف لم يلم من تلك الرائحة كلها عمت فيه «الكومس» كانت الرائحة نتنة محترق أنفي كم تقيأت في الأيام الأولى! لكن شيئاً فشيئاً توقعت عن التفؤ. أو رب بدأت أسي تلك الرائحة فيما بعد، ورعم أبي حاولت مرات عديدة إلا أنني لم أستطع أن أستعيد لها. لقد أصبحت حراً مني في وقع الأمر. ولم تكن أصدق أن رائحة نتنة مثل هذه كانت موجودة أصلاً. وهد إلى حذب أبي أصبحت اليوم قادراً على التعبير عن روائح الأعمام.

إن للنوم رائحة وللصباح أخرى والصباح تنوع إلى مئات الأنواع ولكن
نوع منها رائحة خاصة به . وكذلك للأغنام الحوامل رائحة تتغير إذا اقتربت
ولادتها . وساء على ذلك، استطعت حتى أن أقدر يوم ولادتها، وللمولود
رائحة غير تلك التي للحمل الرضيع وتختلف رائحتها في أيام الصراب
وأما الحمل فرائحتها مختلفة عن كل هذه الروائح . والحمل نوعان، نوع ذو
سام واحد وآخر ذو سامين . ولكل منهما رائحة خاصة . وهناك حيوان
وحيد في «المنزلة» لا رائحة عميرة . هذا الحيوان هو أنا !

ودات يوم استذت بي رعة في كتابة رسالة إلى رينب . لم أفكر حينها
كيف سنصل رسالتي إليهما . «اكتب . اكتب» أمرتني نفسي .. سحبت
حقيبتي من تحت السرير أثناء الفسحة الضيقة بعد تناول العشاء في الظهر،
أعني «كجوس» و... استخرجت منها القلم والورقة اللذين اشتريتهما
من «مجباني» . لم يكتب القلم إلا بعد خرخشة كثيرة . ولم أكن أعرف كيف
تكتب الرسالة لأي كنت أكتبها الآن لأول مرة . رغم ذلك، أخذت في
كتابة جامعا كل المشاعر التي تخلج في نفسي ..

حينتي رينب!

وصيتك هـ بالسلامة، ولم أقدر حتى أن أكتب لك رسالة بسبب كثرة
الشغل . وأعرف جيدا أنك هناك قلقه علي . لا تقلقي . حينك هـا علي
ما يرهم . أشغل هـا في شركة تنح الصوف والخشب . والشغل سهل ..
وعبر مرهق . اذكية تقوم بكل شيء . وإنما أشرف على الشركة . وأرباب
معجب بي وعلمي . وهو يهدي لي الهدايا من حين إلى آخر . وسكننا هـا في
عرفه واسعة جدا . حملة المظفر . يمكن لي أن أرى جميع المناطق المجاورة
وأنا مسلق على طهري في سريري . وأما الطعام فيقدم لي الأرباب ألوانا
من الأصعمة التي ما طعمها إلا اليوم . وأكتب الآن هذه الرسالة بعدما

شربت كوتًا من أحبيب الطارج فوق ما تناولت «الكبوس» ولحم الخروف
واندحاح وأطش أنه قد زاد وري كثيرًا حلال هذه الأيام القلائل والآن أنا
في استراحة بعد الظهر عادة أمام في هذا الوقت مستمتعا بالسيم العليل إلى
أن يستأنف الدوام بعد قليل.

ومعي ها من بلادنا أصدقاء مثل «زاور» و«زاهاون» و«وحي»
و«نوكر» هم أصدقائي كثيرًا لأن أربابي لا يحب مني ذلك.. وله ست
صغيرة تدعى «ميري ميمونة» هي حيلة كالخور العير.. أتمشى معها في
أبواب انقيادًا لدعوتها الملحة.

هذه هي أحباري ها وأرجو كذلك أن تكوني وأمي على ما يرام.
وإن شاء الله سأكتب لك الرسائل كلها مسحت لي الفرصة.

حيث بحب

طويت الورقة ثم بكيت كثيرًا وأنا مغمض العينين ولم يكن حالي متمثلًا
في تدث برسالة بل في بكائي وعويلي ولم يطلع أحد على حالي البنس.



ودت يوم، بين كنت أرعى العنم، لاحظت راوية السماء الشرقية تتلبد
 بالغيوم السوداء وكنت قد لاحظت طبيعة الصحراء تهب ربح محملة
 بعد كشيء سبق على تغير الموسم. تتغير على إثرها ملامح الطقس، تغيرات
 بصحرء دائمى سريعة حدوث. كأنها لا نحب التأي والتدرج في شؤونها. قد
 تصبح البيئة احارة إلى صااح بارد. وقد ينهي بقة الرد القارس الذي يجربا
 أن تعطى سطبة الصوف ويلوه يوم حارق. وقد يكون الجو نقيا صافيا
 من بعد هاني في لحظة التالية عواصف تعكر صفوه وهما هي قد أنت
 لأن هكذا. بعد لمحات الحر طوال النهار، تراءت على إثرها فجأة غلالات
 بغيوم لسوداء في وديان السماء النائية، لم تلبث أن تناثرت في أرجائها حتى
 صارت السماء كنها معتممة كسطبة سوداء تعطي الصحراء. هبت السمات
 لدرده سي أحسست بأنها تسلل إلى قلبي وحسني حيل إلى أنني انتقلت
 فجأة من بصحرء إلى القطب الجنوبي وبدأت الأعمام تجري على غير هدى
 وتأثرت بعرات الطقس في عسي بشوة كالأعمام تماما. حررت بأسط اليدين
 في الفضاء بارد كالأعمام تجوب الصحراء.

وما لبثت على هذه الحد إلى أن جاء الأرباب يقدفني بعصه جمعت
 المطمع ور جمع بها في «المشزة». وما وصلت إليها حتى أحدث السماء تمطر
 شكل حميف

ولما هبطت على جسمي قطرة المطر الأولى، تلويث كأنني تعرضت لقطعة
حجر . إن لم تحي ذاكرتي، فهذه أول مرة تمس جسمي فيها قطرة ماء مد
حوالي عشرة أشهر.. وكان ذلك تجربة أليمة وبعد قليل، اشتدت زحاح
المطر وأحسست بكل قطرة طعة نافذة في جسمي ولم أقدر أن أصبر على
الأم . أسرع إلى أخذ بطارية تحمسي من تلك الطعجات. بدا أن الأعنام
أيضاً تعاني من الألم.. ثعت بصوت عريب عال. وفي تلك الأثناء، وصل
قطيع الخيل التي تنسم بهدوء الطبع عائداً في المطر من تجواها في مجاهيل
الصحراء وبدت هي الأخرى مرعجة من جراء وحررات المطر.

واضطجعت المطر الرعد والثرق حمت لحظة أن يرل علينا هاب الرق
من السماء فيحرق «مَـرَتنا»..

ومع كل قطرة مطر تهبط على رأسي انتصت كل شعرة من شعرات رأسي
من شدة الأم.. أصابني رعشة.. أخذ الألم والالتهاب يسريان في جسمي
كنه . رغم أني وددت أن أتعرض للمطر وأغتسل فيه، إلا أني لم أكن لأتحمل
ذلك ولما تجاوز الألم حدود الاحتمال، هرولت نحو خيمة الأرباب.. ما
أعجب المطر الذي رأيته هالك ! كحان، يقعد الأرباب حائثاً في زاوية .
فكرت أنه لا يحف شيباً في العالم كما يحاف المطر والماء ولم أر طيلة حياتي
أحدًا أشد مه حوفاً من المطر كما يفرع من لمسات الجح، أصابه الذعر مع
كل قطرة ماء تهبط على جسمه وكلما قذف المطر بقطراته إلى داخل الخيمة،
ارداد اسبحاً إلى الراوية وتفكرت حينها أنه ربما لم يعتسل ولو مرة واحدة
بعد أن ولدته أمه

ولأول مرة، رحب بي الأرباب إلى داخل الخيمة.. أجلسني على سرير
حينما هممت أن أقعد على الأرض. انتزع يدي كطفل مصروع.. اسلمنا إلى
تحت بطانية هرباً من المطر.

وبما نحن كذلك، تعثرت يدي شيء تحت الوسادة.. عدت أنحسه في
 شك. كان ذلك مسدسه. أمسكه بحذر. سلكه والأرباب لا يكثر
 شيء. إنما كان معتمدا في الدعاء إلى الله ليتوقف المطر وهو يكرر اسم الجلالة
 «الله الله الله» وفجأة استولت علي وحشية.. بدأت نفسي تحدثني. «خذ
 العرص واسحب الرباد وأنفذ نفسك.. السيارة موجودة في الخارج وفيها
 مت جهها.. يمكن لك أن تتع الطريق كيما تستطيع حتى نفر من هذا المكان..
 هاهي فرصتك قد سحبت. فرصة أتاحتها لك الله ربك الرحيم لينقذك من
 ها. وإن بددت هذه الفرصة فقد لا تعود إليك أبدا.. ألا تعرف أن العرص
 لا تتكرر. افعل..! واهرب الآن من هذا الحميم إلى مكان ما..» كنت على
 وشك أن أسحب الرباد. فجأة سمعت الأرباب يعلو صوته بالدعاء وهو
 يقول «يا ربّي قد أبحيتني ولولا نجيب، لمت من شدة الخوف..» وهذه
 أول مرة أسمع فيه يتموه باسمي.. وما كنت أظن أنه يعرف اسمي. لأنه
 ما سمعته إلى الآن يدعوني. لا «حمار» أو «هندي» وغير ذلك. قد رق له قبي
 مهد لدعاء والدعاء.. فما رعت في السجدة بعد قتل جنان يستجدي الدعوة..
 أعدت المسدس إلى مكانه الأول..

ولما أحسست بالحرق أعدت البطانية المتلة عن جسدي. وحررت يدي
 من لأرباب. ثم تجردت من ثيابي. نزلت بحراة إلى المطر عريانا كما ولدني
 أمي.. في البداية كان جسدي يعاني من ألم شديد. صبرت عن وحررات
 لمطر بعد قليل، شعرت بالألم ينحفض شيئا فشيئا.. حتى أصبحت كل
 قطرة من قطرات المطر تنعش في الإحساس بالبرد والشعور بالمتعة. كنت
 أحنن بمطر. أرتع كحملان العنم التي شاهدت غيوم المطر في السماء..
 وقد عسلي المطر بعد عهد طويل. وحلت حسدي زحاته عن الوسادة
 متراكمة عليه

ولما توقف المطر في وقت ما من الليل، أسرع الأرباب إلى سيارته وسار بها مسرعًا ولم يرجع إلى «المسرة» في تلك الليلة وبعد قليل اشتد هطول المطر مرة أخرى. وكنت أتمتع بحرية كاملة طوال الليلة بدون أحد ليمعني أو يوبخني لأشك أن هذه أسب فرصة للهروب.. لكسي لم أهرب . وكفي في كل مرة، لم أكن أعرف اتجاهًا يوصلني إلى ملاذ آمن وأدت رغبتني في الهروب عدم سحت له الفرصة الذهبية. ورب فرصة مثل هذه ينده كمن وحدها في حياته أليس كذلك ؟ نحن الذين يلقون بالكأس الذهبية مهجورة خطة المور بها رغم اشتياقنا الطويل إليها . نتحلف عن استخذها في اللحظة الحاسمة وتلك مشيئة الله

ولكن نمسي ألحت علي أن أفعل أي شيء في هذه الليلة التي تحررت فيها رقتي من أغلال الأرباب . كنت مستعدًا لإتيان أي فعل يشر عصه وسحطه وإلا فكأنني صيغت لخطات الحربة البادرة التي حطيت بها المسلة وللتو حطرت سالي رعة في الذهاب إلى «المسرة» التي كانت غير بعيدة عني لعلي أوفق لبقاء عند الحكيم الذي لم أراه بعدما أرسله الأرباب هناك ليلة وصوله هـ ولا أدري هل لا يزال حيا أم قد انتقل من مساواة الأرباب إلى رحمة ربه أو قد لاد ما هروب^٤. ولد مسكين قد صار بعيدا عني عني ارفع من قرب المكان.. ما أصيق محسني هذا! تفكرت متصايقا وقد استأذنت لأرباب مرة أو مرتين في الذهاب إلى تلك «المسرة» المجاورة ولكنه أعرض عن سؤالي كأنه لم يسمعي. وفي تلك الليلة التي أمطرت فيها السماء مدرارًا، خرجت منجها إلى «مسرة». عند الحكيم طرقت بقلق على لواءة انقمه بقل حديدي أفرعي احتمال أن يكون هناك أربابه ورغم ذلك، فقد واصلت طرقاتي.

عبد الحكيم يا عبد الحكيم. هل أنت تسمعي..؟ هذا أنا حبيب
باب الذي جاء معك إلى الخليج.. أنت هناك ؟

ولم اردب إلى طرفاقي من غير أن نجد أحدا يجيبها، تأهبت للرجوع متسألا..
عبد ديث لم يطرئ شعاع يتحرك على البعد

يا عبد الحكيم أنت هذا ؟ هأنذا حبيب هتعت قائلا بأعلى صوتي
شككت أن تعذب النظر على صوتي بعجيبه . ولكي قد رأيت ذلك
الشع لا يزال يدنو مني شيئا فشيئا.

يا عبد الحكيم . أهذا أنت ؟ تعال ها . هذا أنا حبيب

وبدأت مني الشع أكثر. نظرت إليه بمجامع عبي. شعاع رهيب
حر . إنسان مشوه بجبل أسود ذو شعر طويل. هذا ليس عبد الحكيم .
لم يكن بهذه الهيئة.. كان رشيقا شديدا البياض فاتق الحسن مقبول العصابات
شكر بيق بعمره.. كنت أصحك منه يوم كنا في «تُماني» قائلا «لا داعي
أن تسافر معي إلى الخليج ربما تحصل على فرصة في الأفلام الهدية ها..».

«هل يوجد ها أحد يدعي عبد الحكيم ؟ أنا صديقه . جئنا معا من
البلاد ولم أره بعد ذلك قط. هل تعرفه..؟ هل تعرف أين هو..؟»
انقبت على الشع ابرهيب المقل بوايل من الأسئلة في نفس واحد.

وقف طويلا وراء النواة يحدق في وجهي كما لو كنت أتحدث إليه بلغة
عربية فجاء، بدأ يصرب برأسه على النواة وصوته يعلو بالصراخ
أوحشت منه حجة وأثناء الصراخ، سمعته ياديبي باسمي بصوت يتقطع
له القلب صدقوني أني عرف لخطتها فقط أنه هو عبد الحكيم.. اكتشفت
مهموما أن الظروف قد تقوى على إعادة رسم خريطة جسد الإنسان بشكل

لا يقدر على تمثيله أحد تصورت حينها صورة جسمي الذي لا بد أن
تلك الظروف قد غيرته. وما نظرت إلى مرآة قط بعد ما وصلت إلى هذه
الصحراء.. ولو نظرت، لما عرفت نفسي.

مكي عبد الحكيم طويلًا وهو يدعو ربه ويأدي والديه وأهله.. وما كنت
أملك حوزة له إني كان كل ما في وسعي هو أن أشاركه في الكاء مختصًا يده
من بين القصبان الحديدية ودرفت الدموع طوال تلك الليلة



أمطرت السماء ليومين آخرين ثم فتحت الصحراء شايبكها السماوية
 يستقر الشتاء وأصحت الليالي شديدة البرودة متبوعة بصاحات حافلة
 بـصـب. لا أرى حوي في الصباح حينما أستيقظ إلا غلالات بـصـب
 من لـصـب تحمي في طبعتها كل شيء بما فيها الأعمام و«المسرة» والأرباب
 وحيمة. ولا يتلأس الصاب لتصح الأشياء إلا بعد أن يدع التاسعة
 صبحاً (وتوفيني كله مـي على التحمير. وبالسبة لحيون متشرد مثلي،
 ولا رسة لمعرفة امر من وأوقت إلا ما يقترحه الخيال)..

بعد تأخرت لأعمال اليومية عن مواعيدها في الصباح وما أطول النهار
 في موسم الصيف! تطلع الشمس عند الساعة الثالثة صبحاً. ولا تعرب
 لأمع الساعة الثامنة مساءً وأما في موسم الشتاء فتكد الشمس التي بتأخر
 صوبها حتى الساعة التاسعة في الصباح تصمحل ويحل لـمـته من تدول
 بعد. تنشر العمة مع الساعة الرابعة مساءً. ولذلك، قصرت ساعات
 العمل في أيام شتاء. اضطرت أن أتمم الأعمال كلها في غضون ست أو
 سبع ساعات وهي نفس الأعمال التي كانت تسغرق حوالي خمس عشرة
 ساعة في أيام الصيف! إضافة إلى ذلك، فقد أوجبت علي شدة البرد حالة من
 الـمـسـ مع كل شيء. يتسلل البرد القارس إلى عمودي الفقري حتى في
 منتصف النهار. قد أن أصعب يدي في الماء.. وبأله من برد. لو عمست
 يدي في ماء هسهه حكت. في تلك الفترة اكتشفت أن الماء لبارد أيضاً يقدر
 على حرق جلود وذات مرة، احترقت كهي اليسرى بسب غمسها في الماء
 البارد وامتلاب بشور استصحى كما لو وضعتها في الماء المعلى.

إنما سمعت عن البرد بهذه الشدة في القطيبين ، تعجبت كيف اتحد سبله
إلى هذه الصحراء ! وليس عندي ملابس شتوية تحميني من البرودة ، كل ما
عندي هو ذلك الثوب القديم ، القميص الطويل الذي أعطانيه الأرباب في
اليوم الأول ، والذي لم يفارق جسمي بهذه أبدا.. ولا حظي بالعسيل بعده
ولو مرة واحدة.

ما عدا ذلك ، كنت عندي بطانية خلفها الشبح الرهيب عند هروبه
كنت ألتجئ في بداية أيام الشتاء . ولكنني شعرت بانزعاج سبب ذلك
خاصة أثناء الشغل مثل الركض وراء الأغنام وتوزيع الثبن والبرسيم في
«المسرات» فتوقفت عن استخدامها فيما بعد . وعودت نفسي على سر
ثوب واحد في أيام الشتاء.

حتى لدى بلوغ البرد دروته ، كان هناك شيء دافئ إلى حواري . إلا أنني
تأخرت عن اكتشافه.. الصار..! ما أروح المشي في الشتاء وأنا بين قطع
مها .! كلما أقلت الريح الباردة بصفيها ، أسرعت إلى معانقتها.. وفي
الليالي التي يلسع البرد جسمي منسرا بالثبته من بين ثقوب حياوط الطابية ،
التجأت إلى «مسرته» لأدم فيها معها.. وهكذا قصيت أيام الشتاء كحروف
بين قطع لصار.

وفي هذه الأيام ، كنت أستطع - لو أردت - أن أهرب مع عبد حكيم
مستترا بأصوات الكثيف ولكن التردد الذي معني ليلة المطر ، لم يرل مكانه
بحسبي ها.. وهو يتعطل في السؤال - إلى أين أهرب؟

لا أعرف شيئاً عن هذا اللاد، ولا حتى أين أنا الآن؟ إلى أين أهرب؟
إلى الشرق أم الغرب؟ أم الجنوب؟ أم الشمال؟ إلى أين أهرب في سيل
الحدة؟ وليس لي هنا طعام ولا ماء ولا ملابس ولا مضجع لنوم ولا أجرة
بعض ولا حياء ولا أحلام وإنما يبقى عندي شيء واحد . هو أنني بقيت
هنا . نعم ، استصعبت النقاء على قيد الحياة كيما انفق .. كيف لو عجزت عن
ذلك يص في مكان عرس أهرب إليه ! فما الفائدة من الهروب ؟

ولا شك أن المواع والخواجر تمنحنا شيئاً من الأمر والحماية . وما
سحب لي بقي شحاور حدودها . قررت أن أنتظر حتى تسبح العرصة
سنة حتى أستوثق من الوصول إلى ملجأ آمن . أليس ذلك بقرار
صحيح؟ لا أدري . أتركه إلى الله . ومن ذا الذي يقدر على تصحيح
قذاره؟!!

ومع حلول شتاء ، تأتي إلى «المسرة» شاحات بمزيد من الصأ .
وموسمها لأشهر فليس محيئ الصيف .. والصأ في الحقيقة حقيقة بالحياة
في برودة قمع الحلال الشاحنة . فتريتها في هذه الصحراء ظلمها .. وسيبع
لأرب تقرت عليها قل حلول الصيف تاركاً النقية في أسوأ الأحوال
كما شمد حر ، بكاد تموت من الحرارة داخل بطانية الصوف الطبيعية التي
تحميها . وكم يمقت هكذا ! ولكن الأرباب لا يضع شيئاً يحميهم من
سنة إلى سنة لئلا يملوا إلى السوق . حيث تتحول إلى مرقة الصأ اللديدة في
بعض المطاعم .

وبعد هي لأصبح للصحراء لأنها قوية على مقاومة الحر مهما اشتد .
وبعد يربي لأرباب الصأ طمعاً في الأرباح الهائلة التي يكتسبها من حر
صوفها .

وبعد انتهاء أيام المطر، تحولت «المسرة» إلى مستنقع للأقذار.. تولدت فيها رائحة حديد نثة، شاركت في تعفيتها رواكد المصلات والبول مع الترس والرسم اللذين وتظيف «المسرة» من هذه الأقدار كان عملاً قسم طهري واستغرق حوالي أربعة أيام.

وإضافة إلى ذلك تطفل على «المسرة» أسراب من الذباب كصيوف غير مرحب بهم منذ بداية الشتاء..! الذباب في كل مكان..! أجلس لتناول «لكتوس» فإذا بها متلعة آلاف الذباب فأوظف يدي اليسرى كمروحة دائمة الحركة لمطاردها . وعند الدحول إلى «المسرة»، يستغلني طين الذباب كأنها أصبحت وكرا للزناير.

ما أقبح هذا لدباب الناس ! أنذر منها تارة. وأخرى أهدئ نفسي قائلاً: «هي أبصا تستحق الحياة . ربما تكون «المسرة» أحب مكان إليها دعها تعيش فيها حبتها»

ولما اقترب الشتاء من نهايته، حضر لجزء صوف الخراف الباضجة رجلا سوديان ترسم على وجهيهما انسامة مملثة. ومدفعا بالسروور المفرط بقاء إسمين بعد زمن طويل، تعتهما ملتصقا بهما ككلب مطيع. ولكنهما لم يمهما أعلى ما قلت هما ولا فهمت ما قال لي . وكان يرحبان في ضحكات عالية بكل ما قلت فهي مع أنهما لم يدركا معراه.

وقد جاء في هذه المرة ملكية كهربائية لخر الصوف مع مولد لتشغيلها وكما يستخدم من قبل مقصاً يدوياً ولما بدأت الملكية والمولد يشتعلان، أحد الأرباب يتحط مصطرباً كما لو أنه رأى جثث . كان يحاف في البدايه أن تقصي الملكية تبارها لكهربائي على أعماه . واحتهد الرجلان كثيراً في إقناعه بأن الملكية لا تقتل الأعمام تبارها وكان يحاف أيضاً أن تخر الملكية

صوف الصّان فوق الحاجة الأمر الذي يؤدي إلى هلاكها من شدة الحر
و موسم الصيف القادم أو إلى ركودها دون أن نجد من يشتريها في السوق
ودون الأرباب نصف قلبه على استئناف العمل فقط بعدما أفضاه من
حلال عرص تجريبي على معجزة بأن المكسة مصممة بحيث تجز قدرًا معينًا من
صوف و دعم ذلك كله، كان الأرباب لا يزال يتدمر إلى أن ذهت، مبدئيًا
استيائه من استخدام المكينة.

وكان واجبي إمساك الصّان أثناء عملية الحز وذلك بعد القيم بجميع
لأعمال المعتادة لأخرى. وكما كنت أمسك الثيوس للإحصاء، فقد أمسكت
صّان بلجر وبحرّه مررور بين فحدي. والعملية لا تستغرق أكثر من
دقيقتين ولكن إمساك حوالي سنيانة من صّان كان عملاً قاصيًا لظهور. تجز
مكينة جميع الصوف ما عدا شيئًا قليلًا في الدبل.

«هذه طريقة حجر في بلادنا، وشعر الدبل هدية هدية للصّان لمطاردة
«دب» قد السودي وهو يتسم كاشفًا عن أسابه البيضاء»

وبعد ظهر اليوم التالي، انتهت العملية وبدأ كل كشر ومعجزة بقطر جميل.
ومع عصر، رجع السوداين سيارتهما بعد أن حملا فيها الأكياس المحشوة
بالصوف تستولي على معدهما كأنة ملاعوان لآي كنت حتمًا أتمتع برائحة
الشر حديد صلاهما.. وقد دهما تاركين إياي مع الأعتام، نزل على الحزن
كمطر هطول..

وفي تلك الأيام أيضًا تبين لي أن الإنسان رغم مكائده قل يقدر على
متنصال بدور الحياة من الكرة الأرضية كانت هذه الصحراء تنوقد تحت
شمس الحارقة على مدى أشهر كثيرة وكان سطحها المعرّش عليه درات
ترمال المحترقة حلت من أدنى حلايا الحياة. ولما هب الريح الباردة مشرة
بنتهاء أيام الصيف، افترشت الأرض المته للثوب فراش أحصر. وقع ذلك

حلال يومين بعد امطر سرعة فائقة وإذا تأملنا هذا الطلوع، يحين إيسا أن
غير الحياة بأكمله كان يجمع تحت هذا التراب متربص يوم نبت
انصار، وانساعات المتسقة وفطريات الصخور، وبعض نباتات حجولة كسنة
لا تسمى وبعض شجيرات ذات أوراق لامعة، وأسراب الطيور التي تحلق
في أرجاء السماء ماسطة أجنحتها الطويلة إلى فضاء السرور كطيور السونو
وسعاوات تطير بصغيرها، وأرواح الحمام التي تهمس إلى بعضها بهدسها .
من أين تأتي كلها؟!

تتجج صدري معرفة أن هذه الائنات كانت تحت الأرض طول أيام
اصيف بكافح رمضاء الصحراء ورياحها البارية من أجل البقاء وقد
شهدت بعيني هاتين كيف نمو تلك الائنات الصغيرة وتكبر وتزهر وتثمر
ثم تدحر حلالي الحياة للغد في رحم الأرض ولا يستغرق ذلك كله إلا أياماً
قليلة ما أشدهم أحسنها كنت أحس إلى حبسها أتحدث إليها أفصي بها
بأحرابي وهي نصفي إلي بأحرانها وقد علمتني دروساً تشجعي على الحياة.
كأن تهمس إلي يا حبيب، يا من تنهت الصحراء، كن قويا وكفح مثدا هذه
الصحراء من أجل البقاء. ستأتي عليك لساعات الشمس والرياح الدرية
تتحدث. فلا تنسلم لها ولا تستكن أمامها. وإن حاولت هي أن تحتطف
روحك فتشتك بها رقداً بلا حركة شبه ميت متظاهراً باللاشيء وأنت لست
تستطيع أبداً وادع الله وحده في سرك لأنه يراك ويسمع صراحتك. وفي السهبة
سيأتي لك يوم ترحل فيه هذه الرياح البارية وتخفف هذا الحر سيسعث من
تحت الأرض بسم الدهور يلوح لك يديه وعدها فقط ارفع رأسك بالحياة
وستحل حصورك على سطح الأرض وفي اللحظة التالية انطلق مسرعاً نحو
النجاة وأثمر وتفتح للغد

أرهفت مسامعي إلى كتاب تلك الائنات الصغيرة وانتظرت أن يحين
يومي المنتظر بصبر جميل.

رغم أنني كنت أحاف اليوم وأكرهها إلا أنه قد اتفق يومًا أن ينقدي
أحدها من فلاك ذات يوم كنت أرى الأعمام كالعادة تسلفت على
كثيب فعدت فوقه تاركًا إياها تتجول في البادية فوجئت بنفسي لحظتها
أحد إلى وضي بلا دافع مباشرة فهبت كل الشاعر الهجعة في ردهات
السمسم تمحرج كإبركان. وتناقت نفسي توفًا ملجأ إلى الهروب إلى وضي
حتى أرى أمي وروحتي ريب واني سيل وأنقي بأصدقائي وأنثني في
نربني وفي طرفاتها الترابية أشاهد سهرها وماءها ومطرها وأرضها . في
ننت لحظات، أحسست فعلًا بها يقال: إنه الحين إلى الوطن وذلك شوق
تجفف به القلوب كالصحراء شوق يجعلنا نكره واقعنا وطروف حياتنا
شدة الكراهية وفي اللحظة التالية يرى أنفسنا بلود بالمرار كيحي اتفق كخزير
يهر إلى حقل قصب السكر إذا أصابه الرصاص. ولكنها حالة نفسية بادرًا ما
تستوي علينا وإذا استولت، فلا نملك التحكم فيها أبدًا

بحثت عن الأرباب كان فوق السيارة مع منظاره ونكسي الآن حارح
بصدق بعضه انظار حيث إني أقعد على الجانب الآخر من الكثيب. ها قد
حلت فرصة الحجة حدثني نفسي أنه إن تريت الآن هلن يتحقق حلمي
نُدْ وكان لله كان يلهمني ذلك. انتصت واقفًا.. لم أفكر شيئًا . انطلقت
أجري في الصحراء وللأسف، انطلق معي يتابعني ببس كان بجانبني ولم
يصرف عني رغم أي حاول أن أطرده بأن أصره وأطعنه بعصاي . لكنني
، انتهت أذا إلى لوراء. معني من ذلك رغسي العارمة في النجدة لم يهمني

حيثها إلا بغطية المسافات قد ما استطعت لكن إلى أين ؟ ما أدري إنما
أهدف هو النجاة. والتيس لم يزل يتعني.. كاد مسطفي على الأرض في كل
لحظة.. والخوف من ذلك ضاعف سرعتي..

فحاة، سمعت من وزائني رثير سيارة اندلعت في داخلي شرارة
الخوف لا بد أن الأرباب قد راى أهرب..! فلن يلبث أن يلاحقني ليهان
علي صرما حتى يقتني سمعت من خلقي صوت إطلاق النار لكن لم
بصبي الرصاص حسن خطي. رغم أبي كنت على يقين من فشل محاولتي،
صاعقت سرعتي وما سمعت صوت الرصاص مرة ثانية حتى سقط
لتيس على الأرض بصراح عال ارتدى على الأرض وأنا تحته.. انبجس من
صدره دم مندفع كماء المصححة. تلوى جسمه من شدة الوجع انتفض قائم
ومشى إلى مسافة يسيرة ثم تهاوى على الأرض.. والأرباب قد وصل قريباً
مني. لقد فشلت. هويت على قدميه ملتصقاً بعقوه.. فحلح حرامه بجسدي
به. بكيت بكاء مرّاً أمرني بركوب السيارة. ركبت مسرعاً في الصندوق
الخشفي كحرو مصرود يش ويهرع إلى قفصه وديده معروس بين ساقبه.

قد مات التيس. حب الأرباب جسده إلى السيارة رمى به في
الصندوق وصرسي صرنة أخرى صرخت بصوت عال. فعدت
القرنفصاء في الصندوق مطرقاً رأسي.

التيس المقتول برقد بجسبي مفتوح العيين اشتد بكائي عندما تذكرت
أنه قُتل من أجلي

يا أيها التيس. من أمرك أن تلاحقني حينما قررت ؟ وأن تقاوم
بصدرك الرصاص الذي كان يستهدفني ؟ كنت نخطئاً حينما حسبت أنه قد
حال لي أهروب. أحطت حين اعتقدت أن الله يلهمني ذلك. يقع مثل ذلك

في أحيان كثيرة يدعي أن المدفوعات النصر المستعجلة هي إشارات من الله .
والله وحده يعلم متى يحين للعد يومه المنتظر . لكنه تعالى لا يطلع على سره
أحد . يسعى أب أوفى إلى طاعه الله حتى أكون من مقربة الدين بعم عليهم
برحمته . ورعم أب لم أكن على تلك الدرجة ، إلا أنه تعالى قد أنقذني اليوم .
أيها النيس ، هل تكون أمت الذي فداني به الله كما لدى نيس آخر وبد سيد
إبراهيم ؟

وقعت السارة أمام الخيمة حزبي الأرباب إلى إحدى المرات . شذني
هيب . أوسعي صرنا حتى شعت شهته . تفجرت بسبع الدماء من كل
حسمي غير أبى ما مكبت قط . ولا درفت دمة . صر حسمي على نك
لأوجع كلها . نيس لدى بحيانه حياتي . وإن مكبت بعد ذلك أو صرحت
بسبب أوجاعي ، ربما لا يغفر الله لي .

سلح الأرباب النيس الميت مسرعاً دوماً نأخير . قطعه سكيه قطعاً
كثيرة . شوها على اسار التي أوقدها في العراء . نأوها حتى امتلات
معدة . قدم بي البقي . رقصتها . صرسي مجيراً على الأكل وأنحم بي فمي
قطعة مها . كمن بكره على أكل لحم أحبه ، شعرت بالاشمزاز والعثيان
طبت أنكي لم أقدر أن أكل شيئاً مها . أقام ما دخل مها إلى بطي فتقبانه
فوراً بكمه . فيما بعد ، لم أكل لحوم العسم قط . ولم أشتبهها

طلبت ليومين مهبطاً في «المرّة» لم يأتني الأرباب بالخروج أبداً .
حرمي حتى قشرة ماء أو قطعه «كنوس» . قصيت يومين هكذا أنخرج
نصاصة . كنت أواسي نفسي بأن ذلك كله لقاء تصحيه النيس الذي قتل
من أحلي

ولما كانت الليلة الثانية شعرت بجوع لا يطاق. وعندما تأكدت من أن
الأرباب قد نام، فككت الحبال الملفوفة حولي على حذر.. رحفت من بين
الأعمام حتى وصلت إلى حاوية الماء. عت الماء حتى ارتويت. لكن
الجوع بقي مكثف.. فكتفت في حاوية الشعر بجانب ما أبقت الأعمام من
حببات الشعر المتناثرة.. جمعتها بيدي. تناولتها بشراهة. شعر طارح. !
غير مقشور ! وكان بالقرب دلو فيه ملح. أكلت الشعر مع الملح. عرفت
حينها لذة الشعر الطارح.. وشربت فوقه ماء كثير. شعت وارتحت..
نمت مع الأعمام مرتاح الال. لقد أصبحت مثلها فعلاً.



يد البحر يقترب من دروته. ما أشد هذا الحر. ! كنت أتعجب في الأيام الأولى. ولكنه كان بدياً أيام الصيف. لاحظت أن الحر يشتد شيئاً فشيئاً مع الأيام. هت للرياح المشبعة بللحات الحر.. كلما هت، أحسست أسي داخل فري.

ما تظنون أن يكون أقصى ما كنت أطمح إليه أو أحلم به أو أدعو الله به في تلك الأيام ؟ أن انحرر من هنا.. ؟ أن أحصل على شيء من الماء.. ؟ أن أخص شيئاً من طعام لديد ؟ أن أرى أسي.. ؟ أن أتصل بريب.. ؟ لا.. لا شيء من ذلك. وبما كنت رعيتي العارمة في أن أستريح هنيهة في ظل.. يجبر شدة غناء الرجل الذي أصبح الظل حلمه.. خلعت قميصي وحاولت أن أجد نحوه ظلاً بل بحثت - أتصدقوني إن قلت؟ - تحت عصاي في يدي عن حظ طيبيل أوي إليه.. كنت سمعت عن منطقة ليس بها ظل قدر حاج لعرب. وأيوم قد عشت ذلك في الواقع.

مع بداية الصيف جمعت بطايتي خيمة تظليلي فوق سريري. استعجرتُ به من شمس لمحتني شيئاً من الراحة.. لكسي كنت محروماً من الاستمتاع به. وبدأ العمل في الساعة الخامسة صباحاً ولا ينهي إلا في العاشرة ليلاً. لا أرحع بالأعدام بعد رعيها في الداية حتى يطلق الأرباب قطع «مَسْرَة». حرى ولا يتسع وقت الراحة بين الأعمال إلا لشرب كوبين من الماء، الماء مع في الخزان الحديدي. قبل أن أكمل الشرب، تبدأ الأعدام تتشر بكل بحه. إن تأخرت عنيها أكثر فستشرد في أرجاء الصحراء. وجمعها بعد ذلك أنه مستحيل. فلا بد من الإسراع بدون تأخر ولو للحظة.

ما رلت أركض هكذا حتى خرج من فمي زبد ككلب أصابه داء السعد
أنظر إلى السماء مشتكيًا إلى الله وأقول: ما هو الإثم الذي ارتكته في حقك أو
في حق والدي حتى تتركني في هذه الصحراء أتجول مع البهائم كما في قصة
الولد المذنب؟ فنظرت إلى الشمس الملهمة من أعالي السماء.. كأن الله يقول
لي: إن أيام الابتلاء التي عليك أن تجتازها لم تنته بعد.. أنظر إلى السماء أدهو
الله جنبًا في الرماد المتوقدة كأب رسول الصحراء. يا الله، خلصني من هذه
المعدة في لمرب العاحل، أرسل لي منفذًا كما أرسلت موسى إلى قومه في
سرايل، واسمري أن أتحرك من هذه العمودية

م أعدم إن كان الله قد سمع دعائي أم لا . لكن إيهاب بالله كان يحميني
ويزرع في نفسي ثقة جديدة . أنتم أيها الملحدون..! المتعمون بعيش رعيد
مفصل نعم الله التي أنعم بها عليكم.. قد نظن أن الدعاء مجرد مراسيم
وشعائر سخيفة.. لكنه بالنسبة لي هو ملاذي الأخير في سبيل المكافحة
من أجل لبقاء لقد أبقاى إيهاب قوتي الروح على الرغم من تدهور قواي
الجسدية . وولا ذلك لتلاشت محترقًا مثل العشب اليابس في تلك الرياح
النارية

تبرد الرماد بأسرع مما تسخن حتى تصبح باردة تمامًا عند الساعة
الثامنة أو التاسعة في الليل فتصير مصحقة مريحا بالنسبة لمن يريد النوم
عندها أحس بأن يسابيع باردة تنحدر في أعماق الأرض وتشرئب بأعناقها
فوق سطح الأرض لتتسل تحت حسي وبألفها من راحة .! تنسني إعياء
النهار بأكمله لا أصدق القائل إن قعر الأرض مصهر بسحوتها الشديدة
ولا من قل إن الصحراء حالة من الماء وصممت على إيهابي بأن هناك ممرًا
يحجري صامتًا تحت أطواق الرمال التي أستلقي فوقها كأسى أمام على طوف
يسبح فوق تيار حار . المفكرة دنها صاعقت منعتي ومحتني بومًا عميقًا

وبكر حادثة رهبة أنهت هذا الاستلقاء الرملي . سأحبركم ١٤.

دحت يومًا إلى «المسرة» كالعادة، فإذا بأعمام أربع قد ماتت^١ وقفت محارًا . قد رأيت تلك الأعمام تجري إلى أمس ممتلئة بالنشاط والحركة . كانت إحداها حاملًا قد افترت ولادتها.. لم أفهم ماذا حدث لها.. إذا كان ذلك سبب مرض فكيف تموت أربع معًا دفعة واحدة. ؟ يا الله، هل يكون مرضًا مُعديًا ؟ ولكن، إذا كان كذلك، ألا تسبقه أعراضه الطاهرية..؟ حرّيت مرتكًا إلى حيمة الأرباب. ألفت إليه بالخبر كيف استطعت . لا بدّني بل بلغني الإيالاتية . لا بد أنه قد تعلم لعتي ولو بعض شيء خلال هذه الأيام.. حتى ولو لم يكن كذلك، فإن تجربتي قد أثبتت لي أكثر من مرة أن المحاطب قد يفهم أية لغة إن كان في حاجة إلى فهم الخير، وبالعكس، إذا كان انتكم في حاجة إلى فهم المحاطب الخير فقد لا يفهم شيئًا في أية لغة من اللغات.

جاء الأرباب معي إلى «المسرة» فحصى الأعمام الميتة.. حاد حولها يقبها دت اليمس وذات الشمال وبفتح جفونتها الهامدة . وقت أنتظر اللحظة التي نسب فيها مسؤولية احادثة إلي، وتسط على ظهري صربة قوية.. لكن لم يحدث شيء من ذلك.. دار الأرباب حول «المسرة» يحاول كشف ملايسات الحادثة . أحد من لسيارة بحفرة . مدّها إلي . أمري بحفر حفرة. لما فرعت من الحفر، قدم نفسه سحب الأعمام الميتة إلى الحفرة وأهل عليها التراب . أحدثني دهشة عظيمة من فعله هذا . لأن الأرباب على رأس هؤلاء للحلاء . سين يعدون لدرهم واندار . وهو الذي يقر الآن أعماقًا عالية الشمس . ! ، أفهم سره قط . ولا أحري به . رجعت من هناك واشعلت بأعمالي اليومية . حسّت الأعمام أعصت الخليل بالأرباب . وشررت بصيبي منه . وساقني أعصيه لنحملان . رعت لأعمام.. أكلت «كُوسين» . كست «المسرة».

ألميت في الخاويديت اداء والشعير والتن والرسيم والملح . تكرر عاداتي هكذا . وبالسنة لي، لا فرق إن عاشت الأعوام أو ماتت.. لا أربح ولا أخسر إنما الأرباب هو الذي يحسر أو يربح.. ورغم ذلك قضيت ذلك اليوم أعاني من ألم مرير كما لو بقيت في حسمي شوكة أصابتنني كررت على نفسي أن أقول «تعيش الأعوام أو تموت، الأرباب يحسر، لا أخسر ولا أربح» ولكن فشلت محاولاتي أن أبقى على اللامبالاة . ماتت تلك الوفيات تطردني خاصة موت تلك العمرة الحامل التي كانت تستعد لولادتها الأولى . كلني تأملتها، كنت أحس بأنها تبدي افتحارها بحملها في حركاتها وبطراتها . قد تكون الأعوام تحلم غاما كالإنسان . ربما حلقت تلك العمرة كثيرًا أن تكون أمًا ترصع حملها الذي يرتع حولها مسكينة ! قد انتهى كل شيء في ليلة . هذه هي الحياة التي شيدتها بالأحلام !

أيتها العمرة المحبوبة ! إنما حيتنا هدية أهديت لنا . وليس لنا حق أن نريد يومًا واحدًا على ما حنّذ لنا من أهدها لنا.. ولا نملك أيضًا أن نعلت منها قبل أن نكم من معدات من كل ما قدّر لنا فيها . كم كان سينًا حظك أيتها لعمره ! شاءت المنشئة الإلهية أن تموت قل أن ترى مولودك . ولكن حظي أسوأ . اصبررت أن أعيش هذه الحياة الجهمية بشكل دائم . وألا أرى ولدي ولو مره . هذه هي الحياة الملعونة !

حاء الليل . أكلت الكُنوس . استنقبت على الأرض العارية متوسدًا حجرًا وعلى غير العادة، رأيت أن الأرباب يشعل السيارة . تخليت أن يذهب إلى مكان ما . يكون ذلك من حظي السعيد . استنقبت كمن لم ير شيئًا . أرهقت كافة حواسي في قصون . أحد الأرباب يدور بسيارته حول «المسرة» . كأنه يبحث بدقة فائقة عن شيء ما . بعد أن طاف به «المسرة» تقريبًا حصة أشواط أوقف السيارة أمام الحجة.. دخل إليها.. صمست كواكب الأمل التي صمعت في أفق الرحاء.. عمري عيط وحرن شديدان .

في تلك بليدة، عدد الأرباب يدور بسيارته حول «المسرة» مرات كثيرة. لم يرك قصده وما قال لي شيئاً ولا سأله. أما الأعمام فطبعاً لا تتحدث إلى الإنسان.

كنت مرتاحاً على مضحكي الرمل.. في ساعة متأخرة من الليل، صحت عن أصوات الأغنام. كانت نشغو وتتقافز داخل «المسرة». بطرت فإذا بالأرباب يركض حيران حول السياج. يناديني باسمي من وقت إلى آخر.. هيا هيا هيا انتفضت واثناً. هرعت إليه. وضع الأرباب عصي في يدي. دفعني إلى «المسرة».. وقفت مذهولاً داخلها لم أفهم شيئاً. شعر الأرباب مصاييح السيارة على استعجال، ألقى الصوء إلى «المسرة» نفوساً شوف.. شوف.. هيا.. هيا.. كانت الأغنام لا تتراب ثاغية ومتقافزة في نزعاج. أعدت الأعمام إلى الجاب واحدة بعد أخرى لأرى ماذا يجري هناك. أخيراً رأيت لمظفر. اكتشفت عن سبب نعاء الأعمام وتقافرها.. حبة انتبت بقوة حول ساق عزز. صدر مني صراح في دعر. بدفت إلى الخلف

حيثما كنت بلادي، كنت لا أقرب من المنطقة التي يُعثر فيها على ثعبان من أو ثعبان ماء على الأقل لمدة ثلاثة أيام.. وكنت أفزع بمجرد سماع أحدهم يطق بكلمة «الحية». توليت متقهقراً حارح «المسرة».. أقبل الأرباب عاصماً أقحمسي إلى الداخل ثم أقفل الباب من الخارج لا يبقى أمامي إلا أمران إما أن أقتل الحبة كيف كان وإما أن تقتلني الحبة مع الأعمام بلدعتها. بضرورة تفتق الحبة لمعت في قلبي أحلام لم تتحقق بعد لا بد من أن أكون الآن شجاعاً.. لأنني أريد الحياة.

سُرقت الخصى من الأعمام. ضربت على ساق الغنم الذي التفت حوله حبة يُقال إن الحبة لا تُقتل إذا تجمهر الناس على قتلها. أظن أنها لا تقتل نصف وسط جماعة من الأعمام.. كيف يمكن لي أن أصربها وهي وسط قطع كيف..؟ لم تقع ضربتي عليها إلا كلمسة حبيبه بعضاي

أفلت الحية محوي بسرعة وهي تفتح. حاولت العوار إلى الخارج. لكن
الباب كان مقفلاً وكمن جنّ حيونه يعمل بوبات الصرع، أمطرت عليها وبلا
من الصرب بعصي يميناً وشمالاً. كثير من الصربات وقعت على الأعمام.
ركضت داخل «المسرة» متاثرة وهي تتعوب بصوت عالٍ ومارلت أصرب
حتى اعلت نخبة المصروعه من مكائها غير أنها ربما لم تتعرض لشيء من
الصرب.

اهل علي الأرباب بالشتائم مانت إحدى الأعمام فوراً من صاعته
فقدت راحة لس. انتهت الليلة هكذا. وبعد تلك الحادثة توقفت هائثاً عن
الاستشفاء عن الرمان والاستمتاع برودتها. ورب ليلة قد نمت على تلك
الأرض العارية. ربما رحفت إحدى الحيات في إحدى الليالي لتدعي
ويقتلي فتلة شعة وقد سمعت أن حيات الصحراء ذات سم مميت، تقدر
أن تقتلي بمحرد مسها وهي ترحف على جسمي. ولكن لم تأت حية زاحمة
إلي. لا شئ أنه نحت عن طريقه حياء وحدي راقداً فيه. إن ربي الرؤوف
الرحيم قد كتب في الأرن كل شيء ولا يقع شيء إلا كما كتب وقدر
لا يرحف نعبان عاصره لك الحمد كله يا الله.

وفي صباح اليوم التالي، كانت في «المسرة» جثث ثلاثة حملان. وكان
«نبيل» واحداً منها..!

دا سألهم ما هو أروع منظر رأيت، لقلت لكم إنه منظر غروب الشمس في صحراء كان شمس في تلك لحظة سلحفاة تنسل تحت الرمال . تسير على مهن نحو أكادس الرمال لشعس في طياتها تميت مراراً أن تكون معي رب سماً عيس من هذا المنظر الرائع . صحيح أنه قد بُت في قلبي لو أن كل شيء بما فيه وصفي وبيتي وروحني ريب.. ولكنها قد تسطع في القلب أحياناً خاصة في مثل هذه اللحظات . وحيتها تتوقف بصوات قلبي.. ومن أعظم لأحرار أن ألا يجد أحداً يستمتع برفقته في اللحظات الحميلة والتجارب الرائعة . صرفت نظري عن المطر واستلقيت فوق السرير كجثة هامدة

رقدت أتصيد النوم في تلك الليلة المرصعة سيارها بالجو المتلألئة . واستيقظ وأخو مشيع عمار كثيف.. ولا توجد عوارض الرياح . وقد حبب العبد بالجو بعته كأنه جاء مسترقاً حظه.

كان مطهري حفاً مصحكاً . كأنني قد كوميدي في بعض الأفلام.. يبدو على حسمي حراشيف من غمار كثيف متراكم . بدت الأعمام معبرة نسون . اعتر كل شيء، الخيال والسياح والحاويات في «المسرات» وخيمة لأرباب والسيارة والسرير وحرم الرسم . منظر يشبه ثلوح البدان الساردة كم شهدنا في بعض الأفلام . بعصت رأسي فثار منه عمار غريب ربما يكفي مصابع الطوب . مررت أصابعي فوق رأسي فإذا بها لا تنسل تحت الشعر المتصمغ بالخبار والوساخة

لقد بلع طول شعري إلى كنفني تقريباً . وكانت لحيتي طويلة جداً
 قصصتهما يوماً بلقص الذي يستخدم لجر الصوف وإن كان ذلك بشكل
 عشوائي . تخلصت من حكة شديدة ناتجة عن عدم غسل شعري ولحيتي .
 تلبست بشرة ماسق العانة والإبط كقروح تبعث على الاشتمئزاز
 واستوطنت القمل والبق وما لا أعرف اسمه من الحشرات الصغيرة التي
 نحمسها أحقاد العمم .. ولا يأتي الليل حتى تستولي على تلك المناطق حكة
 منوصلة بعمل العرق المتلبد جراء مجهود سهار طويل .. أصبح جسمي
 مدحاً سحشرت فعلاً . كانت القمل والبق والحشرات الأخرى ترعى في
 جسمي . أظن أن الأعمام ربما كانت أظف مي بكثير ..



أم أفقر نكم! إنني سوف أقص عليكم قصة «توتشكار زَمَن». دعوني
 نصها عليكم الآن. ما عدا «توتشكار زَمَن»، فقد قمت بتسمية كل غم
 سطعت تميرها في «المسرة» بأسماء تدلّل مختلفة تسهلاً لتقريبها والتعجب
 بها. وكان عمدي في «المسرة» (أسماء) سطاء الناس في حارتنا مثل «أزُو
 رَوْتَر»، «ميري ميمونة»، «إندو بوكر»، «سَدُو رَاكهاون»، «ترب وحين»،
 «شاكِي»، «أُمِّي»، «كوسو»، «زوفة»، «بيل»، «بيكي»، «أُم»، «رسي»،
 «هر ر». صافة إلى شخصيات مشهورة في كيرلا مثل «جاكاتي» و «مورَهان
 لَان» (ممثلان مشهوران) وحتى «إي أم أس» (سياسي مشهور) نفسه كل
 واحد منهم كان محباً إلى نفسي بطريقة أو بأخرى.

هل سبق لكم أن بطرتم بتفحص في وجوه الأعمام؟ سترون أن كل وجه
 به يشبه وجه واحد من الناس! سميت أغامي بأسماء ليس فقط نظراً إلى
 تشبه بوجوه ولكن أيضاً إلى سلوكياتها أو طريقة مشيها أو صوتها أو نظراتها
 أو حادثة تتعلق بها. بالصط كما يستقر لقب ما على شخص في قريتنا.

كنت أحررتكم عن تيس نطحي يوماً نطحة شديدة وأسقطني على
 لأرض وكسر يدي. سميت به «أزُو رَاوْتَر» (زَوْتَر السلاخ) وكما يدمج
 لاسم، كان أرو رَاوْتَر في قريتنا رجلاً مشاكساً شديد الناس وذات يوم كان
 والدي يعبر حَسراً حشياً بحيلاً على جدول ماء. لا يكاد الحسر يتسع إلا
 بغير واحد بمشقة كبيرة.. ولما وصل إلى منتصف الحسر فإدا به «أزُو رَاوْتَر»
 يُقل من جهة المقابلة. تقدم مستهتراً امرأاً والدي بالرجوع. غير أن والدي

امتنع عن إطاعته كَرَّرَ «أَرُوْ زَاوُوْتَرُ» أمره مرة ثانية وثالثة.. لم يطمعه والدي وفي المرة الرابعة لم يكن أمره بالقول بل بسلطة برأسه على صدر والدي. سقط والدي مصطدماً مرفقه بحجر على حافة الجدول الذي يبلغ عمقه اثني عشر قدماً ورغم أنه تم نقله فوراً إلى مستشفى محافظة «الكُبر» داته، إلا أن يده بقيت معوجة شبه مشلولة وبعد ذلك استقر عليه لقب «مُرْكَائِي عَنْدُ» (عبد ذو اليد المكسورة). وصحيت التيس بلقب «أَرُوْ زَاوُوْتَرُ» لأنه نطحن بنفس الطريقة التي أتصور أنه نطح بها «أَرُوْ زَاوُوْتَرُ» والدي، وأن يدي كسرت كما كسرت يده جراء تلك الطلعة.

ونستقر بعض أسماء التذليل لأسباب عربية ربما لا يعلم سرها، إلا نحن فقد لا يكون وجه تسميتها مفهوماً لعبينا.

وكان الاسم «ميري مَيْمُونَة» من هذا القبيل وكانت «ميري» بطة قصة حبي الأولى. بيت حبي الأول وأنا أدرس في الصف الخامس. كانت «ميري» أشد البسات ذكاء في صفي وأجملهن وأفضلهن عاء لا حد ولا حساب للأحلام التي نسحتها حولها في ذلك العمر الصغير. بلغت القصة يوماً إلى أمي عن طريق ما.. ولا بد أن أخي الكبير «عَبْدُ»، المخادع الذي اطلع على سري بحبيته، قد ناح ها بقصتي. وكانت أمي كثيرة الضحك. تستغرق في الضحك عند سماع أي شيء بشكل يهتز معه صدرها الممتلئ.

وحدثت في قصتي أيضاً ما يضحكها. سألتني أثناء ضحكها بوجه عاس «بيدو من اسمها أنها مسيحية»؟

«لا، بل هي مسلمة» قاطعتها بحماس.

«ميري» مسلمة^{١٩} استغرقت في الضحك مرة أخرى.

فكرت حينها فقط أنها قد لا تكون مسلمة.

صاحب فوني موراً فائلاً «اسمها ميرى مَيْمُونَة. ليس ميرى». ألقيت إليها باسم خطر على لساني في الحال.

«ميرى مَيْمُونَة»...؟! طيب . سوف أزور مدرستك . أريد أن أرى الست التي تحمل هذا الاسم».

قالت أمي وهي تواصل ضحكها.

مات وادي في تلك السنة. أنهيت دراستي قبل أن تتمكن أمي من زيارة المدرسة حتى ترى «ميرى مَيْمُونَة».

وكان «ميرى مَيْمُونَة» اسماً كنت قد نسيت منذ عهد بعيد. ولكن حينما رأيت عرة حمية في «المسرة» عادت تلك الذكريات كنها إلى مقدمة ذاكرتي مرعة في أمواج متلاطمة.. أحسست بأن تلك العنرة تتمتع بكل جمال «ميرى مَيْمُونَة»

وهل تصدقوني. إن قلت لكم: إن في «المسرة» تيس بضحك مثل «حاكني» (وهو ممثل كوميدي مشهور).. وآخر يمشي متهاولاً مثل «مُوَهَانْ لال» (ممثل مشهور عرف بمشيته المائلة) وثالث يتلعثم مثل «بي أم أس»...؟ ولا تنقى عرة في «المسرة» إلا إذا غزر حليها. وكثرت ولاداتها. وكذلك لا يفي تيس إلا إذا كان يتمتع بصفات الفحولة والآن تنقل إلى المسالحي أو الأسواق متى ما بلغت حطها من النمو والذي يستعرب له كثيراً أنه إذا انتمى من «المسرة» صاحب اسم لا يتلاشى معه اسمه بل يبرر آخر بعد قليل بنفس المواصفات. وهكذا يتعدد «جَاكَاي» و«مُوَهَانْ لال» و«سَدُو ركهون» و«كوشو» و«أمبي» أظن أن الحياة قد تجسد الأحيال لسابقة في لإنسان والأعنام على حد سواء.

أعطيت لقب «بوتشكار رَمَس» للمرة التي حللتها لأول مرة يوم جئت
 ها، ومهمة اسمية أنها هي أول عمره داعبت سدها! ولم أرل أتذكر إلى
 اليوم وقعة وقعت في طفولتي. كان أحد أخوالي يروربا من وقت إلى آخر
 كنت أدعوه «بوتكر مامس» وإذا جاء، أحدي لأتمشى معه بعد العداء. وقل
 أن بحرح، يبادي على أمي ويقول لها «ما أحتي، أعطبي ربع روبية» أشري
 به حوى للولد. كانت أمي تعطيه ذلك في كل مرة.. ولكني ما حصلت
 أبداً على حوى. كان يذهب بي إلى بعض الحقول المجاورة حيث يجلس
 باستدر سوة يأنس بقص «بوتشا» (الحبش). وكانت بيهن امرأة تدعى
 «رَمَس» يعطيها ذلك النقد الذي اكتسبه بحجة الحوى مقبل أن تسمع به
 بعداعة سدها

تمنع في نفسي، وأنا أشاهد المظر كل مرة، أمل لمداعة هد «بوتشكار
 رَمَس»

«أحضر ربع روبية، فلك أيضاً حق المداعة.» قلت «بوتشكار رَمَس»

«ما عدي فوس» قلت لها. «فصربت رأسي وطردتني بعيداً»

وما كنت جريئاً حتى أطلب الفلوس من بيتي. لا شك أنهم سيضربوني
 إن سألت ذلك. وفي الوقت نفسه، لم أستطع السيطرة على رغتي في مداعة
 انهد. أخيراً، سرفت ربع الروبية من صندوق الأرز الذي تدخر فيه أمي
 بقوده. داعبت أن أبدأ هد «بوتشكار رَمَس»، وعرفت متعتها لكن أمي
 التي جمعت حساب كل فلس في صندوقها، قبضت على السارق بسهولة..
 عند الاستجواب، نُحِتْ لها بكل الأسرار مع تفاصيلها. أدت القصة في النهاية
 إلى توقف «بوتكر ماما» عن زيارتنا بشكل نهائي.. وإلى استقرار لقب «مولا
 ماما» (حال الثدي) عليه. وكانت بوتشكار رَمَس عاهرة معروفة في قريتنا.

كل ألم يخفف إذا تقاسمناه مع شخص آخر. ما أبشع هذه الوحدة..! ربح الكلمات في داخلي كسمكة فضية نحتق المشاعر التي لم أجد من تطرب إليها وهي تريد في أمواتها في العادة وتنفع إذا لم نجد أذنين سمعان أحراراً وعيبي تطلعون إلينا. وحداً يقبض بالدموع عطفاً عبي سبتهى الأمر إلى حيون أو انتحار ولعله فعل ذلك، قد يتحول نفاقون بالحس الانفرادي إلى مجانين.

يا راحة النفس، الأعظم هي حرية التحدث قدر الحاجة، ومن يحرم من ذلك ربما يموت من كثرة الكلمات التي يتلعها. كنت أيضاً سأموت كذلك بولا أن تقبأت كلماتي المبتدعة من خلال القصص التي فصصتها على أصحابي كـ «نوشكر رفس» و«ميري ميمونة» و«كوسو» و«أزو زأوثر». وما رلت أحدث إليهم أثناء الرعي والحلب وتعبئة الحريات وعلف البرسيم كأنهم من أعرأحياء، وكان ذلك الحديث حليطاً من دموعي وأحراني ومعاناتي ومشعري وأحلامي لم أكن أعلم هل تفهم هذه الدواب ما أقول هذا؟. لكنها كنت تسمعني.. ترفع إلي أبطارها. تذرف معي دموعها. وكان ذلك بكعبي

وفي تلك الحياة لمناسفة مع الأغنام، تقاسمت معها ليس فحسب أحراني والآلامي بل جسمي أيضاً ذات ليلة فشلت في اصطيد اليوم غمرتني رعة حارة بلا عوار لم تكدهأ أندأ. هبت الشهوة في كل جسمي كعواصف الصحراء كنت شبه عاخر حياً منذ فترة طويلة لم أكن أطن أب الشهوة

استعود إليّ تهبجي مرة أخرى لكنها قد عاوجت الليلة أمواجها هائلة
هصت بعد ركودها رميًا طويلًا. محاولاتي لإشباع الدات لم تردني إلا النهابًا
بالشهوة حيل إليّ أن ساء عاريات بترافض أمامي احترقت مصهرًا من
الشهوة العارمة كنت في حاجة ماسة إلى جسم أصاحه إلى عار أهول
إليه أصبحت مجنونًا حقًا قمت أمشي مدفوعًا هذا الجنون على غير
هدى وحدثني داخل «المسرة» حينا فتحت عيني المرهقتين في لصاح
وكانت «توتشكار زمين» ترقد إلى جبي ملتصقة بي.

بعدما عرفت أن عبد الحكيم لا يزال حيًا في «المسرة» المجاورة، ازدادت
وعني في ريارته شجعتني على ذلك عبي التي ناقت لي لقاء إنسان. وكان
هو الآخر أيضًا يتحين فرص اللقاء. اكتشفنا أخيرًا المدا لم نلتق إلى الآن.. كما
مرعى الأعمام في جهتين مختلفتين. هناك نلال صغيرة تحول بين «المسرتين»
وهي التي تسدل الستار على كل احتمالات لقائنا. في ما بعد، بدأت أذهب
إلى ما وراءها رأيت عبد الحكيم يرعى أعمامه على البعد.. وهو أيضًا أخذ
يقرب إليّ أكثر فأكثر يومًا بعد يوم.. وتبحني الأرباب مرارًا على هذا اللقاء،
إلا أنني استحضمت تنويحه. كاسي عيرت موقفي من الأرباب.. لم أعد أبالي
بإيذائه لظالما تعرضت له. شتائم لادعة.. صريبات شديدة.. أصبحت
معتدًا عليها.

وكان أرباب عبد الحكيم أكثر جنونًا من أربابي بكثير يقول لي أحيانًا
عن تسليات أربابه الذي كان يمتن في تعذيبه.. يصب ماء معلقًا على وجهه.
يقلع الشعر من رأسه.. يدخل حديدًا في دبره.. يركله على صدره.. يغمس
رأسه في الماء الذي تشربه الأعمام. لذلك بدا عبد الحكيم مهزوعًا جدًا عند
لقائنا لا يقول كلمة أو كلمتين حتى يفر راجعًا.

هذه عقبة أخرى . وهي افتعال السب .. وقد أُدخِلُ عودًا في شرح عم
ر أنف ديبه حتى يمر كأسًا حُرَّ حنونه . الألفه منظارًا بأبي أريد قصه .
أصره بصاعف سرعته حتى أتوصل إلى عبد الحكيم كيفما اتفق . بها يبدو
الأرباب الذي ير قسي بمطاره من العبد أنني وصلت هنا بالاتفق ملاحظًا
عما نقرأ كلمة أو كلمتين . ينتهي بها حديثنا بل سهيه بها . والفرصة لا
تسع للمريد . إذا تأخرت أكثر ، سيخرج الأرباب بالسيارة يلاحقني . تحيلوا
كم شعنا أذهب حتى نختصر الأحاديث المثلثة بها نفوسا إلى كلمات قليلة
حد . رها لا تتركون عباءه فورًا لأنكم تعيشون في وفرة من فرص الحديث
التي تسح لكم في كل يوم .



و د ب يوم كنت أقعد على كتيب دملّي ناركًا الأغنام ترعى رأيت عند
حكيم بعيد برعى أعمامه، شعرت حينها برغبة تدفعني إلى الحديث معه
قبلًا من الوقت، لكن الأرباب لم يسحب عيبه من المطار.. اشتدت مراقبته
عده لأنام وقد حذرني مؤخرًا من زيارة عند الحكيم أو محاولة الاتصال به
كثيرًا حاذر بها يمنع عن لقائنا دائمًا خشية أن نعرض الريارات المتكررة
بدور فكرة الهروب في رؤوسنا.. لكنه يحتاج شيء آخر ويقول إن الاتصال
«صعب» المسرات المجاورة قد يؤدي إلى انتقال الأمراض والجراثيم التي
قد تكون عندهم . فينسب ذلك في مرض أعماما والله!!! هذا مصحح
حدا صراحة وهل صارت «مسرنا» هي ملاذ الصحة والظفة ؟

وأدت رعني في صدري سأصبر على الصرب والشم قدر ما أستطيع..
ولكن عند حكيم المسكين لم أفعل له المشاكل ؟

ولعله سب رؤية عند الحكيم على البعد، استيقظت في نسي ذكريات
نوص إحدى اللحظات الوداد في حياتي «المسرية».. اشرأت الأشواق
كنها في ردهات نفسي ريند أمني . انسي بتي داري. أقارب
سمعت كثيرًا عن حبيب المعتزين إلى أوطانهم لكسي أتعجب من نفسي
أنني ما تحسرت على صباغ أحلامي حتى في تلك الأوضاع القاسية . ولا
يجد هذا الشعور إلا من يتوقع أن يجد أمامه محرّجًا وقد انقطع رحلتي من
سحابة من هذا لعذاب إلى الأبد. لقد أودعت في السجن واستسلمت
بواقفي سأفصي فيه هذه الحياة. لأن الميت طبعًا لا يرجو عودة إلى الحياة

رغم ذلك، حينما يعرّبي التناول بقواه العجيبة، تتعلق في دحية نفسي بدور
أمل في السحرة من هنا في يوم من الأيام.

« الله، ارؤوف الرحيم، إبتك تربي عجائب قدرتك في كثير من عبادك.
يجعل فقيراً تحول في الأسواق ثرياً في اليوم التالي بفصل الياصيب . تشفي
مريضاً أصابته مرض من مرمز فيعود ذات صباح إلى الحياة موفور الصحة. تخرج
رجلاً توقع الجميع أن يكون مدوناً تحت الناصب سلباً بدون حدث على
جسمه . تفقد واحداً بينهما يلقى مئات الناس حتفهم في حادثة تحطم طائرة
توصل مسكوناً في حادثه عرق سعية سلباً إلى بر الأمان بعد سنوات . تستشل
أحداً من بين أعضائ المساء المدمرة في الزلزال بعد أشهر.. أمثال عديدة من هد
القبيل تتحدى عقل الإنسان العادي. ألا تنعم علي يا ربي في حياتي بأعجوبة
من هذا قبيل .^{٩٠} إذا أردت أنت، ألهمت سائق شاحنة التبن مثلاً أن يوقف في
سبيلته. أو سائق شاحنة صهريج المياه أن يتفلي من هنا إلى ملجأ آمن.. بل
إذا أردت، رقي قلب الأرباب نفسه حتى يطلق سراحه.. وكل ذلك مرموز
بإرادتك ورحمتك . نظرت إلى السماوات لم تظهر على وجهها عوارض
مباشرة سوى قطع العيوم العقيمة الباهتة التي كانت تطهو مهمة عن أديمها.

وفي ذلك الوقت لاحظت تيسين يستطحان.. والتبوس أشد بأساً على
نعصها منها على أي حيوان آخر . لا يجمد عصها إلا إذا رأت دماً ينزف
من رأس عريمها. بالصط أنها مشاكسة الرحولة..! أسرع إلىهما.. فرقت
بينهما بصرب انصرف أحدهما وهو يبحر عاصباً.. وأما الآخر فأنجبه إلى..
حدد الطرقي. وسع محبريه ينم منها البار استجمع غصبه على قرنيه .
وقفت مسمراً في مكدي. فما هجم علي حتى وثبت عنه بسرعة.. تعلمت هذه
الحيلة من تجربتي مع التبوس في أيام كثيرة. والتبوس لا تهجم على العدو
بشكل مفاجئ بل تقف هية تحدد الغرض ثم تهجم.. دعوه تحدد

بعرص نألا تتحركوا من مكانكم وإذا وثبت انقلبتوا عنها لا يمكن لها
أن تعبر هدفها بعد الوثوب هذه هي الطريقة الوحيدة للهجاة من نقطة
لتبوس.

فات أجلس عرصه . انكب على وجهه غير بعيد... أحدثت حينه بصريات
صاية على وجع السقوط.. انتمض قائما كينما استطاع وركض بعيدا عني
سيت حفرة صغيرة حيث سقط التيس . تأملت فيها عثا . رأيت فيها شيئا
بالصدفة . لمعت بظلمة حوله فوجئت بعوارض تدل على احتمار حمرة في
لحمي الغريب . افترت منه في هول شديد أفرعي المنظر الذي رأيت .
انتمت إن حيث يجلس الأرباب . كان يستريح ساحتا عينيه من المطار . لا
يعود يحوم بالظلمة إلا بعد قليل.

أخذت أربل عنه التراب شيئا فشيئا.. تحققت بيران الشك التي اندلعت
في نفسي . تنفست واثبا من صدمة المواجهة . كان ذلك كف جنة متحدة
ببقية سوي عظام !! واصلت الحفر في دعر شديد مأحودا بضول لم
أستطع سيطرة عليه . ما حفرت طبقة من التراب حتى لاح لي هيكل كامل
لإنسان . كنت معروغا فعلا.. رجعت القهقري فتعثر قدمي بشيء.. كان
ذلك حرمنا جديدا قديما لم يتحلل بعد.. شعرت بأبي أعرفه . بعثت تلك
المعرفة في نفسي على رعد مجلجل مقرونا ببرق حاطف . كان ذلك الحرام في
حصر الشبح الرهيب الذي هرب من «المسرة» في الليلة الثالثة بعد مجيئي¹¹

وحدثني أهرويل إلى «المسرة» تاركنا الأغصام في الصحراء.. ألقيت تنمسي
على قدمي الأرباب أتوسل إليه : «لا أريد أن أذهب إلى مكان.. لا أريد أن
أهرب من هذا . لكن أرحوك ألا تقتلني.. لا أريد الحياة.. وأخاف الموت» .
وقف الأرباب متحيرا وأنا أبكي بكاء مريرا ولم يطلع أبدا على سر هذا المكاء

إن لكل تجربة في الحياة دروتها.. سواء كانت المرح أو الحزن أو المرض و خوع أو غيرها أود أن أسمى تلك المرحلة منهاها.. إذا وصلنا إليها ليس لنا إلا خياران، إما أن نستسلم للتجربة وإما أن نتعصم بكل قوا كمحاولة أخيرة للسحرر منها إذا نجحنا فيها نجونا.. وإذا فشلنا فلا شك أن مصيرنا إلى مستشفى المجانين إن لم يكن إلى الأشعار . يبقى أمامي الآن الانتعص الأخير . محاولاتي في البداية كانت مجرد اندفاعات مستعجلة لكفح متدنئ ليس في وسعي أن أقول. إنني وصلت إلى المرحلة المذكورة نعم بل ربما كنت أتكيف مع الواقع . علمتني تجربتي أن الأحرار ولعبادة مهم كنت قاسية تصبح مع تقادم الأيام كجبر من الحياة.. وقد أصبحت ألامي حرة من حياتي بعد ما اصطحبتني حوالي سنة في طريقي المعتم بعذاب.. لم أعد أشعر بمراراتها.

قل سوات، كنت أتعجب عندما أرى المسؤولين والعقراء البائسين والمصابين بمرض مرمس والعميان ودوي الاحتياحات الخاصة كيف يعيشون وقعهم المرير طيلة حياتهم؟! كيف ترسم الانشامة والفرحة على وجوههم؟! واليوم قد اكتشفت الجواب. ليس من شيء سوى حياتي نفسها . لا أحس اليوم بأني أعاني من شيء في حياتي.. بل ما علي من بأس في الواقع . استيقظ في الصباح.. أحلب العم.. أعلف الأعمام والجمل.. أرمي لأعمام في البادية. أرجع ها . أتناول قطعاً من «الكبوس».. أنام تحت أشعة الشمس المباشرة أو تحت ضوء القمر. لا أفكار.. لا هموم.. لا

أحلام لا أعلم شيئاً يحدث في العالم فماذا ينقصني ؟ قد سببت عذابي
وبيي ووصي لا تهمني حياتهم ولا أحرارهم ولا أمانهم . كل تلك الخواطر
أصحت عربة علي كما هي بالنسبة لبيت انتقل إلى العالم الآخر أو لمن يعيش
في زمن آخر..

أناها مرتاح.. وليست لدي مشاكل..

بدرجت الحياة هكذا جاء الصيف والشتاء جاءت الرياح
وعواصف معرة جاء المطر وإن كان يادراً . جاءت الشاحنات مرة في كل
أسبوع . جاء كل شيء . وذهب كل ما جاء . لكنني بقيت في «مَسْرَتي» مع
الأغنام . وبقي عبد الحكيم مع أعمامه في «المَسْرَة» المجاورة .. لم يذهب قط

وبسببها نحن كذلك ، نصم إلى معرلنا شقي ثالث حصر إلى «مَسْرَة» عبد
الحكيم ، فصار له صديقاً يشاركه ليله ونهاره . وجدني أحسده على الخطوة
بإنسان آخر لأول مرة . أوريا كنت أتأسف على نفسي . حصل عبد الحكيم
عن شخص يتحدث ويستمع إليه أنا الوحيد هنا في «المَسْرَة» كإحدى
الأغنام.

بدأت أكره نفسي



بعد حصول الصديق، ظهرت على عبد الحكيم تغيرات ملحوظة لم أكن أعلم اسم الصديق ولا جنسيته.. مهما كان ذلك، فقد خلق في حياة عبد الحكيم تغيرات كبيرة . ارتسمت على وجهه أحياناً ابتسامات عريضة.. وصهرت في حديثه فرحة عظيمة. شعرت بالدوية.. كان ذلك مجرد حسد. أحسست بحقد وكرهية للعالم كله. أخذت تأري من الأعمام.. صعقت بقوة على حصية الحملان المولودة حتى أحصيتها . طعت بعود في صروع العبرات المرصعة.. أدخلت العود في شروح المعاج .

في بداية . حاف عبد الحكيم أن يقرب من الناحية التي أرعى فيها أعمامي، لكن مجيء الصديق قد أمدّه بحراة جديدة بدأ يقرب مني أكثر، وإن لم يكن قريباً جداً . جاء إليّ حيث يسمعني إذا رفعت صوتي. صر به أربابه لهذا السب عدة مرات . لكنه لم يبال به.. لقد أصبح شجاعاً في رفقة صديق الحديد . وددت أن أرى صديقه. لكنه نادراً ما خرج من «المسرة»..

كـ يقوم بالأعمال الداخلية تاركاً لعبد الحكيم أعمال الخارج

وحاء به عبد الحكيم يوماً تلبية لإلحاحي الشديد . كان رجلاً عملاقاً.. ممنون العصلات.. طويلاً جداً .! أحسست في أول وهلة أنه إحدى شخصيات قصة موسى عليه السلام، ربما انحدر إلى رمسا هذا.. اعتقدت أنه باكستاني «بَظَّاي»..

تعرفت عليه.. إبراهيم الفادري.. صومالي الجنسية. شجرة سمكة نبتت وترعرعت في صحارى أفريقيا.

وقفا أمام تلك الشجرة الكبيرة كسبتين داسين (وسبب ذلك اللقاء،
تعرض كل من التبتين لوابل من الصرب).

«أب يوم، سمعت عند الحكيم يهتف بي وهو فوق تلة «أتركك هن
ورقة فقرأها» ثم انصرف بعد قليل ذهب بالأعام إلى التلة . وحدث
الورقة تحت حجر.. قرأتها.

«إبراهيم بقادري كان في هذه البلاد من قس يعرف جميع الأماكن
والطرق يريد الهروب يرحب سا مسحرك بالمريد فيها بعد . فتوكل على
الله العظيم»

المجر في داخلي بركان السرور بأي كسمة يمكن أن أصمه لكم. ؟ كان
كرهرة تفتحت فجأة في الصحراء كدبت عليكم حينما قلت. إسي سبت
بني ووطي كذب حاصر كان في معكرتي كل شيء كان يجنيء في
مراديب نفسي لكن الظروف عمرتها برمادها.. لم أكاد أفكر في سوح فرصة
حتى اشتعل هاسها.. أحسست بأنها تخلق وحقا في صدري شعرت بحرق
مرهق يعمر جسمي مرطت بالسكا.. عانقت «ميري ميمونة» التي كانت
بحبي قنينة قلت ها «أبي راحل يا حلوة حبيبي أروح ولك
رحاب كثيرين مثل «أرو راوثر» و«مور واسو» وليس لي إلا زيب.. وليس
ها إلا أنا أنا مشتاق إليها وهي أيضا تشتاق إلي».

سجدت شكراً لله على أنه حماي وسمع صاحاتي وأرسل لي إبراهيم
بقادري رسولاً منه ليفدي من هنا الله أكبر! الله أكبر!!

ما أشد ما كان فرحي في ذلك اليوم ! وما أشط ما كنت في أعمالي ! لا
بد أن الأرباب قد تعجب مما أصابني ذلك اليوم

«يا أيها الأرباب، اعلم أن أيامي هنا معدودة . لا يبقى لي إلا قليل
أنا مسافر في القريب العاجل فابحث لك عن أحد آخر تشتمه وتجده

محرامك وتنصق في وجهه.. سأرحل تاركاً إياك وحيداً مع هذه الأعمال
بشافة التي سصيق بها درعاً عند ذلك ستعرف قيمة نجيب.

تمست أن مع الفرح المنتظر في الساعة . لكن ما وقع شيء في ذلك اليوم
نظرت بهار ع الصبر في اليوم التالي . وقد ازدادت رجاءً . لكن اليوم نصرم
دون أن يقع شيء . جاء اليوم الثالث.. كان الرجاء باقياً وإن تصبأت كثافته .
ولا استعجس م يرح مكانه . ومع الأيام ، أخذت أمواج الرجاء تتراجع شيئاً
شيئاً ثم تحولت إلى لإحباط الشديد وكراهية الذات . كرهت كلا من
إبراهيم القادري وعمد الحكيم.. حادعان لم يعبا بعدهم.. بقيت على تلك
تكراهية على مدى يومين وبعد ذلك ، تعفنت في النفس بذور الشك أنهما قد
غريا . وتركب ها وحيداً لم أكن أطيع حتى أن أفكر بذلك انتقاماً منها ،
صممت على لا تنحار يوم يتحقق شكى.. وفي كل صباح كنت أتطلع أثناء
الرعي إلى حبة «مَسْرَتِها» بكل رجاء . عندما علمت أهم هناك أحسست
براحة تشع صدري.. راحة المعركة أنني لست وحيداً.

بعد ذلك استسلمت للفكرة أن الله تعالى قد قدر لي هذا بمتحني
يوم أرسل رسولاً يرغسي ثم يخدعي دعه يستهزئ بي ويخدعي ها
هو ذا بحب عرصة لكل شيء.. يا الله، ما كنت أظن أن تفعل بي هكذا
نطمت إلى الله تحميقاً عن نفسي..

جاءت بعد ذلك أيام اللامبالاة.. تبين لي أنه لا ينفذني من ها القادري ولا
«نُردري» (كلمة محرفة للسحرية). وقد قدر الله علي أن أعيش ها حتى أموت
في الهدية، عدت إلى حياتي العادية.. أيام خالية من الرجاء والأحلام..
بانصط كالإنسان الماعز..!

وقع ذلك أخيراً في يوم غير متوقع. فوجئت بعد الحكيم بقل إلى مسرحاً
هو بسوق عسى

ولدينا أمر بعد عد، كن متأهلاً له! قال ذلك ثم عاد يجري. كأن يلتقي
مرة في عسي ما هو الأمر...؟ ماذا عسى أن يكون؟ كأن هناك إشارة
مسرعة في قوله «كن متأهلاً».. أصابني خوف شديد

فقدت الرعشة في الهروب إلى أي مكان الأعمام التي ترتت في قصص
معلق سرعان ما تعود إليه إذا أطلق عساها. بالضبط كنت في نفس الحالة.
نبي أذهب وأن هذا المظهر وفي هذه الثياب؟ إنما أنا ماعز قدر لي أن أعيش
في هذه «أسرة» ربما إلى نهاية الحياة.. أو حتى يقتلني مرض مبكر. لا أحب
أحدًا أن يرى مظهري القبيح ووجهي المحيف.. وحياتي المقررة. إنما أنا
لإنسان الماعز..

ماذا حدث لي؟ كنت أنحين لهذه الفرصة. ولما منحت، أتردد متعبراً عن
اتهردها...! تحفي الحياة كثيراً من الأمور المتصارعة.

مضى يومان ولم أحضر شيئاً للسفر.. ما شعرت بنشاط لعمل شيء.
وكم من مرة جهزت عسي متأهلاً لفرص هروب عديدة وكان حظي فيها
حيثما أن أنتحب في النهاية كمعروس تراجع عريسها عن لروح بها في ليلة
الرفاق.. كرهت أن أتربس لرفاق آخر.. ولم تخشي حتى المساء أية إشارة
تشرى بـ احتمال وقوع أمر ما.. لعنت عبد الحكيم الذي يرقص على أعمام
ذلك الكذاب الأفريقي، إبراهيم القادري.

وبدأ اقترمت الساعة الخامسة مساءً، دعاني الأرباب إلى الخيمة على غير عادته ولدهشتي، رحب بي إلى الداخل.. أكرمني بالمجلس.. ثم قال..

«لماذا جعل رعاك ست الأرباب الكبير.. لن يكون هذا اللبنة . عليك أن تحرس الأعيان ماهرًا . قد نأني الثعالب والثعابين وحتى اللصوص فعليك بها جميعًا . وفي الصباح، سأحضر لك «الكتوس» والكسة والمجوس تمام؟ أنت حادم أمين . وما وجدت عملاً أحسن منك.. ما كانوا يحصلون في عمدتهم ونكث طيب.. أنا أحك والله بحفظك».

سمعت كنيته وأنا أهر رأسي بالسمع والطاعة هذا هو الأمر الذي أحبر به عبد الحكيم ! وإن كان كذلك فاليوم يومي المتطر . ! دغرف قلبي بين صلوعي من شدة السرور كحياحي فراشة غير أبي لم أظهر ذلك.. خرجت من الخيمة متظاهراً باللامبالاة . وكنياته تلك هي كل جراني مقابل الأعمال المصيبة لتي قمت بها طوال هذا الرمن.. نعم، فقط تلك الكلمات.. لم أحصل على شيء آخر.

في الليل وصلت سيارة برل معها رجل لم أره من قبل بياض ثوبه وطاقته شجعني على النظر إلى نفسي.. ما أقدر ما كان المنظر..! كأسني ثمثال بحسد للأقدار..

ركب الرجل والأرباب السيارة وساروا بعيدًا. امتلأت بنشاط عريب لم أتمتع به حتى اليوم. فرحت كطفل مسحت له فرصة لعب غير متوقعة حين ذهب والداه إلى زيارة بعض الأقارب.. من فرط السرور جريت حول المسرة وأنا أرقص وأرفع صوتي صاحياً صاحكاً.. انطلقت أجري إلى مسرة عبد الحكيم كان هو الآخر في عطة عارمة . ما رأي حتى أسرع إلي يعانقني ويقبلي.. بكينا معاً ونحن نتعانق قال في صوت أليم «يا أخي.. أشتاق إلى

مي اشتد، و أبي اشتد إلى أحتي «شاهنة» . يا أحي .. لقد بلغ السيل
الرس، وم بعد بي قدرة على تحمل المزيد...».

«يطبق ديث يا سني تطبيق كل شيء إن شاء الله. أوصلا الله إلى هذه
مرحلة ولا يبقى أماما الآن إلا ساعات معدودة. كن جريئاً . والله
مع » حاولت أن أواسيه وأنا أرئت على خده.

ذهت إلى إبراهيم الذي كان جالساً على سرير. سألته في وله «الا
سحرك »

نظر بي مثلاً برأسه .. اتسم لي كاشعاً عن لثته ابتسامة طعل بريء . ثم
قرب بي وهو يرئت على كتفي «اصبر يا نحيب قليلاً كما صبرت إلى اليوم.
دع الأرضين يصلان إلى مسافة يستغرق الرجوع منها وقتاً طويلاً ولا تس
أنت نمشي على أرجلنا . فارجع الآن إلى «مَسْرَتك» سبدي عليك عند
لدهاب...».

كدت أيام أساساة السوداء تقرب من سهايتها .. سأتحرك من هذه الرربة
لا أدري ماذا يتصرف في العدة . مهما كان، لن يكون أسوأ مما فيه .. أن متأكد
من ذلك...

لث الحمد كله يا الله . ولك المجد كله . وأنت أرحم الراحمين !

قررت راجعاً إلى «مَسْرَقِي» كانت حقيتي على السرير تحت الوسادة .
صارت مهترئة من تعرضها الطويل للشمس والمطر والبرد والعواصف .
كأن عمار القرون قد تراكم عليها. حاولت قدر استطاعتي أن أنقص العمار
عنها وأفتح ستحها . لكنه لم يتحرك .. بل تمزق سطحها بعض الشيء بسب
صراعي معها . انبعثت من داخلها رائحة نثة ما فتحتها على مدى هذا
المر من المديد . ولا دعسي إليه حاجة . ومارال فيها «الأنشاز» الذي رودتي

به زينب مع حبها.. غير أنه تحول إلى شيء مجتنب يابس لا تُدرك ماهيته..
في البدايه، كنت أسوده مع «الكُتوس». فيما بعد، بدأت أخشى أن يتسبب..
لأن نميت أن نشئ راتحة ريس ومحتها معي دائماً.. احتفظت بالباقي في
حضي وفيما بعد، ربما بسبب أمرها مع انقطاع رجائي من لثاتها.

كنت أعلم أن في الخفية قميصاً ومظلياً فصلتهما محددًا قيل السفر
إلى الحليح، استخرجتهما تعجبت هل تعمل الصحراء أحياناً كحيوان
قارض.. صارت الثياب رثة محرقة غير صالحة للاستعمال رغم أنني لم ألبسها
ولا مرة.. كان ذلك يعمل رياح الصحراء التي هي أقوى في التآكل من
ملح البحر فكم تعرضت لتلك الرياح وأياها على مدى هذه السنوات
الطويلة! تفكرت مدهشاً وليس عندي شيء أخذه معي.. سأرجع صفر
اليدين.. رميت حقيقتي بعيداً.

نَدْتُ لأغرم مرعجة داخل «المسرات» كأنها استشعرت رحيلي.. دخلت
عليها جاءت كلها تنصب حولي بوجوه ارتسم عليها سؤال متلفف: «مر ل
بعدك؟» دنوت أكثر من تلك الأغنام التي قد لا أراها في الحياة مرة أخرى.
«أستأذككم يا إخواني الأحياء.. إذا بقيت ها على هذه الحالة سأموت
لاحقاً. لا بد من الهروب. ليس منكم بل من أقداري. أحب كل واحد
منكم ولولا أتم، لقد مت قبل زمان.. ولكنكم أحييتوني بحكم لي إلى
اليوم سأذكركم وأظل أحبكم حيثما ذهبت.. لأنكم إخواني.. كنتم معي
في أيام المأساة. أرسلني الله إلى هذه «المسرة». وهو اليوم ينجينني منها..
أدعو الله تعالى أن ينجيكم أيضاً من هذا الحميم.. أيها الأغنام، وداعاً لكم يا
أحبابي وإخواني بل قلدات كبدي...».

أنت لأعنام إلى حبي واحداً نلو آخر.. كان «أزور زاور» في مقدمتهم.
 رثت على حده وبصحته قائلاً «عليك أن تتعامل بلبس الجلب مع الإنسان
 حتى خط ادي قد يأتي (لا سمح الله) بعدي.. فلا تصارعه . ولا تكسر
 به» «شهر رأسه».

نت ثاية «توتشكار زمن» وهي تكبي. أنكسي سكاءها. وأنت بعدها
 «ميري مينويه» نفسها وقتلني طلت منها أن نصح حبها المتقي لم يجيء
 عدي أصرفت حربة. ثم أتى «أبد بوكر» و«أدو زاكهاون» و«أرب
 وحين» و«شكي» «أبي» «كوسو» «روقة» كلهم أتوا.. ودعنتهم
 هيب

بحرطت في سكة حين دخلت إلى «مسة» الصغار . كنت لهم مثل
 دابة تودع رصيعة ولد على يديها بلعننها الأخيرة قبل المغادرة أعب هذه
 حملان وندب على يدي كنت أمما لهم مديوم ميلادهم.. أنا الذي علمتهم
 وأعطيتهم حبب أمهاتهم. تذكرت لحظة «بيل» . احترق قلبي لعقدانه..
 احتضت «بكي» و«أم» و«رسي» و«تاهرا» عاقنتهم كلهم لكنهم لم
 يتقصوا كما هي عادتهم كلما حاولت إمساكهم.. بل التصقوا بأحضي.
 ويصدري الدافى.

«أسني» أعلم جيداً كيف يكون مصيركم إذا كنتم. لا شك أنه إلى
 مصالح الأسواق أدعو الله أن يقويكم على مواجهة ذلك المصير الأليم
 ولا يمتد سوى الدعاء بحب المسكين أضعف حيوان فوق الأرض..
 خرجت من «المسة» وأنا أبكي.

دخلت إلى «مسة» الحمال بدت كأنها حزينة لمرقي والخيال لم
 تنسب لي مشاكل كثيرة كانت عادتها أن تذهب وتعود لوحدها.. وإنما كان

واحبي هو علمها بالرسيم ومسقاتها الماء عند رجوعها . وكان ذلك كافياً
جداً لاكتساب حها . والآن، علمت من تعابير وحوهرها مدى حها لي
وتفاهها معي فاصت عيوبها بالحب . نكيت معها . وعانق بعصا بعصا .

ليس لي هـ ،سان أودعه . أنتم كل الناس لي . أنتم الدين شجعتموني
على الحياة طوال هذه الأيام . امنساي لكم شديد بعد الله تعالى . . نكيت مرة
أخرى .

العراق ألهم ولو كان من ظروف قاسية . تملكني الحزن الشديد حتى في
خطات السحاة التي ينبغي أن يمتلئ فيها قلبي بالسرور .

سمعت عبد الحكيم بنادبي من بعيد . . خرجت من «المسرة» . تعالى ثعاه
الأعنام كلها معاً بالصراح . لكسي لم ألتفت . ولو فعلت، ربما لم أرحل من
هناك . كان عبد الحكيم وإبراهيم القادري بانتطاري في الطريق . اطلقا إلى
عالم جديد . . وإلى حياة جديدة .



عدو طول الليل مطبقين أرجلنا للريح كأننا نهرب من حريق ندلع
 ن سماء نأكملها لم يكن هناك طريق معتد إلى «المسرة» سوى ذلك الدرب
 الرمي لذي مهدد المرور المتكرر للسيارات التزامنا به حتى لا نصل عن
 الأنجاء نصحيح.. ولم تكن تعلم إلى أين يؤدي ذلك الطريق الذي يحتمى عن
 النظر وراء بعض الأودية بعد أن مر متعرجاً بين خواصر التلال الممتدة على
 مدى أبصار! ولم نر وراءه إلا دحاناً يعلو من السيارات الدارة ورعم ذلك،
 عندما أن الطريق سيصل في النهاية إلى طريق رئيس وإن لم تكن نعلم كم
 بطول بنا إلى ذلك.

كان بقمر مسيراً جداً في تلك الليلة، الأمر الذي سهل علينا الفرار. حُيِّلَ
 إلينا أن الله تعالى لا يرال معنا أمراً أرضه وسماواته أن يجذبوا علينا هربنا
 طول الطريق بلا كلام ولا حتى لمحة إلى بعضنا بعضاً. حارب وجرب..
 لكن لم يبدو أننا وصلنا إلى مكان آمن. خفا أن يكون وراءنا أحد لا يزال
 يلاحقنا. اتهمنا حتى أزيز الرياح بأنه ضجيج سيارة الأرباب. وبذلك،
 صاعداً سرعتنا في كل لحظة

طلبنا العدو هكذا وقتاً طويلاً حتى رأينا الدرب الرمي يتفرع إلى فرعين،
 فرع إلى اليمين والآخر إلى اليسار. وجدنا أنفسنا أمام مُعضلة الشك أيهما
 سيمودى الطريق الرئيس بعد تردد ومناقشات استعرفت كثيراً من
 الوقت وجهد، قررنا أن نتوجه إلى اليسار.. واصلنا العدو بعد مصي كثير
 من الوقت، لاح لنا على البعد مصص صوء. لما ذكرنا النظر عليه تبين لنا أنه
 سيارة تشق طريقها متباطئة متأرجحة.

شعرت بأنها شيء عظيم يرد قلبي. حدثني بصي «قد اقتربا من الطريق الرئيس طريقا إلى الحجة الهائلة» لحظتها، فاحأيا إبراهيم يسحب ويحشا وراء كثيب. كانت السيارة متوجهة نحويا. لا يريد لأن أن مكتشف خطأ. ربما يكون فيها الأدب نفسه. أو أحد معارفه من العرب وإن كان كذلك فلا يلبث أن يجد أنفسا برل من سيارته أمام قاعة حفل الرفاف. اتعد عن الطريق محتشين وراء الكثيب زحمت السيارة تحتار سطا. كانت شاحنة صغيرة قد سارت بعيدة عما. وعلم أن سائقها كن «التظا» الذي يحصر الش إلى «مَرْتَا». «وا»، إنه يعرفني. ربما أنقذ «لأن» قال إبراهيم واصبا على صدره في تحسر. جرينا وراء السيارة وأصوت تملو بالصراخ ولكنها كانت قد اتعدت عما كثيرا حتى قل أن يصل إلى الطريق

ما أشد إحساسا بالكآبة وخيبة الأمل من فرطها لعنت بصي وخطي.. ومن أشد حسرة من رحل مجرم من خطه السعيد بعد أن رآه نصب عينيه. ١٢ من العصب المفرط تعمدت أن أفلع شعر رأسي وأصمغ على صدري.

اما فات فات، لن يعود وليس في التحسر أدنى فائدة هيا نستظر سيارة أخرى «افترح إبراهيم القادري قريبا أن يقف هياك بانتظار سيارة أخرى.. لعلا يلقى معها خطا أسعد. وقفنا طويلا بكل رجاء نمند أمما الصحراء الميتة المقفرة دعوت إلى الله بقلب مصهر يا الله، أهيم أي سائق أو أحد أعرفه أن يأتي إلى هذا الطريق». ولكن ما وصلت سيارة في ذلك اليوم..

وما كان في وسع أن نترك أنفسا هياك وقتا طويلا حتى مكتشف خطأ السعيد. واليوم حننا أندكر ذلك، أفكر أنه كان بصي علينا أن نستظر هياك أطول.. لكن حالتنا في ذلك الوقت لم تكن تسمح لنا به. طيب أن الانتظر

هو أحق السماء به وعلب أن نصل في أسرع وقت ممكن إلى أبعد ما نستطيع..
إذا جاء الصبح، تأتي أشعة الشمس تسمر عن مخاض الأرض. فلا تترك لنا
مخاضاً على سطحها.. وسيخرج الأرباب في الصباح حاملاً مدمه ومطاره
مرعداً من يعود إلى «المسرة» ليحاحاً بعدم وجودها فيها. ولا شك أنه
سيعثر على أسيا كما في الصحراء. فلا تكون نهايتنا مختلفة عن مهابة الشبح
برهب. فأحد كل الخيطة حتى لا نتج له فرصة لذلك وقد عرفنا على
الحياة.. فلا نتراجع عن عزيمتنا أبداً..

واصلت بقرار ودعوي هذا أقول لكم شيئاً. إذا كنتم حقاً أمام أنياب
خط نعيم من تأثروا بالأفعال العمية. هذه حقيقة عرفتها من تجربي ولو
كأن يفكر بعقل سليم، لفررنا باتجاه السيارة. لكننا قررنا في الاتجاه المعاكس
من مرط الحيرة. وكنت هذه السماء دليلاً مطلقاً على أن العز والخيبة قد
نحمر عقولنا واليوم، أطمئن إلى فكرة أن ذلك كله كانت مكتوبة على سابقنا
في هذه الحياة وإسما كنت استعجل قدرتي..

فررنا ملتزمين بحافة الطريق بأسرع ما نستطيع.. لدى الأرباب سيارة
وخرج نحري على أرجلنا. يقدر أن يعطي في خمس دقائق مسافة يحتاج
تعبئتها إلى ساعة كاملة. لا بد أن يصل هذه الليلة أبعد ما نستطيع.
حتى يلتحق إلى مخيم آمن. وفي تلك الأثناء، اكتشمت أسما ما كنا وحيدتين في
«المسرة» في تلك الصحراء بل هناك «مسرّات» أخرى وإن كنت بعيدة
عن «مسرّات» لا بد أن فيها أشقياء مثلاً يسهرون حرساً على الأعمام رأينا
بحساب الطريق «مسرة» أو «مسرّتين». وكان ذلك أيضاً خطراً مهدداً لنا..
لأنه لا يعقد طمناً في هذه الليلة رفاف بات أرباب «المسرّات» جميعاً.. فلا بد
أنهم موجودون فيها وإذا رأنا أحدهم سيهمهم أسما هاربون وإن كان أعمى..
هكذا كانت هيئت وحيرتنا. ولذلك قررنا بمعزل عن الطريق. وكانت هناك

مشكلة أخرى. صوء القمر الساطع كان يكشفنا. سيرا بنا حتى العبدع
لأب الآن لا ترال بركض في أراض مستوية السطح ثلاثة أشباح مرعة
هينة ولا يطر أسا من حن الصحراء إلا من كان يحاف حتى من طه
زلبا نمر مستترين قدر الاستطاعة نحواصر التلال والكشاش ولكن ذلك
أدى بنا إلى خطر كبير..

وصلنا أمام تلة كبيرة. تسلقناها.. كانت المصاحاة عذما انحدرنا منها
مسرعين وجدنا أنفسا نتجه إلى «مسرة» في أسفلها. رأنا أحد قس أن
يقدر على الاحتباء علاوة على ذلك، حط عبد الحكيم باخطأ أثناء العدو
رحلا كان يستلقي على الأرض.. انتص الرجل قائما فوجئ بأشباح رهبة
تعرى جسده أخذ يصرح بأعلى صوت. «اللمص.. اللمص» ما كان الرجل
وحيدا في «المسرة» استيقظ على صراحه رملاؤه من «حيوانات مسرة»
انطلقوا وراءنا مسرعين ليفصوا علينا. أطلقنا أرجننا إلى الريح. سمعنا
أثناء ذلك صيحات بالعربية، ربما استيقظ أربابهم أيضا على هذا النصح.
لم نزل نمر هكذا حتى دفعني أحدنا في ظهري دفعة شديدة أكتنني على
وجهي. سمعت اللحظة صوت الرصاص من الخلف.. لولا أن انكبت
على الأرض، لاحترق الرصاص ظهري حتى يجرح من صدري.

«لا تفوما»، أمر إبراهيم ونحن نستلقي ملنصقين بالأرض فوجئ
هؤلاء الذين كانوا يلاحقونا بأن الأشباح الثلاثة قد اختفوا عن أنظارهم
توا. وقعوا في حيرة من أمرهم. ربما اعتقدوا أننا من الجن حقًا. أحدها
نرحف على لأرض نحذر. أما هؤلاء فتقدموا خطوات قليلة ثم انصرفوا
بعد أن أطلقوا الرصاص إلى كل الجهات الأربع دونما عرص.. استمررنا
نرحف إلى أن احتشأنا وراء تلة أخرى وما واصلنا العدو إلا بعد أن تأكدنا
من رجوعهم.

و نشاء لعدو، شكرت إبراهيم على ذكائه المتوفد وإثاره حين أسقطني على
الأرض في تلك اللحظة الحاسمة. لكنه أبدى استعراجه متسائلاً: «أنا...؟! ما
كس ورياء منك حتى أدفعك يدي. وفوق ذلك، لم أتوقع رصاصاً في تلك
لمحة. رب دفعك عبد الحكيم. ولكن عبد الحكيم يعني هو الآخر قاتلاً.
لم أدفعك، بل أفكر من الذي دفعني أنا..» فمن بعد؟ نظربا إلى بعضنا
بعض، حصص فقط تبي لنا وجود خفي لرائع معنا في هروبا. كانت عبي
يصر بالدموع من قرط الشكر..



لم يزل يهرس ساقطين وباهضين، متعثرين وقافرين، عابرين كئيباً وتلاًلاً
بسهولة ووداداً. أو شكك الصبح أن ينلح حبسها أمينا العرار بأرواحها
تجاريب أصعب الرصاص. وكان ضوء القمر قد تلاشى في أعوار العتمة
في وقت من الليل. رعم ذلك، ما رلنا نركض في تلك الصحراء الفاحلة
تجاريب كان عند الحكيم أول من وقف «كفاية.. لم أعد أطيع.. دعنا
سريع قبلاً» «قد لاهثاً ثم سقط على الأرض

تبقينا لما قد قطع مسافة نأقنا من الوقوع في قصة الأرباب بسهولة.
في ظل ذلك الاعتقاد، جلست أيضاً على الأرض. ربما لم أكن أجلس بل
مهوى على الأرض منهوك لقوى. والالم الذي كان يعصر رحلي بدأ يدب
في أعلاها. كنت أعتك ككعب أكمل شوطاً حول العالم. جف الخلق حتى
بي لساني أن يطق ولويكلمة. مضى قلبي بشدة حتى حفت أن يخرج من
المص الصدر في كل لحظة.. تعششت في عيني العتمة.. ما جلست قبلاً
حتى أحب علي نفسي في الاستلقاء، غير مال باحتمال اعتراض ثعان أو
عقرب استنفاء واستراحة. لم أحتج إلى شيء أكثر. تمددت على الرمال
مشور الأطراف.

أوحى تعابير وجه إبراهيم أنه لم يصبه شيء من التعب.. إما حنس إلى
حوريا كمن يجلس ليتلقى نسيماً حقيقاً بعد عمل يسير.. استلقيت أنا وعند
الحكيم أمدم قوته العظيمة ككليين ملتصين حول جسميهما في هيئة مستديرة

طلعت الشمس انتشر الصياء.. كأنها شمس الحرية التي تبشرنا بحياة جديدة. صحت على بدء إبراهيم وأنا أحث عيني.. كنا قد استغرق في نوم عميق في وقت ما من الليل. خطر لي لحظة أنني الآن في «المسرة»، وأن الذي أبغطني هو أرابي.. فتحت عيني ولم أجد أمامي «المسرة» ولا الأعمام ولا الخيال ولا الأرباب ولا الخيعة.. كان عبد الحكيم يستلقي إلى جسي مستديراً عدت إلى واقع الخال مسرعاً وهررت عبد الحكيم أوقفه.

«يا عبد الحكيم، هل تعلم أين نحن الآن؟ قد خرجنا من الجحيم وانتهى العذاب.. أحرار نحن من الآن.. لث الشكر يا الله، يا رب السماوات والأرض، ليس أوسع من رحمتك، ولا حدود لحبك..» بكيت وأنا أنظر إلى السماء.

عدت أهز عبد الحكيم بقوة. لكنه تقلب على الحاسب الآخر معداً يدي عنه. ربما يستمتع الآن بحرية اليوم ملء عييه بعد زمن طويل. تركته ينام تلمت حوي وأنا أفحص اليوم عن ظهري وأطرافي لم أر إلا تلالاً وكتباناً منتشرة في مساحة أرضية واسعة تمحجر العين عن الرؤية إلى ما وراءها بحثت عن إبراهيم لقادري. كان فوق كثيب ينظر إلى الأبعد

«يا إبراهيم، هل ترى طريقاً من فوق..؟» ألقيت إليه السؤال. ما كان حواء إلا أن لوح بيده يناديني. دفعني حب الاستطلاع لأرى الأعجوبة التي تنتظرني صعدت فوقه أدهشي المطر فعلاً صحراء الصحراء شاسعة. اتتد مد البصر إلى البمين وإلى اليسار. وإلى الأمام وإلى الخلف بحر متموجة من الرمال تمتد من الأفق إلى الأفق. ولا شيء يحول البصر. لا شجرة ولا نبتة ولا جبل ولا.. ولا شيء..

عدها فقط تصورات المطفة التي وصلنا إليها تصورًا واقعيًا.. لم تكن
 أبية.. بارحة غير أهية.. ما بأنها لم تعد تجري على أرض صلبة وأحدث أقداما
 معرس في الرمال الباعمة.. أصاصي رعب خفي زحف إلى كتفان عظيم .
 ضرب إلى وجه إبراهيم.. كانت الحيرة ملحوظة عليه.. أما عبد الحكيم فلم
 يكن حائرًا قصه، لأنه لم يزل في سياط عميق. نظرت أنا وإبراهيم بعضا
 إلى بعض.. يا الله، إلى أين وصلنا..؟ من أية جهة حثنا؟ وإلى أي وجهة
 سحبه من هنا؟ أين تقع المدينة التي خرجنا نبحث عنها..؟ في الشرق..؟
 في غرب..؟ في الجنوب؟ أم في الشمال..؟ إلى أين يذهب حتى نصل إلى
 مقصد..؟ من ذا الذي يدري..؟ ليس حولك إلا الرمال والكثبان منظر
 حلاب كدوحة قبية تلهم حبالتي لو كنت أراه وأنا في موقف آخر.. ولكنه
 لأن يدوي كسحر هائج مرعب لا يكبني لعبوره رورق صغير.. بل
 حثج.. في سفة كبيرة.. يا الله، لا ندري كيف يحترقه وليس عبدًا شيء من
 بوسنل؟ إلى متى يطول السفر وليس عبدًا قطرة ماء ولا لقمة طعام..؟
 من نصل إلى بر الأمان قبل أن يرتفع النهار وتنث عليا الشمس لمحات
 خر؟ يا رب، أنت الصاحب في السفر.. ويعود بك من وعثائه ولا راد لنا
 لا نوكنا عيبك

قلت: «يا إبراهيم، كما نمر البارحة إلى العرب.. أظن أن الأحسن أن يلتزم
 السوم أيضًا نفس الاتجاه.. ستوصل إلى طريق عام بإذن الله..» مشى يمنة
 ويسرة في حيرة دون أن يجيبني.. وبعد تفكر استغرق كثيرًا من الوقت، اتخذ
 القرار هو نفسه، وقال: «أظن أنه تقع في الشرق أقرب مدينة إليها، هيا مذهب
 إلى الشرق»

أيمط عبد الحكيم.. قام باصطادات الرمال عن جسمه.. لاحظت حين
 ذلك شيئًا.. ابعثت من جسمه تلك الرائحة السة التي اخترقت أنفي في أول
 يوم وصلت إلى «المسرة».. فيما بعد، أصبح أنفي عاجزًا عن تميرها.. والآن،

عدت أميري بعد أن رحلت عن «المسرة» ربما كنت أيضًا أحمل تلك التثانة
لكسي أخذت وقتًا أطول حتى أحسست بوجودها بجسمي.

أحدنا نمشي لخطات تستحق أن تطير فيها من شدة العرج . أخيرًا قد
تحقق حلمنا . نجوبًا.. ربما يكون الأرباب قد عاد الآن إلى «المسرة». وحصل
بحث عا . ولا شك أنه سيُجرّ حين يعلم أننا نحن الثلاثة قد هربنا معًا في
آن واحد. إلى أين يكون قد نوحه بسيارته؟ مهما يكن ذلك لقد نجاورنا يا
أرباب كل الطرق التي عسى أن تسلك بحثًا عما.. لقد فعلنا من قبصتك

وفي الوقت نفسه، لم يكن في وسعنا أن نتأكد أننا نجونا حقًا حتى نحترق
هذه الصحراء التي تمتد أمامنا . وحتى نصل إلى طريق رئيس.. وحتى يرق
لنا قلب سائق سيارة ليوصلنا إلى مدينة . قل ذلك، لا يمكن لنا أن نقول
إننا قد حلصنا وسيتهي كل شيء إذا رأنا أحد من العرب قس ذلك. ولا
يحمي عن أحد يرى هيتشا وملاسا أما هارون من «مسرة» عند النظرة
الأولى كانت حيرتنا قد استولت على أفراسنا رغم ذلك كله، أحدنا
نمشي بقلوب محشوة بالرحاء واستراحة الصباح أعادت نشاطنا بعد إعياء
البارحة وهاتها بالإضافة إلى ذلك، أمدتنا بمريد من الشاطئ فكرة أننا
أحرار وم نعد عبيدًا لأحد . واصلنا السمر.. ولم يحطرن في تلك اللحظات
أنا بعدد سفر صحراوي خطير جدًا.



مشيب متعشين بدون هواجس التي كانت تفترسا النارحة لم بعد
 بحس بأن رمضاء الصحراء تمسنا.. أصبحنا متكبيين معه بفصل تعرضنا
 انطويل هـ عن مدى السوات . صرنا معتادين على هذا الحر والعطش
 لا نستطيع الصحراء أن تهزم بسهولة رحالاً عاشوا في «المسرة» سوات من
 عمرهم إنما يهزم أمام حرها الذي يهلك الهوى سكان القصور الذين لا
 يرحلون إلى الصحراء إلا للتبره أو لإشباع الفصول فصل يادن الله إلى
 عيب قبل أن تلغ منا الصحراء.. لأن الله صاحب هذا السفر. ولا يرعان
 في هذه الرحلة الصحراوية إلا إيماناً بالله وهمتا المستعدة مه

مشيب ستمتع بماطر الصحراء ونستكشف أسرارها . احتفينا بالسر
 كأننا كـ نذهب إلى مهرجان وكان عبد الحكيم أسطفاً وأكثرنا حباً
 بلاستطلاع كان يبحث وراء كل شيء عن جواب «ماذا» و«لم» و«كيف»
 ويرى يسأل إبراهيم عن ذلك كله كطفل بريء شرح له إبراهيم كل شيء
 في أسلوب مفهوم مبسّط . وكان حقاً منسجراً في علوم الصحراء

طلبنا نمشي هكذا حتى وصلنا إلى منطقة استوقفتنا ماطرها . واد من
 الأشجار قد تحول عبر توالي العصور إلى أحابير بمعل رياح رملية متكررة
 كستها أكوام من الرمال .! منطقة تحسر عنها عيون الخيال.. تكثر فيها كشان
 متاثرة تشبه الأشجار انحدر إليها عبد الحكيم مأخوذاً بالدهشة . نحسر
 على واحد منها فإذا بالرمال المتراكمة تتساقط منه تساءلت متعجباً كم من
 قرون قد مرت على هذه العايات حتى تمكنت الرياح من تحويلها إلى كشان

رملية! تصورت مدعورا كيف كانت هذه الصحراء بأكملها غابات في عصر من العصور! وكيف عطتها الرياح الرملية شيئا عشنا!

«لا ينبغي أن يقف هنا طويلا.. يبدو أن المنطقة خطيرة جدا.. قد تهب الريح على حين غرة. والحاجة صعبة جدا بعد ذلك» قال إبراهيم.

ما مشينا من هناك حوالي عشر خطوات حتى حطرت أن شيئا يتحرك أمامنا. ظنا لأول وهلة أنه مراب يتخدع الظمآن.. ثم سمعنا فحيثما مرعنا شككنا أنه ربما كان رجلا رملياً أندنا به إبراهيم قبل قليل.. أمع النظر رأينا أشياء تتهلل أمامنا كأنها ستان يتعابث الريح برؤوس سانه أخذت تتقدم عن مهل «الشعابين»! قال إبراهيم وقد علكه الرعب. رأينا برصوح مجموعة من الشعابين ترحف وتؤرجح رؤوسها. ليس واحداً أو اثنين بل حشداً من الشعابين التي قد يبلغ عددها خمسمائة بل ألفاً. مظهر لم أره من قبل ولم يحظر على حيلي. لا نزال نتقدم نحوها وهي تثير غاراً كجيش كبير. في مقدمتها شعبان كبير مرفوع الرأس كأنه قائد الجيش وخلقه جنود عديدة.. «إغرسا رأسيكما في الرمل واستقبلا حركة.. ليس في وسعنا غير ذلك..» قال إبراهيم.

استلقينا على الأرض كالنعام التي تدفئ رأسها في الرمل.. بعد قليل، سمعنا المعيج يقرّب ما. كان جسدي يرتعش من شدة انفرع.. لا يستعرق أن تنتهي حياتي أكثر من عشر ثوان إذا حدث جسمي أياب أي واحد من تلك لأفاعي الألف. استلقيت داعياً الله ربي في دحيلة نفسي بأعلى صوتي.. عبرت جميعها أمامنا ترحف فوق أجسامنا.. كلما لمسي واحد بعد آخر، أحسست بجسمي يحترق كأنه تعرض للديب الحمر.. رفعت رؤوسنا بعد أن تأكدنا من عبور آخر الشعابين.. كانت جلودنا متسخة في المناطق العارية من أجسامنا كما لو كانت مخلوطة بالأسواط

د. كاتب هذه تجربتكم الأولى في الصحراء، ربما تساءلتم في ذهنة هل هي حقاً صحراء . لأنها غابات يتوفر فيها نظام بيئي لعدد كبير من كائنات حية بها فيها الثعالب، وأم أربعة وأربعين، والسحلية، والعنكبوت، والقرشة، والسر، والذئب، والأرنب، وابن عرس وغيرها من الحيوانات الكثيرة ولكن منها طرقها ومُدها وأوطانها وقوانينها في الصحراء.. لا قيمة لها للإنسان وحياته وقواييه.. ولا يعود لسلطانها.. إنها هؤلاء الحيوانات هم وريثة الصحراء قد أورثها الله لهم.. وخلقهم ليعيشوا فيها. أما أن فمقتحم مندخل و يتمح حلدي أيسر عفاف على تدخلني إلى عالمهم.

لنهار هين . لكن الليل خطير جداً . تخرج فيه الكائنات المحبنة في محاور لتفترس فرائسها الثعابين سامة للغاية . ولها حسون موعنا . وكم رأينا أثناء جلودها المسلحة متاثرة ها وهناك .! كان إبراهيم يلتقط كل واحد منها ويحدد نوعه بدقة فائقة ويقدّر عدد الثوابي التي يترك فيها للإنسان التدبير على قيد الحياة بل فصلا عن ذلك الموت محتوم في الصحراء بمجرد ندعة عنكبوت أو أم أربعة وأربعين

هل تعمرون أن هناك سلحفاة في الصحراء...؟ سلحفاة كبيرة وإن كانت أصغر من سلاحف البحر . تخرج إذا تخفف الحر تعيش حوالي مائة عام جسمها متكون من الماء بنسبة أربعين في المائة . وحتى الجمل التي تُنقب سمن الصحراء لا تستعني عن الماء فوق ثلاثة أيام بينما تستطيع سلاحف الصحراء تحريين ما تحتاج إليه في مدة ستة أشهر من الماء في جسمها.

كنت النعامة هي الحيوان الذي لم أوفق إلى رؤيته في الصحراء رغم رعنتي الشديدة في ذلك وبقي مشهدها وهي تدمر رأسها في الرمال مجرد حلم لم يتحقق بعد.

الحكايات التي سمعتها عن عناكب الجمال كانت قد رسمت في بصري
صوره حيوان كبير الحجم كصحون العشاء العربي. يتشبث ببطون الجمال
التي تجري بسرعة خمس وعشرين كلم في الساعة ويقضم بطنها شيئاً فشيئاً
ولكن حيناً رأيته رأى العين اتضح لي أن كل ما سمعت عنها كانت مجرد
مبائعات كد إبراهيم هو الذي أراني واحداً منها أثناء مشيها بحطوط
مسرعة متساعدة... ما أصغره...! ربما يكون هذا صغيرها.. تساءلت متعجبة
من صغر حجمه.. كنت تصورته أن يكون بحجم ديدان صور صغير.. تبسم
إبراهيم صاحكاً أكاذيب وشائعات مساقلة حول هذا الحيوان المسكين..
كنها مبائعات سوى أنه يعيش كالجمال حياة داسلة في الصحراء القاحلة !

رأيت في الصحراء أعجوبة أخرى وهي الحرباء الطائفة.. كما نمشي بعد
الظهر لاحظنا بالصدفة وميض شيء ذهبي اللون سرعان ما يتلاشى
كروح أو جن يختفي عن الأنظار إلى عالم مجهول. شككت أن يكون ذلك
من تلك الصور الخادعة التي تصنعها عبيد المرهقة المحمرة الجافة أو
لمعت مسهرة من ضوء الشمس المفرط. يختفي ذلك الشيء في الرمال نواً
ثم يبرجرح عيبه ويمر ويحلق فيما كنا لو أصابه الرعب.. أحياناً
عبراً أما ما يطير إلى البعد فشككت أن أحداً قد رمانا من الخلف في جعلني
نتمت مراراً نتدفق خارجاً من بعض طبقات الرمال.. ولكن لم يحظر بيدي
حين ذلك كله أنها حرباء فيما بعد، حيناً تسلقنا كثيراً، فوحشنا بمجموعة
منها تتطاير فوقه ألوان ذهبية تتقاهر. إن رأيتموها، ستقولون، إنها طيور
الحساسين تتطاير بين أعصاب الأشجار. سرب يربو عدده على المائة تسبح
وتفرح في تلك البحيرة الرملية. وددت أن أمسكها لأكتشف هل لها أجنحة
أم هي تطير بأطرافها ؟! لكنني لم أتمكن من الدنو منها فصلاً عن إمساكها..
لأنها تطير في العضاء وتنسلل إلى الرمال بسرعة هائلة جداً.

هذه الحرباء لا تشرب الماء أبداً ، قاها إبراهيم.

سها حرباء الذهبية قد أدخلني السرور إلى قلبي في لحظة مقتنصة
من خصص هذا السفر الأليم بجمالكن الخلاب . أنتن تفقدن أن تعيش
حده ثمة بدون رشعة ماء . هل لكن أن تتكرمن علي بوضع ساعات من
جديكن يعني ألقى سها حيا حتى يسهي بي هذا السفر إلى مكان ما

كان ظهره تترامعرا حيث لا يصل البصر إلى أبعد من عشرة أقدام مما
جعل بصر أكثر صعوبة بالنسة لنا.. ولكنا استمررنا في المشي . أحسنا
بأن أسهم نضب علب حام عصصها بدلا من مجرد الحر.. كلما اشتد الحر
حدث أحسما تبدل أكثر فأكثر . فقد مات طما الذي شعربا به في الصباح..
ويرب برهم يشحما في تلك الأثناء كلها . هيا نمشي ميلا آخر . عسى أن
يصل بعدة إلى طريق رئيس . إياها يقود الإنسان إلى الأمام الرجاء..».

منك ومشيا ولم نجد حولنا إلا صحراء غير متناهية لا شيء
سواء الرمال الرمال.. الرمال فقط.. انصرف عما الضحى والظهر
وأنى مساء . ولم يأت إلى الآن ما انتظرباه . الشمس التي كانت تدب فوق
رؤوس نحو العرب قد تركنا وحيدين في الصحراء وانعمست في طيات
لأفئ أقل لليل بعد سهار طويل لم تقع فيه على ألتست قطرة ماء . أقعدنا
لتعت وملهاث على الرمال.. وحدثني أحفش باليكاء قاطنا من الوصول إلى
مكد حتى بعد مسيرة سهار كامل.. أنكبت عبد الحكيم أيضا بيكائي..

كس أنمى في أوائل الأيام قائلا لسمي . «لقد كُتب عني هذا السجس
لصحروي . يا ليتها كانت صحراء متصعة مكل صفائها.. حتى أستمتع
بسطر الرمال الممتدة مد البصر كالحجارة . ولكن الصحراء الحقيقية قد
رمت بمطرها قبل سهاة سهار واحد . وقد سمعنا قصصا عديدة عن الذين
حثاروا لصحراء . وكم قرأنا عنهم وجلودنا تقشعر من معامراتهم.. لكنهم
مستصعدوا ذلك على ظهور جمال قوية برفقة البدو الذين يعرفون الصحراء كي

يعرفون الخطوط التي في أكف أيديهم . وكانت حقائهم تمتلئ بالراد وقرهم
بالدء ومن حاول عبورها بدون أخذ هذه العدد، لقي حتفه في أحضانها قبل
أن يتمكن من أن يقص علينا قصصه.. يا الله، هل يكون مصيرنا مثلهم..؟
ولسنا نحن حرحوا إلى الصحراء للاستكشاف أو لإشباع الفضول إنما
حرحا سحث عن طريق يعيدنا إلى الحياة.. حتى نرى وجوه أحبنا المحبوبة
مرة أخرى. ونمسح عنها دموعنا اسكت من أجدي لكنا ضللك الطريق
ووصلنا هنا مقطعي الطريق يا الله، ليس لنا أحد سواك ولا حول ولا
قوة سإلا بك . ولا ستهدي إلا هديك . لا يحميننا ولا يرعان إلا أنت.. فلا
نشأ أجسامنا بنار الصحراء..



وفي اليوم التالي أيقظنا إبراهيم الفادري قبل طلوع الفجر، وقال «هيا
 سمحي قر أن تشتد علي الشمس». استيقظا فوجدنا أقدامنا متورمة
 كنت ثقيلة كي لو أنها أصيبت بداء العيل . رغم ذلك، مشيت فوق الرمال
 بحر أرحم . بعد قليل طلعت الشمس من مشرقها معلنة بيتها أن تصرم
 ليران في الرمال في هذا اليوم الجديد..

في أثناء سيرنا، تخيلت عثا بأن السماء سلة زرقاء.. شاحنة الخواف.
 مقبوبة علي من فوقنا . تبدأ خوفا من أحد أركان الصحراء.. ترتفع من
 هناك إلى قمته فوق رؤوسنا ثم تهبط إلى أسفلها في ركن آخر.. ونحن فراح
 دحاح محجورة داخلها . لا بد من رفع السلة لنخرج منها.. ولا يمكن لنا
 ذلك، لا بعد أن وصلنا إلى إحدى حوافها التي تبدو بعيدة عنا مهما مشيت
 إليها . كأننا حوصرنا وسط اللاهية . لا ترى عيوننا إلا السماء الزرقاء
 والشمس المضطربة والرمال . الرمال فقط . استولى علي رعب شديد

وكان إبراهيم يواسي قائلا «لا تجرعا. أبصارنا لا تبلى بعد من ميلين
 ونصف ميل . ربما يكون وراءها الطريق الذي نلتمسه.. فلا تهب ولا تستكيا
 بل امشيت في كل رحاء. وإذا تمكنت من فكرة أننا تعبنا، مرعانا ما نسقط عن
 الأرض حتى بقية النهار عرضة ليران الشمس . فلا بد من مواصلة
 السير كيئفا استطعنا . مدعونا بذل قصارى جهودنا حتى نصل إلى مكان
 آمن في أقرب وقت ممكن».

وبعد قليل، رأينا آثارًا واضحة في الرمال.. نهر جف في أحضان الصحراء في قديم الأزل !! اندهشت فعلاً من تلك الحقيقة صعبة التصديق أنه كان هب يوماً من الأيام نهر حري وسط هذه الرمال المتقدة برمضاء الصحراء تنقت علامات حربه بارره عميقاً تصورت عبثاً رجلاً وصل إلى شاطئه ومات عريقاً أثناء محاولة عبوره . نقف اليوم بلهث عطشاً لرشفة ماء على نهر الشاطئ الذي مات الرحل عريقاً في نهره . ما أبعاد الفرق بينا وبين تلك الدحطات التي ربما وقعت في سحيق الرمال..! وكم من حادثة ربما حدثت خلال ذلك !. كأنني أنظر إلى النهر حين يحف شيئاً شيئاً قادفاً سكانه من الكائنات الحية إلى أفواه الموت الذي يقترب منها بحطوات ثابتة. أسمع صراخاً عاليًا لسماء من أشجار وبساتين كانت على شاطئه.. أيها الدهر، ما أغرب وجوهك !!

مرت عليا ليلتان ويوم ونصف يوم ونحن لم ندق طعم الماء. كادت عيوب تفقد الصبر من فرط العطش والإعياء.. مشياً شبه نائمين . لم يبق في قوس صربا مرع . جعل عبد الحكيم يبكي وهو يتوسل للماء.

«إن المشكلة أنك شئت على الإسراف في استعمال الماء. يستطيع الإنسان أن يبقى حياً بدون ماء ولا طعام حتى أربعة عشر يوماً . هيا بنا نمشي متوكلين على الله » شدد عليه إبراهيم لعله بقي يبكي ويصرخ طوال المشي وهو يردد «الماء» «الماء» بعد قليل انتزع يدي فجأة صارخاً «لا أطيق يا أخي لم أعد أطيق . ادها أنتما . دعاني أرقد هيا . حاولت أن أشجعه متظاهراً بعصب » لا نهى يا عبد الحكيم ولا تستكس كثر ربهك وتقدم .. » وبدأت ألقى يثاء . «الله أكبر ! الله أكبر . !» ردد معي «الله أكبر..».

كأن الهتاف بتلك الكلمات الشريفة وصداها أمدداً بقوة جديدة.. تقدما غير قليل مستعدين منها العون والإهام . ولكن بدان لاحقاً بفقد تلك القوة

بَصَّ شَتَّ شَيْئًا لَمْ تَقْ فِي أَرْجُلَا الْمَرْهَقَةِ طَاقَةَ حَتَّى تَسِيرَ بَا إِلَى أُنْعَدَ مِنْ
 دَيْتٍ فَأُحْدِثَ بَطْهَرِ إِعْيَاءِهَا فِي صُورَةِ الْأَلَمِ وَالتَّخْذِرِ وَالْإِسْتِغَاثِ تَقْرَحَتْ
 ثُمَّ حَرَاءَ صِرَاعِهَا الْمُسْتَمِرِّ مَعَ الرَّمَالِ الْحَارِقَةِ.. تَوَرَّمَتْ قَدَمُ عَبْدِ الْحَكِيمِ
 سَكْرًا وَصَحَّ حَدُّهُ رَعِمَ ذَلِكَ، مَشَى مُتَجَمِّعِينَ كُلُّ قَوَانَا جَارِيَةٍ
 وَبَعْدَ لِحَطَّاتٍ تَأَكَّدَ مَا يَفْرَعُ شَدِيدًا أَنَّهُ لَمْ يَبْعُدْ بِطَرِيقِ الْمُرِيدِ مِنَ الْبَعَانَةِ.
 هَوَى عَبْدِ الْحَكِيمِ إِلَى الرَّمَالِ بَاغِدِ الْقَوَى . رَفَدَتْ أَنَا أَبْصَرَ إِلَى جَوَارِهِ
 كَأَنِّي كُنتَ أَنْتَظِرُ سَقُوطَهُ..

تَسْلِمُ إِبْرَاهِيمَ «قُومُوا لَنْ يَرِيدَكُمَا هَذِهِ الرُّقُودُ إِلَّا إِعْيَاءٌ. لَنْ يَفِيدَكُمَا أَبَدًا
 فِي تَحْدِيدِ قَوَاكُمَا. سَتَمْتَصُّ الشَّمْسُ آخِرَ قَطْرَةِ مَاءٍ مِنْ أَحْسَادِكُمَا، صَبْرًا
 لَيْسَ لَا نَشْوِيَا أَجْسَادَكُمَا فَوْقَ هَذِهِ الرَّمَالِ مُتَبَرِّدِ الرَّمَالِ قَرِيبًا مُتَبَرِّدِ
 الصَّحَرَاءِ قَرِيبًا.. وَسَيَهْبُ الرُّقُودُ بَعْدَ ذَلِكَ.. وَقَدْ صَبَرْنَا إِلَى هَذَا الْحَدِّ.. وَلَا
 يَبْقَى أَمَامَنَا إِلَّا قَلِيلٌ..».

«بَيْتُ عَمِي بِمَحْدَعٍ» نَعَاى صَوْتُ عَبْدِ الْحَكِيمِ وَهُوَ يَبْكِي «أُحْرِجَتْ
 نَهْجُكَ؟ أَمَّا مَا وَعَدْتَنِي بِهِ؟ كَأَنَّ الْمُسْرَةَ خَيْرٌ لِي مِنْ هَذَا كَثِيرٌ كَانَ
 لِأَرْبَابِ أَرْحَمَ بَا مِنْ هَذَا لَا أَقْدَرُ. وَلَا أُنَالِي إِلَّا إِعْيَاءً. لَا أُنَالِي الْمَوْتَ
 أَهْرَبُ أَنْتَ إِنْ شِئْتَ..».

لَا وَرَافَةً أُنَاءَ ذَلِكَ السَّعْرِ، رَأَيْتُ عَمِي إِبْرَاهِيمَ الْقَادِرِيَّ مَعْرُورَ قَتْنٍ
 بِإِسْمَاعِيلِ رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ مُتَضَرِّعًا إِلَى اللَّهِ. ثُمَّ هَوَى دَاعِيًا رَهْ فِي
 سَحُودِ

كُنتَ بِصَحْرَاءِ نَعْلِي كَمَرَحَلٍ. شَعَرْتُ بِأَنَا مَلْفُورٍ فِي مَقْلَاةٍ صَحْحَمَةٍ .
 لَا أَنْ ذَلِكَ الرُّقُودَ بَعْدَ مَشْيِي طَوِيلِ أُنَاءَ عَلَيَّ بِشَيْءٍ مِنَ الرَّاحَةِ . كَانَ الْحَرُّ
 غَيْرَ مَحْمُولٍ فِي الْبَدَايَةِ. رَمَالٌ مُتَقَدَّةٌ نَحْتُ جَوْ لَا هَبْ وَلَكِنْ، فِيمَا بَعْدَ،

تكيف جسمي معه وأصبحت الحرارة في جسمي وفي الرمال والحر متساوية
الدرجة لكن العطش بقي مدلعا في لابي. لم أحد متقعا لعاني وقد
جفت آخر فطرة من اللعاب في فمي. ضربت على صدري العن نفسي على
حماقتي ألا أحد معي عد الفرار شيئا من الماء في قارورة أو وعاء. ربما فررا
في لحظة نجودا فيها من كل عناصر العقل.. لا يبقى أمامنا الآن إلا مقاومة
الحر والعطش.. ماذا نعمل غير ذلك؟

اتضح لنا أن إبراهيم كان صادقا فيما قال كلما رقدنا ارداد إعياءنا.. وم
سترد شيئا من طاقت. من دفعني ذلك إلى الاسترخاء تسرت إلى عبي
عتمة.. تحول ذلك إلى دوحه شديدة أدت بي إلى التقيؤ مرتين.. ولم يلبث
عبد الحكيم أن تقيا أيضا.. حلع إبراهيم ملابسه محاولا أن يصنع لنا بها شيئا
من الطر. ولكن كان ظله محدودا جدا فلم يفدنا. حاول أن يجلسا على
الأرض.. لكساتهما ويا كست في شبه غيبوبة.. رقدنا في أحضان الصحراء
كحشيتين هامدتين.. وكان في وسع إبراهيم حينها أن يبحث عن سبيل لنجاته
بوحده تارك إيانا في مكاننا. لكنه جلس إلى جانبنا كحارس لنا حتى فتحنا
عيوننا في وقت ما من الليل..

عندما فتحت عيني، شعرت بحلقي يتمرقق من شدة العطش.. لكن أين
الماء !! يا الله، ما أكثر الماء الذي أسرعت في استعماله حين كنت في بلادي!.
هأند، الآن أتوسل لفطرة ماء عرفت اللحظة فقط قيمة وطني وثروته
أهذا عقابك يا ربي على إسراي في تلك الأيام..؟ غفرانك يا الله..! وقد
علمتني اليوم قيمة الماء..



كذب في جميع الغابات والأودية يرون الصحراء منعاً تليدتي والنفاء
 ، صحبة الروححة . كانوا عن الكثيرين من الذين عاشوا وتجوّلوا في
 صحراء حتى انصهرت بياض المعارف في أدمانهم لكر الصحراء لم تعث
 في صحبة الدهر . قصبت فيها أكثر من ثلاث سنوات .. والآن أحول
 حربي لكتيها لم تعطي في حلال ذلك كله إلاحية الأمل والألام .. لعلها
 لا يري ثمرها إلا لم أتوها تليها للمعارف الروححة .. أما أنا فما أتيها بل
 من .. وقعت بين محالها . لذلك ربما قررت ألا ثمن علي بشيء من ثمرها .
 وقد مر عينا يومان أحزان ونحس نير في الصحراء بعطرات تائهة ..
 .. وصلت إلى مكان .. ولا جاء أحد لينقدا .. قد بلغنا من الإعياء متناه ..
 أحدث الحروح في أقدامنا تنقيح نتيجة صراعها المستمر مع الرمال المتقدة .
 مع نطاق الثورم في أرجلنا حتى وصل إلى ما فوق الركبة . الثياب تنفذ
 النسر .. وتخدس ..

كان الوقت يفترق من منتصف النهار .. كان عبد الحكيم يمشي معاً
 مدد فحاة ، اندفع إلى الأمام كأنها حن جونه .. هتف بأعلى صوته « الماء
 » .. حددت النظر مفزوعاً إلى حيث انطلق مرعاً .. يا الله ، الماء . !
 من تجرني حلال هذه الأيام الصحراوية ، عرفت أنه لم يكن سوى سراب
 عادي صحت فيه امرأة بالعودة . لكنه لم يسمعي . استمر يجري إلى الأمام
 وهو يصرح كالمجنون « الماء . الماء . » لاحقته أنا وإبراهيم حتى أوقفته ..
 راب رعوة تخرج من جاس فمه .. ودماً يخرج من أنفه .. مسحها بقمصتي ..

أحبرناه على الخلوص قال. إنه يشعر بدوخة.. بعد قليل، جعل يحرك أطرافه بإيماءات جوية كمن أصابه داء الكلب، وثب فجأة منفلاً من بين أيدينا . عاد مهر في الرمال وبحر نتاعه. بعد أن فر قليلاً ارتقى مهكاً على الأرض . بكى أشد البكاء دويماً له لرفعه . لكه نفصاً عنه بقوة شديدة . بدت حركته جوية جعل يأكل الرمال الحارة.. حاولنا أن نمسحه من ذلك.. لكه دفقاً عنه بقوة عرية جوية استمر يأكل الرمال الحارة.. بدأ يتقيأ بشدة. لم نجد شيئاً نفعله حينها وأصبحنا عاجزين عن فعل أي شيء . تقياً عدة مرات حتى خرج الدم مع القيء . تلوى في الرمال كحية مضروبة.. كادت عيناه تقهر من محجريا . أخذ يسيل من فمه سائل حليط من دم عرير ورغوة.

«إبراهيم، افعل شيئاً لإنقاذه.. أخي عبد الحكيم، أعل الناس علي عن وشك الموت» بكيت متوسلاً إليه في جرع.

«يا الله، يا مولاي، حائق كل شيء، احمه بحمايتك واحمطه بحمطك وانقذه مما يلاقي» دعوت الله وأنا أصرب على صدري من شدة الجرع .

نظرت إلى السماء، لم يكن فيها سوى قرص الشمس المصطرم عدت إلى إبراهيم أتوسل إليه باكياً «افعل شيئاً يا إبراهيم. !!!»

لكن إبراهيم جلس مستمراً في مكانه بدون حراك.. قذفته بالشتائم واخسرة الشديدة تطعى على نفسي . بصقت في وجهه صرته بيدي ورجلي.

«ليس في مقدورنا إلا أن نقوس أمره إلى الله» قال في صوت مدبوح. لم أر إبراهيم أبداً أضعف منه في تلك اللحظات.

وهتُ تماماً قعدت على الأرض معمص العيين . لم أكن قادراً على رؤية عبد الحكيم وهو يتلوى لخروج روحه سمعته يشق ويتلوى قليلاً

ما سكن بصوت، فتحت عيني. نظرت إليه.. لقد مبحلقًا في كأنه يحاول أن يقول لي شيئًا. أسرعته إليه أحتضنه وأردد: «يا بُنَيَّ، عبد الحكيم، لا بأس عليك لا تخش شيئًا». تحركت عيناه حركة دائرية ثم سكتا هذوء. شعرت كأن كف أسود يعطي عقلي. يسيطر إنك عارم على كل جسمي. ارتقيت على الأرض.

لما فتحت عيني وجدته محمولًا على كتف إبراهيم كجثة هامدة. كانت لمحات الرمضاء المشحونة بالنار تهب عاصبة.. تحاول شدتها أن تعرف كل خطواته من خطوات إبراهيم. رغم ذلك، فر حاملًا إياي بأسرع ما أمكن.. هم لهم لمد يفر هكذا؟. لكسي كنت مهكًا تمامًا حتى عجرت عن النزول عن كتفه.

في دث الرقود، بدا لي أن شيئًا يتحرك وراء كتيب الرمل الذي كان أمامي مأخوذًا بالدهشة، نظرت إليه بمجامع عبي.. لم يلبث أن انضغ لي أن الحركة ليست من وراء الكتيب بل كان الكتيب نفسه يتحرك. كما تقدم لأموح المرجحة المتجمعة في أقاصي البحار، زحفت أمواج رملية غانية من روية بصحراء الثانية واحدة تلو أخرى.. حُبل إليّ أسى لم أكن في الصحراء بل أنا وقف على شاطئ البحر.. تقدمت الأمواج تعيد رسم جميع الماطر التي كانت أمامنا صرمت أعناق التلال والكثبان. أبادتها حتى تلاشت في لفضاء.

«أطبق عيبك بقوة..» صرخ إبراهيم وهو ينزلي على الأرض عن كتفه ضمني إلى صدره وهو يقول «لا تتحرك» وقفنا متعانقين بشدة. لم تمص الخطوات حتى وصلت إليها موجة تمسنا بشظاياها شعرت بمرور درات الرمال الساحنة في الوحه والأطراف والجسم كله كحريق يلتهمني.. ما أدري كم طال ما الوقوف في ذلك العار العياري! فتحت عيني عندما

أحسست بأن الرياح هدأت بعصر الشيء.. فوجئت بشبح رملي يعانقني..!
والحو كان معكراً محمراً بعبار كئيب.. ولم نر أمامنا سوى سحب غباري يحيط
بنا.. قد عمرنا إلى الحصر.. والذي استعرت منه أكثر هو أنه قد احتفى عن
أنصار كئيب كان قائماً بين أيدينا.. بدلاً منه تشكل كئيب أكرم منه في الجهة
نتي فردنا منها..! كأنها أعيد رسم خريطة كبيرة على مرأى ما ومسمع
أجهشت بالكاء بأعلى صوتي.. لقد وارى ذلك الكئيب الجديد حثان عمد
الحكيم العالي تحته إلى الأبد..!



أُحْرَح إبراهيم نفسه من أكوام الرمل بعد مجهود شاق.. واستخرجني
 منها تَأَهَّب كي يواصل السير حاملاً إياي على كتفه . انتفضت بازلاً من
 كتفه . يا إبراهيم، أُنقذ نفسك واطركني هنا، لا أقدر أن أترك عبد الحكيم
 هنا ولا أريد الحجة بدونه . جثا معاً ولا أعود إلى البلاد بدونه . لا
 أفوى عن مواجعة وجه أمه.. ولا نظرات أخته . أتركني هنا . أيا ذاهب
 معه.. أنا ذاهب مع عبد الحكيم..».

كنت على وشك أن أفر إلى الكتيب الذي وارى جثمان عبد الحكيم..
 حطفتي إبراهيم بسرعة وقال: «ما أرسلني الله إلى «المسرة» لأتركك هنا
 في هذه الصحراء . عحرت عن إنقاذ عبد الحكيم . لن أدعك تموت قبل أن
 أموت أنا . » أبح أن يحمّني على كتفه.. وما كنت أملك قوة حتى أقارمه..
 هلمي عني كتفه كمنديل مثل.. كنت ألتحّب كطفل صغير . مشى إبراهيم
 بحملي في تلك الصحراء الفاحلة . هاهمي العطش والجوع والحر . كإبرة
 في الهم يطعن في رموشي . استشعرت نصبات قلبي . أحسست بأها تخف
 شيئاً شيئاً . تباطأ تهمني . جف لساني المتقرح حتى عجزت عن تحريكه
 ألسنة . أحسست أن العالم قد اسود وأحد يدور بي . خرجت الرمضاء من
 رأسي كسحار . تبتد شعوري بما حولي . علمت أنني أقترّب من حالة عبد
 الحكيم . لا يبقى لي في هذه الحياة الدنيا إلا قليل . حين وقت الوداع.. حاولت
 أن أتذكر كل من أحبوني وأحتهم.. لكنه لم يطف في رأسي المحموم كثير من
 الوحوش المحنة ما عدا أمي وزيت وعبد الحكيم.. وأما الأغنام في «مترقي»

«ظهرت جميعها واحده بعد أخرى «نيل»، «أرو راوتز»، «نوتشكار زمر»،
«ميري فينمونه»، «أند بوكر»، «سندو رانهاون»، «نرت وجين»، «تساكي»،
«أمي»، «نوسو»، «زوفة» وكلها لعل سبها أن تلك الأغنام ربما احتني
أكثر من أحى أي إنسان كل أنى بودعي الوداع الأخير.

حاء المساء . وتلاه الليل استلقيا على الرمال مهكين.. مر عينا ليل
كامل بدون أن تتحدث بكلمة إلى بعضنا البعض.. لم أكن أظن أنني سأجتاز
هذه الليلة . لكي فعلا اجتريتها وحدثت نفسي لا أزال على قيد الحياة في
الصباح.

سكت الرياح كان الصباح بديعاً صافياً. فتحت عبي لأرى كتباً
 أممي امتدت الرمال كمحيط هاجع.. قمت على مهل.. ولم تشادل أنا
 إبراهيم كلمة واحدة لقد مات فينا الرجاء والأمل . كدنا نقط من
 بوصول إلى مكان ما . اشتقت إلى الموت بأسرع وقت ممكن.. لم أعد أطيق
 مدح بحر والعطش . اللهم أنقذني من هذه الجحيم في أقرب وقت كما أنقذت
 منها عبد الحكيم.

مشيت على الرمال وأنا أجر قدمي في خطوات مترنحة.. أصبحت شبه
 ميت كد إبراهيم يدي مراراً استعداداً ليحملني على كتفه.. لكنني رفضت
 لأنني كنت على يقين من أنني ساموت قبل حلول الليل.. آمنت أنه لم يبق
 لي حسمي من عناصر الحياة ما يحفظني حياً أطول من ذلك.. قررت المشي
 سريعاً استعجالاً لقدوم الموت.

حينما مشياً قليلاً لاحظنا آثار أقدام لحيوانات غريبة. كأثار خفيصة
 لسراهم مستترة بستر الليل! تتبعها إبراهيم ليرى إلى أين تقوده!. كانت تمتد
 إلى محاهيل الصحراء توجهها إلى الاتجاه المعاكس متأكدين من أن الاتجاه
 لأول سيؤدي بنا إلى قلب الصحراء مشياً إلى الظهر تقريباً إلى أن رأينا
 بالصدفة سحابة كبيرة تزحف أمامنا في الرمال!!

سحابة!! انطلق إبراهيم سريعاً نحوها.. لكنني لم أجد فيها شيئاً يثير
 دهشتي. كنت شبه نائم متوقفاً سقوطي على الأرض في كل لحظة.

«هل رأيته يا نجيب ؟ إنها سحلية بلا شك. ١١» لاحظت أن كلامه
كانت معممة بالسرور والبشر.

«وإن كنت ١٢» قلت بوجه عابس غير مبالٍ

«هل تعلم أن السحلية في الصحراء تدل على وجود الماء القريب» قال
دلت في فرح شديد.

«حقاً ؟ ١٣» قلت والرحاء الأخير يهص في داخلي.

هر رأسه موافقاً وحدري قائلاً . «لا بد من أن تكون كل خطواتنا القادمة
على حذر تام. على أي حال من الأحوال، لا ينبغي لنا أن نرتد إلى الصحراء
واعلم أن هذه هي فرصتنا الأخيرة».

ندت كما على حذر تام طوال سيرنا كما بحث عن مريد من السحالي
في كل خطوة. توجهنا إلى حيث نفرت تلك السحالي. وما تسلقنا كثيلاً
حتى رأيت رؤوس الأشجار الحصراء تحلأ عيني السحل، والشجيرات
والخسبات لقد اقترب الماء!! ولم أدر بعده هل كنت أظير أم أسير . وصلت
هناك متناسياً كل الإعياء الذي كنت أعاني منه حتى الآن، وكنت أجري جازاً
رحلي الشان كنت استقلها منذ قليل كرحلي ميل، وطرت بهما فوق الأحجار
الحادة غير مبالٍ بقدمي المحروحتين الداميتين وكان إبراهيم القادري من
ورائي يتابعني أستعرب الآن أنه رعم اشتياقي إلى الموت في تلك الساعات
إلا أنني قد دفعت في ردهات نفسي بدور أمل قوية للحياة ربما كان هذا
الأمس هو الذي أنقاني على قيد الحياة إلى آخر المطاف كنت واثقاً بأن هناك
ماء على مقربة منا. ركضت بين الأشجار المتكاثفة ركوض مجنون أحسست
بأنني أسمع طيلاً لألاف النحل التي تحوم فوق رأسي . لاحظت هالات بيضاء
تتطاير أمام عيني انكشف لي كيف أصاب عبد الحكيم نوبات الهلع في

حصد احتصاره عطش مذهل. أنا أيضًا أنعرض له الآن! استمررت
بفت إلى كل اتجاه بحثًا عن الماء. عدت أحرى في كل الاتجاه. أما إبراهيم
فكان يبحث عن ماء هادئًا، متسعًا الماطون الأكثر خصرة أو القناع الأكثر
رطوبة. فعلاً اكتشف في النهاية بركة صغيرة وسط الحيات. هتب رافعاً
يده إلى لسماء «الله أكبر! الماء! الماء! الماء! الله أكبر!!».

وكان رأسي كحريق ملتهب حينما طرق صوته مسمعي. هرعت إليه
كمحبوب. رأيت عيني مبهتاً راحراً بالماء بين الشجيرات. ألقبت بعيني
فربه من شدة عطش. فإذا بإبراهيم يعدي عه بقوة. وهو يصرح. «لا
شرب!». اندلع الذهب من عيني. علت بالحبون دمائي.. صفعته على قفاه
مستحمف كل قواي المتشفية. تريح بالصعفة الماعنة.. توجهت إلى الماء مرة
حرى. فحاة، أمسك برحي يجري.. ألقاني بعيداً.. «دعني بما مخادع! أنا
عطشان أريد الماء!»، كنت أصبح في وجهه.

كنه لم يتركني بكيت وأنا أصرب صدري «يا هذا، لم تشعل الأمل في
فسي؟» ألهم أهدك برقك ورعدك وجام عصبك هذا الظالم الذي يجرمني
من شرب ماء متحجر القلب هذا. «أهدا الذي كنت أرافقه منذ أيام؟ لقد
قتل عبد الحكيم يريد الآن أن يقتلي. يمثال أن يستأثر بهاء اليسوع كنه
نفسه. لا يعطيني حتى قدر ما أبلل به لساي. إلى أشتاق إلى شيء من الماء
فل ثوت. وقد اشتفيت أن أدوقه، كنت أنلوى وأصرح. غير أنه ألقني
بعيداً ثم مضى نحو البركة. ولم يبق لدي قوة للهوص من هناك

رعدت معمص العينين تحت الرقبة وهو يشرب الماء كله سهم. فموجئت
برطوبة على الشفتين. فتحت عيني. فإذا بإبراهيم جالس إلى جوارى ويده
فضة قمش ملته يرطبها شفتي على مهل. فتحت فمي بكل شراهة..
ومرر وقعت منها قطرة على لساي حتى تلويت قائماً كأسها حامض يلتهب

به لساي .. عدد يضع الخرقه في فمي .. تقاظر منها الماء في فمي قطرة قطرة
أحسست مع كل قطرة التهابا يحللي على الصراح .. عاد إبراهيم ينزل
الخرقة .. يرشح الماء من لساي إلى حوي .. ألهب مره حلقي ومعدتي .. بعد
أن تكررت عملية التليل عدة مرات، خد الالتهاب شيئاً و شيئاً . وشعرت
بالعطش العادي . قادي إلى البسوع .. أخذ الماء بكفه يسكه في فمي شيئاً
و شيئاً .. احتسيته حتى تقعت علتي تماماً .. شعرت بمتعة بادرة تدب بأعضاء
جسمي حينما تسرت الرطوبة إلى خلاياه الجافة .. وأحيراً، قلت له ' إنني قد
رتويت ثم ارتقيت بعد ذلك على الأرض في إعياء شديد .. حينها فقط رفع
إبراهيم الخرقه المسدلة إلى لسانه .. انتحلت شديداً نادماً على كفران هذا الإيثار
الأعظم.

فصيب في تلك الواحة ثلاثة أيام.. نشرب الماء هينًا مريضًا.. نغطف برطب من الحبل.. سام ملء الجفون حتى نسينا كل الإعياء الذي عانينا منه. نكر رحلي نقيت على تورمهما ووجعهما. وكان إبراهيم في هذه الأيام لثلاثة يقوم بجولات تفقدية حول الواحة.. لا يعود إلا في المساء.. كان يبحث عن جواب لأسئلة.. هل يوجد هنا إنسان؟ هل لنا إلى الحياة من سبيل؟ أين تقع هذه الواحة التي وصلنا إليها؟

معني في اليوم الأول حين أمدت استعدادي لمراقبته. وقال أنت رهرة سريعة الدبول في الصحراء.. لا تغادر الواحة إلا بعد أن أكتشف طريقًا آمنًا. ولم أكن أثق في عودته إلا إذا رأيته عائدًا خشيًا أن يضل طريقه أثناء جولاته.. إن لم يعد، فمعني ذلك أنني أصبحت وحيدًا في هذه الصحراء. كنت تآخر عن العودة اضطرمت في داخلي نيران الخوف ولم أكن أطيق حتى أن أنصور بصفي وحيدًا. وما كان نالي لبهدأ إلا إذا لاح رأسه من فوق هذا الكتيب أو ذاك.

وبعد دهره، كنت أتمشى في أنحاء الواحة. الواحات عادة تملع مساحتها عدة فدادين يتوفر فيها نظام بيئي بشمل مجموعة كبيرة من الحيوانات.. وعادة ما يتحد البدو وعابرو السيل الواحات مأوى لهم.. لكن هذه الواحة ما كنت من ذلك القبيل. كانت صغيرة إلى حد كبير حتى أود أن أصفها بأنها أصغر واحة في العالم. مساحتها فدان واحد على الأكثر.. تشتمل على بركة صغيرة ومجموعة من الحبل وجنات من أنواع الصبار مجهولة الاسم

بالإضافة إلى بعض الشجيرات تحيطها الصحراء الشاسعة واحدة لئلا يعثر عليها أحد ! جنة من جنان الله المكنونة في الأرض يدحرها لمن يشاء من عباده ! تساءلت من فرط السرور آله قد خلقها من أجلك؟.

عند ظهر اليوم الثالث، عاد إبراهيم فرحاً مغتبطاً كأنه عثر على بعض المعالم أسرعته إليه الخطى متسائلاً: «هل عثرت على شيء يدل على الطريق؟»

قد نعم، لسا بعيدين عن شاطئ الحياة. لقد عثرت اليوم على ثلاثة أحجار في هذه البحار الرملية. أحجار استخدمها ابن آدم . لا بد أن أحداً قد وصل هنا قبلنا وأوقد ناراً تحت هذه الأحجار ليطبخ طعامه لا شك أنها إشارة مبشرة..»

وفي صباح اليوم التالي، خرجنا قاصدين تلك الأحجار كما نعرف أنه لا طائل تحت إهدالة مكناها. قررنا أن نقوض أمرنا إلى الله.. مشيت.. رأيت تلك الأحجار التي استوقفت إبراهيم أمس. كانت المنطقة تحوي القبيل من الرمال الناعمة.. كنت أرضاً صلبة بعض الشيء . قمنا بحولات تعقيدية في المنطقة حتى تراءت لنا آثار خلقتها السيارات كشواهد على مرورها المتكرر. أقوى دليل على وصول الإنسان إلى هنا . ربما كانت المنطقة من تلك المناطق التي يقصدها سكان المدن للترفيه والتروية. إن كان كذلك فإن هذه الآثار ستوصلنا بلا شك إلى بر الأمان! نُعثت الحياة في قلوبنا الميتة.. قدمت على قوائم الرحاء مرة أخرى. تابعنا تلك الآثار في غاية الاهتمام والبهمة متوقعين وجود إنسان وراء كل كتيب أو منعطف يمر به . لكنها قادتنا إلى المجاهيل عابرين الأراضي القاحلة المقفرة وبالصدفة، اكتشف خطأ طويلاً يعبر فوق كتيب كأنه حط على ظهر مسجبات! استطاعت عيني التواقة اكتشافه ونحن فوق كتيب داء احمر هرولت إلى هناك بخطى مسرعة لقد تحقق ما كنت

شك فيه نعم، كان ذلك آثارًا رسمتها إطارات السيارات .! يا الله، رب
سبوت والأرض، ماذا يعني هذا الخط .؟! أولاً يدل على مجيء إنسان إلى
هنا ؟ فلا شك أن لسان بعيدين عن مدينة أو قرية . إنسان ذو شئ وشيئا من
درب مطروقة سلكها الشر ومن محطة يقطن فيها الإنسان برق، الأمل
كف من صليل يصيء عوالم القنوط كثيفة الطلام

وررن أن تتع آثار الإطارات . كما على يقين تام من أنها ستقودنا إلى ملحد
من.

أمنت أنها ما كانت آثار إطارات سيارات الإنسان . بل رسمتها لنا
إطارات سيارات أرسنها القدر ليدلنا بها على طريق نجاتنا لك الشكر يا
الله أشكرك عدد الرمال في الصحراء بل أكثر . لك طلبنا حثفين..
يد تفسد الريح بقسا حقيقا، ستبذد طموحاتنا كلها.. لو تفسد الريح في
رقودها إلى حاسها الآخر فستمحو الآثار كلها حتى تتلاشى إلى الأبد.. لكن
الله لا يزال معنا اليوم.. لن يدع الريح تتحرك ولو حركة طفيفة ناسيا
كل لإعياء.. بدأنا نعدو ما كنت أنالي برجلي الموحدة التي كنت محروقة
منمة، منتهبة، منتحمة، بما يعينا الآن أن نهب الطريق قبل أن تستيقظ
الريح وكلنا تقدمنا، امتدت الطريق ملنوية إلى آفاق بعيدة.. استطالت
معها أشواقنا..

م نعلم كم عدونا هكذا متعنين فتيل الرجاء الذي لا يحو!

أذكر أنه كان قد قرب المغرب عندما توقفا عن العدو نيقنا أما غير
بعيد عن عيت ولكن الريح التي كانت هاجعة إلى الآن كحثة هامة
استيقظت لنو في أسوأ لحظات حياتي حظا . أحدثت نهب مرعجة.. تحت
الآثار كلها.. ذهبت بها إلى أقاصي الصحراء . توقفا عن العدو متحيرين

أمام تلك الرياح. بعد قليل، هدأت الرياح تاركة لنا اللاشيء الذي يعتد
أمامنا مسطاً على مدى النهر . أحسب بالكاء من شدة الكآبة . رفعت
نصري إلى السماء «هون علينا يا ربّي، أرجوك أن ترحم حيرتنا، لم أعد أطيع
هذا العذاب...».

انطرحت فوق أمواج الرمال محدد الأطراف كبعض أنفاس سفينة
عظيمة عبر مدّ بدعوات إبراهيم القادري الملحة لمواصلة السير . درفت
دموعاً غزيرة طوال ليلة أخرى.

في اليوم التالي، صحت على طلوع الفجر على صوت عريب احتطلي
 من يومي أرهقت له سمعي غير أنني لم أسمع بعده شيئاً. ربي سمعت
 لصوت وأرأى أحلم. بقيت راقداً معمص العيين. سمعت الصوت مرة
 أخرى قمت وكنت الصحراء تنام هادئة صافية بعد أن تجردت من ثياب
 عصها بسمع الواحد ما بوضوح أحف صوت يسمت من أقاصيها. فإذا
 بي أسمع الصوت مرة أخرى. ألقيت إليه سمعي بأكمده. صوت عمير
 لإصدرات الشاحات الثقيلة التي تسير بالطريق الرئيس البعيد.. يوم كنت
 في بلادتي، كنت أسمعها مراراً في بعض الليالي الصامتة. ولا شك أن هذا
 لصوت الذي يأتي حيناً ويتقطع حيناً آخر، منبعث من إطارات ناقلات أو
 مقطورات تسير في بعض الطرق البعيدة.

أدعي جيل غير صغير وإن كنت على وعي صحيح أو لم يكن ذلك رؤيا
 كدنة تراءت لقلبي المرهق، فلا بد أن هناك طريق رئيس يمر وراء الحبل
 وهناك سيارات تسير عليه. انتعشت قائماً من تلك الرقدة «إبراهيم .
 إبراهيم» صحت مادياً عليه «لقد وصلنا . نعم قد وصلنا أخيراً» كاد
 قلبي يقصر من صدري من شدة الفرح. هزعت إليه حيث رقد إبراهيم
 لكسي م أحده هناك.. أدبرت النظر في كل اتجاه غير أنني لم أعثر عليه

«إبراهيم إبراهيم» كررت النداء . انطلقت أبادي عليه باحثاً عنه في
 المنظمة كلها . لكن ندائي ذهب صحبة في واد . «أين ذهب..؟ هل استغرق
 في النوم إلى هذا العمق..؟»

«إبراهيم . إبراهيم » لم أرل أحوم هنا وهناك وأنا أهتف باسمه. لكن هتفاتي تلاشت في طيات الصحراء اللاهائية.

أطلت أشعة الشمس الأولى ندد طيفات الطلام من زاوية الأفق الشرقية.. نبيت الرماد والكشاد عدت أبحث عن إبراهيم القادري في كل مكان وقتًا طويلًا لكنه لم يكن هناك.. تسلقت كثيرًا وتلفتت حولي.. لم أعثر له على أثر بعد محاولات البحث التي استغرقت كثيرًا من الوقت، أرعمت نفسي أن أتافهم مع الحقيقة المرعبة وهي أن إبراهيم القادري، مرشدي ومنقدي طوال هذه الرحلة قد انتهى نهائيًا من حياتي من غير أن يترك أثرًا يشير إلى أين ذهب! تمكنني الكآبة والوحدة كما لو كنت آخر إنسان بقي على وجه الأرض. بكيت حاثًا على الأرض «إلى أين ذهبت يا إبراهيم . ؟ كيف استطعت أن تتركي هنا وحيدًا.. ؟ كما معًا طوال هذه الأيام تتشاطر الأحرار والآلام فيما يب ه نحن الآن على وشك معانقة النجاة.. الطريق الرئيس لا يعدد إلا مسيرة ساعة مشيًا على الأقدام.. لكن أين أنت . ؟ أين احتجيت في الليلة المارحة . ؟ ليتك أخرتني بذلك سابقًا أو ودعتني قبل الرحيل ؟»

وعندما اشتد الحر فمت أمشي.. أحسست بثقل المشي في هذا اليوم أكثر من الأيام الماضية بمائة مرة . كأسني لا أبرح مكاني منها مشيت أو كأسني أمشي إلى الخلف نخرج قلبي من الوحدة بصورة لا يحيط بها تصور ولما قرب المساء، وصلت إلى الطريق الرئيس. ولم يكن طريقًا مزدحمًا بالسيارات. ما سلكته السيارات إلا في ما بدر.. كانت أعلاها الماقلات والمقصورات.. أو تلك السيارات العادية التي نادرًا ما قطعتة بسرعة كأنها تطير فوقه م أرل واقفًا على حافة الطريق أرفع يدي لكل سيارة تمر.. لكنها تجاوزتني بسرعة إلى عباتها مباشرة انطلام في آفاق الرحاء.. بعد كل سيارة تعبر، تميت أن النابية ستقف بحبي وبأحدي من فيها.. لكن حظي لم يسعدني . لم يرق لي قلب سابق أو لم يدهمه الله أن يوقف لي سيارته.. أفلت ليلة أخرى لتتركي يتبها هريدا

أسمر لصبح. استؤنف المرور الذي توقف في ساعات الليل الأخيرة
 أكثر سيارات العابرة باقلات أو مقطورات. كدت أصل إلى وسط الطريق
 رفعا يدي لكل سيارة مرت بي.. لكنها مثل الأمس أهملتي تمامًا. سارت
 عني سريعًا مما استعرت ذلك. لأن هيتي كانت تنفر الناس مني حينتي
 «سريعة» لمدة ثلاث سنوات وهيامي في الصحراء لأيام عديدة قد حولاني
 إلى حيوان بري لا يشبه الإنسان. وكانت معاناتي من العطش والجوع تتعاقم
 في كل لحظة. مصت ثلاثة أيام بعد ما عادت الواحة.. لكنني لا أستطيع
 أن أصنع الحياة بعد أن رأيتها نصب عيني. أحسست بكراهية الذات
 «محروم من رحمة الله حتى في هذه اللحظات الخامسة.. أي دب ارتكبه
 يسوحب هذا؟ سألت الله ناكيا وأنا أصرب على صدري في يأس. «يا
 الله، قد سدت صديقي في الصحراء. وأدت للصحراء أن تحتطف روح
 عبد الحكيم. ونجتي إبراهيم في سراديبها. بعد ذلك أوصلتي إلى هنا. ثم
 مد يدك. «بقى السؤال في نفسي حائرًا بلا جواب وكان الوقت يبدو من
 الصبح وما رلت السيارات تمر بي من وقت إلى آخر.

لاحظت سيارة فحمة حذاء قادمة من البعد بسرعة فائقة. كنت أعلم جيدًا
 «لا يهيدني أن أرفع يدي. أتى يكون لي أن أركب مثل هذه السيارة العاخرة
 بين نعر أممي حتى المقطورات وسائقوها يلقون علي بطرات ساحرة..!
 لكن حينما اقتربت مني، رفعت يدي كما لو كان ذلك بدافع نصائي غريب..
 عرت أممي كم توقعتها لكنها تقدمت قليلًا ثم توقفت تفرمل بصوت

عال. اندهشت فعلاً نساءلت هل توقفت حقاً لإشارتي ؟ وقتت متردداً قليلاً.. ثم أسرعحت إليها كان فيها رجل عربي جميل في ثياب نظيفة جداً فتح رحاح الباقدة سألي شيئاً.. لم أكر أعلم ما أجي به . بل ما كان عدي شيء أقوله له. رجل عربي رقيق القصب. كم من سيرة مرت بي منذ الدوحة لم يهرمل لي أحد سيارته ليسألني : «ماذا تريد...؟ لماذا تعف ها. ؟ كيف وصت ها ؟» لكنك قد وصعت قدمك على المكبح فقط من أحلي يكهسي ذلك سروراً. انفجرت في الكاء بلا إرادة مني. لم يسألني بعدها شيئاً فتح لي الباب الخلمي وألح علي في الركوب ثم سار سريعاً..

ترددت أن أحلس على راحتي في المقعد الوثير نلتك السيرة المعجمة وأن هذه القدرة بعد قليل، أعلق الرجل مكيف السيارة.. فتح رحاح النوافذ عطى أفعه بأصابعه كنت أعلم جيداً أن سبب ذلك كله ليس سوى التثابة التي تسعث مني كان باستطاعته أن يطردني اللحطة من سيرته.. لكنه لم يبد عهيه أي علامة للاشمئزاز..

سألت ذلك الرجل العظيم شيئاً من الماء مد إلي قارورة ماء عسها في رشعة واحدة سألي هل أريد المزيد. هررت رأسي أعطاني قارورة أخرى. استنرفتها بسرعة بقيت على عطشي . لكسي استحييت أن أسأله قارورة أخرى . تكأت على المقعد هدوء انزلقت إلى نوم عميق من شدة الإعياء.. ولذلك، ما علمت كم استغرقت الرحلة من لوقت. ولم أستيقظ إلا حينما وقعت السيارة في مدينة ما قرب المساء . تلمعت حوي في دهشة. عمارات كبيرة صحب الناس المحتشدين واردحام السيارات تقدمت السيارة قليلاً. ثم تنحت إلى جانب الطريق.. التفت إلى العربي.. فهمت أنها إشارة للبرول. كيف أعتبر عن إمتاني الشديد لهذا الرجل العظيم الذي صر

على مرافقي إلى الآن . لم أملك في المقابل سوى دموعي المهمرة . لم أقبل له
شيئاً ولا هو سألني ..

برلت من السيارة . أغلقت الباب من الخلف . سارت السيارة مبتعدة
بعد أن تركني وحيداً وسط تلك المدينة . كنت أبكي . أدركت أب ربي بلقي
رحمة الله في سيارات الأثرياء أيضاً ..



وصف هناك قليلاً متحيراً وسط تلك المدينة العربية . لاحظت أن المارة
 كلهم يحملون في كاسي حيوان غريب . أحدث أمشي على مهل منتزماً
 حسب الطريق . كان ذلك سوقاً مُسرقةً في طولها وعرضها . تورعت هنا
 وهناك أكرم من الخصار والعواكه . يصح الحق برائحتها الطارئة . يسير
 الرجال العرب مردحين كأهم نهر جار . يسهم نساوقهم عيوناً تطل من
 العبيات السوداء . انتجار اليهود . صخب التجارة والصوصاء . هأذا بين
 كل ذلك في هيتي السدئية . كلهم يحدق في ويهرب مني خشية المساس
 م أجد أي عضضة في ذلك . لأنني صرت أمتز بنفسي تلك الرائحة التي
 انبعثت مني .

شعرت بجوع شديد . لم أكن أملك شيئاً من المال لأشتري به طعاماً . بعد
 سنوات كثيرة ، أحسست بالحاجة إلى العلوس . لو كنت في «المسرة» لحصلت
 على «كتوس» الأرباب مجاناً . أو لاستطعت أن أسرق شيئاً من أعلاف
 الأعداء دون أن يراي أحد . لكن في المدينة ، لا بد من العلوس للحصول على
 شيء آكله . من د الذي يطعمني هنا مجاناً ؟ حاولت الدخول إلى مطعم
 أو مطعمين . لعدهم يعطوني شيئاً كمتوسل . لكن نهري أصحابها ككلب
 أجرب بازئين إلى الشارع لمطاردتي .

استمررت أمشي في السوق مدفوعاً برجاء حفي . مشيت طويلاً .
 شعرت بدوخة تعريبي . تقدمت قليلاً . قرأت لوحة مطعم مكتوباً عليها
 باللغة المالايالية «مَبَارَ رَسَنُورَنَت» . أحسست بطمأنينة عظيمة . هناك أحد

يتكلم بلعني وسيفهمني إذا تحدثت إليه.. توجّهت إليه عازماً على لقاء أي
عاقبة لم أكد أصل عند ما به حتى سقطت مغشياً عليّ.

تجدون في كل مدينة من المدن الخليجية شجرة عظيمة تحب الجميع وبتفرع
إيها لجميع عبد الشدائد ويعيش في ظلها مجموعة من الناس. سقطت في
ذلك اليوم فاقد الوعي أمام مطعم «كُنْجِيكَا»، الشجرة المعجزة للجاليات
الكيرالية في مدينة الطحاه. انظروا كيف يشق الله تعالى سبيلاً حتى يوصلنا
إلى رحمة. حينما وصلت إلى تلك السوق العربية عليّ كل الغرانة، كان يمكن
أن أتوجه إلى أي جهة. أصل إلى أي مكان.. أسقط على الأرض حينما اتفق.
لا ينتفت لي أحد وأنا على هذه الهيئة البدائية. لكن الله قد قدر مسبقاً أن
أصل أمام «كُنْجِيكَا».. اسقت في الطريق الذي شقه لي تعالى حتى وصلت
أمام «فلبار زشتورنت» حيث سقطت معشياً عليّ. أما ما بعده فقد كان الله
قد ألهم «كُنْجِيكَا» لترتيبه كله.

لما فتحت عيني وحدثني في عرفة «كُنْجِيكَا». قالوا هذا ثالث يوم بعد
ما وصلت. استرددت وعيي.. شعرت بألم شديد في رجلي وكل جسمي..
فوحشت معجزة موصولة بكفي. شككت أسي راقد في إحدى المستشفيات..
نكيت حينما رأيت «الكيراليتين» الملتصين حولي. أخذ «كُنْجِيكَا» بيدي
يواسيني وخلال هذه الأيام، أصبحت مضعة في أفواه أهل مدينة الطحاه.
يوم نشر أحر أسي فتحت عيني، أسرع إلى عرقتي كثير من الناس. حاملين
معهم «بقواكه هدية لي التماح والبرتقال والعنب والموز. كان الكل متلهفاً
لسماع قصتي. كيف تحولت إلى هذا الهيئة العربية. كيف وصلت إلى هنا..
كان هذا الفصول مرتسماً على كل وجه.. غير أنهم لم يسألوني عن شيء.. إنما

سألني «كُنْجِيكَا» بهدوء عن ذلك كله فقط بعد مرور يومين آخرين، بعد أن جاء الطيب يُعَدُّ فحوص ما بي ويريل المحقنة الموصولة بكفي.

قلت «أحتاج إلى مرآة!»

«نأدا، المرأة؟» سألني «كُنْجِيكَا» الذي كان يجلس بحسي.

«أريد أن أرى بصبي» يخلق الآخرون في وحوء بعضهم بعضاً.

لقد وددت أن أرى وجهي وهييتي التي يحملق فيها الجميع مستقدين إياها. أحصر لي أحدهم مرآة صغيرة. نظرت بعد عهد طويل إلى وجهي في المرأة راقداً تلك الرقعة. أمعت النظر طويلاً. حقاً ما عرفتني. والذي رأيته في المرأة كان رجلاً غريباً تماماً عني. لقد قص شعر رأسي حتى صار قصيراً جداً.. جُرَّتْ لحيتي. وليس الرجل الذي أراه في المرأة هو عجيب الذي خرج من بيته. هذا رجل آخر..! رجل نحيل أسود عاثر الخدين وبارر الأسنان. ولو كنت في موقف آخر لما صدقت أحداً يقول لي: أن هذا الشخص هو أنا.

سرد لي «كُنْجِيكَا» ما جرى لي بعد أن فقدت وعيي إذ أنه حمّني إلى داخل المطعم من حيث سقطت بمعاونة عماله. قدّم لي الماء والطعام ثم أرقطني في غرفته. حمّني ثلاثة أيام على التوالي بالتعاون مع جماعة من محبيه في سوق الطحء. أحصر لي مزبناً ليقص شعري ويحقّ لحيتي.. وطبّبت ليفحصني ويصف لي الدواء..

لم أملك سوى الدموع أمام كل ما قال. لم أملك شيئاً غيرها لأبدي حبي لقاء حبه الخارف.. وما كان يؤسّني إلا شيء واحد هو أنهم ما التقطوا صورتي قبل أن يريلوا شعر رأسي ولحيتي.. ما رأيته بصبي أبداً وأن على تلك الصورة الدائية. ولذلك لم ينق عني لأعرض أمامكم كشاهد من بقايا

تلك الحياة سوى ذكرياتي.. حتى جوارى الذي يثبت وصولي إلى تلك الدولة
كان محجوزاً عند الأرياب..

«تاريخ اليوم..؟» سألت لمن تجهزوا حولي.

«ثلاثة عشر».

«أي شهر هذا؟».

«أغسطس» قالوا والاستقراب باد على وجوههم

«آية سنة هذه؟» أثار سؤالي فضولهم.

«ألف وتسعمائة وخمسة وتسعون»

«يا الله يا رب العالمين» وصغت يدي على صدري في تعجب، بدأت
أعد السنوات في قلبي وعلى أصابعي..

«ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة أيام..!».

كنوا مندهشين حينما سمعوا ذلك..

مضى يومان آخران قادي «كُنْجِيكَا» من غرفتي إلى عرفة مجاورة عندما
وحدتني قدراً على المشي على مهل . كان هناك جهاز التليفون أجسسي
أمامه.

«ألا تحب أن تتصل بيتك ؟ ألا تحب أن تسمع صوت أمك
وحبيبتك ؟».

وقد أبكاني سؤاله لم يوجد في بيتنا تليفون.. أعطيت له رقم جارنا..
تساءلت مسعراً كيف بقي ذلك الرقم محفوظاً في ذاكرتي على أي لم أتصل
به ولو مرة على مدى هذه السنوات الطويلة (وكان من «مُونْغاي» آخر مرة
تصلت به فيها).

قصي «كُنْجِيكَا» أمام التليفون كثيراً من الوقت.. غير أن الخط إلى الوعر لم يفتح بعد..

أخيراً سمعنا الرنة في الطرف الآخر أعطاني السماعه.. اجتهدت كثيراً أن أعرف بصي للجار - حينما عرفني انقطع صوته قبيلاً ثم سأل: «أين كنت يا نجيب طوال هذه السنوات..؟!»

ما كان عندي جواب لهم . حتمت الأقويل والقصص التي عسى أن تُحاكى حولي في القرية..

وقال «اتصل بعد ربع ساعة. سأبادي على روجتك.»

أحسيت بتلك الدفئ الحمة عشر أطول من السنوات الثلاث التي قضيتها في «النسرة» انتظرت . انتظرت بهارغ الصر . أخيراً بدأ «كُنْجِيكَا» يكبس أزرار الأرقام على لوحة المفاتيح.

هذه المرة سمعنا الرنة بدون صراع مع الخط.. مد «كُنْجِيكَا» إي السماعه وما قلت «آلو» حتى سمعت صراح زيب يتعالى في الطرف الآخر. مصي وقت طويل قبل أن يتمكن أحد منا من التوقف عن الكاء . لم تسألني أين كنت؟ ولم لم تتصل حتى اليوم؟. كأنها استطاعت أن تعرف أحوالي من هناك.

بعد كاء طويل قلت «ولئذا بيل بدأ يذهب إلى الحصانة في هذه السة. ألا تشاق إلى رؤيته؟ متى ستعود؟ حبيبي. عارقتنا أمك منذ سة . لا بد أن قلبها قد انقطع بأقطاع أحمارك عا..».

لم أفر على سماع شيء بعد ذلك . أرحعت السماعه وقلبي يتمطر . عرست وجهي في كهي. مكيت كاء شديداً وكان «كُنْجِيكَا» يواسيني.

«يا محبت، إنت صرت على كل شيء حتى اليوم.. وكل شيء بيد الله ندي ليس لنا حق إلا أن نستسلم لقضائه وقدره».

قصيت في عرفة «كُنْجِيكَا» ما يقارب ثلاثة أشهر متمتعة بحبه الرؤوم. تأمت حروحي في عصورها . وانخفض تورم قدمي.. وعادت إليّ صحتي تمام. فصصت قصتي خلال تلك الأيام على «كُنْجِيكَا» وأحبته في مناسبات مختلفة تلقاه كثير منهم كقصة مبالغ فيها فلم يصدقوها.. وقليل منهم من صدقها ولكنهم بقوا على شكهم في احتواء إبراهيم القادري . كانت شكركهم مررة. لآبي لا أمدت تعبيراً مقنعاً له.. أين احتفى بي تلك اللبنة بعد أن أوصلني إلى عتبة السعادة؟. كان مسحدي ومنقذي في الصحراء. نصري لله به كما أرسل موسى عليه السلام باصراً لني إسرائيل.. أنا أيضاً مثلكم، لم أخط بصره..

ببما كنت أنتمثل للشعاع، التحأ إلى غرفة «كُنْجِيكَا» رحل يدعى عبد الحميد . كان عاملاً في حديقة كفيله يتقاصى أجراً رهيداً مقابل مجهود قصم صهره ليل نهار بالإصافة إلى اضطهادات متممة. لما لم يبق مرع في قوس صره، اضطر للهروب وكنت صحتة إبانسالي في وحدتي الشديدة التي شعرت بها في تلك الشقة خاصة بعد ما يخرج «كُنْجِيكَا» وعمله إلى المطعم. وبمجيئه، امتلأت حياتي بالسروور..

بعد تفكير وتخطيط استغرقاً أياً ما كثيرة، واستشارة عدة أشخاص، أخيراً اتخذنا القرار أن نستلم أمسنا للشرطة بدون مريد من التأخير وهكذا وصدا إلى السجن..



تقدم الأرباب بحوز يتمحصر وحوه السجاء المصطفين كلهم وجهًا
 وجهًا ' كلها حطا خطوة إلى الأمام تعالى صوت بضات قلبي لم أقدر
 على تصور عودتي إلى «المسرة».. أذهب إليها مرة أخرى ؟ يا الله ! لا
 أطيق ذلك ارحمني يا الله . كان قلبي يتحجب في هلع . رغم ذلك، لم أسمع
 لبيبي بالصراخ كما فعل عبد الحميد . تمسكت برباطة جأشي.. أحسست
 بأن ذلك الوقوف طال دهورًا أحبرًا، وصل الأرباب أمامي وهو يحدق في
 وجهي لمحت في عينيه صحراء تموج كالبحر . أفرعتني ضراوتها.. لكنني
 لم أترعرع ولا أبدبت أدنى معرفة.. ما أظهرت ارتباطًا على وجهي إياها
 وفقت منظرًا تلك اللحظة التي يجزني فيها إلى الخارج.. لكنه ربت على
 كتفي ثم انصرف عني إلى من بعدي بعد أن أطل النظر في وجهي بمجمع
 عييه كيف تعبر قلب الأرباب الذي جاء ليقتصر علي.. عجيب ! عجب
 عجيب..!! لاغير..

رجع الأرباب تاركًا في قلبي حمرا يلتهب بالشك . بعد انتهاء ظنور
 لاستعرص، قبت للشرطي الذي كنت قد تصادقت معه: «الرجل الذي
 حصر اليوم كان أربابي بلا شك . إياي تحلى عني بدافع من رحمة الله الواسعة
 التي تعمدني بها» لكن الشرطي فاجأني بأن أحاسني قائلاً «ليس الأمر
 كذلك، لأن أربابك كان يردد وهو ينصرف: لو كان الخيار على كفالتي
 لحررتك جرًا إلى بوابة «المسرة».. غلكتني دهشة عظيمة. ربما كان الأرباب
 كاذبًا حين قال ذلك ليستريحه شعوره بالخصوع من إطلاق مريح عمده الذي

وقع في متناول يده.. أو ربما كان يكشف عن حقيقة مرعبة جدًا.. ماذا لو كان صادقًا فيما قال؟

لم أكن على كفاله..؟ أهو فعلاً اختطفني من المطار بغير حق وأنا على كفالة شخص آخر..!!؟ وإن كان كذلك، يا الله.. هل كنت ترسلني لتبتليني بقدر شخص آخر..؟

فيما بعد، أقسم النسيب «الكرواتي» مبررًا ذلك الشك.. قال: «ما أرسلت لكم فيزا راعي الغنم، إنما بعثت فيزا عامل في شركة إنشاء..» والله وحده يعلم من يقول الصدق ومن فعل الصواب.. لا أريد أن أتعب رأسي باجترار الأفكار حول ذلك.. إنما أطمئن الآن إلى فكرة أن قدرتي كان يجتر تلك السنوات إلى حياتي.. وقد اجتزته بنجاح.. ولو فكرت أعمق من ذلك الحد ربما أصاب بالجنون فعلاً..

مرت علينا بعد ذلك ثلاثة أسابيع. قضيتها في جزع شديد.. لم أكن آمنًا من أن يحضر أربابي يومًا حاملًا معه وثائق مزيفة تعبئه على أن يستعبدني مرة أخرى.. لكنه لم يحضر بعد ذلك قط.. ربما حصل على شخص آخر.. رحم الله ذلك الرجل الذي لا حول له ولا قوة إلا به تبارك وتعالى..

وفي اليوم الذي تلا طابور الاستعراض، حضر موظفو السفارة كالعادة.. اصطففنا في الطابور.. نادوا الأسماء شخصًا شخصًا.. ظللت واقفًا شارد الفكر.. منقطع الرجاء.. خطر لي بالصدفة أنهم قد نادوا اسمي.. وقفت هنيهة مترددًا.. هل نادوا علي فعلاً..؟ أم شعرت بشعور خادع..؟ هل كان ذلك حقًا اسمي..؟ ولكنهم أعادوا النداء مرة أخرى.. «نجيب محمد». سمعت اسمي هذه المرة بوضوح.. لا شك أنه اسمي.. تقدمت خطوتين بقلب مهتاج.. علت أصوات زملائي تعبيرًا عن سرورهم الفياض.. لأنني كنت قد حظيت بـ «الأقدمية» بينهم..

وفي ذلك اليوم وفق ثمانون مسجونًا هنديًا إلى «الخروج المجاني» إلى الوطن ضمن مشروع ترحيل المقيمين غير الشرعيين إلى بلدانهم الأصلية على حساب الحكومة. وبفضل ذلك تخلص «كُنْجِيكا» من تكلفة تذكرة سفري.. لكنني أعلم جيدًا أنه يتحمل ذلك على العين والرأس إذا اقتضى الأمر.. ألا وهو «كُنْجِيكا»..!

انتهزت القسحة القصيرة التي اقتنتتها بينما انشغل الموظفون بترتيب أوراق الترحيل.. ودعت أصدقاء السجن كلهم.. حاولت أن أواسيهم جميعًا.. أتيت رجال الشرطة.. ودعتهم جميعًا..

وفي مكتب المسؤول، أمرنا أن نوقع على أوراق كثيرة، ثم وضعت القيود في أيدينا.. أوقفونا في صف في إحدى الزوايا.. ومع الظهر جاء الباص الذي نقلنا إلى المطار مباشرة.. أدخلنا داخل المطار من بوابة خاصة.. ولم أتمكن حتى من محاولة الاتصال بـ «كُنْجِيكا».. ربما بلغه الخبر فيما بعد عن طريق أحد ما.. وأظل أسفًا حتى الساعة أنني لم أستطع حتى أن أكافئه بكلمة شكر قبل الرحيل. يا «كُنْجِيكا»، إن اتفق أن تقرأ هذه السطور في بقعة من بقاء الأرض، أرجوك أن تتكرم عليّ بالعفو عن هذا التقصير العظيم..

مع الليل تجهزت طائرتنا.. وزع موظفو السفارة بطاقات الصعود.. ساقونا جميعًا إلى متن الطائرة.. خيل إلي حينها أن ثمانين نعجة تساق إلى «مَسْرَة».. مكبلة بالقيود.. كنت واحدًا منها.. الإنسان الماعز..!!



أيام الماعز

B E N J A M I N

بين يديكم الكريمة الطبعة الثالثة من رواية "أيام الماعز". وهي النسخة العربية المنقولة عن نصها الأصلي المالايالامي "أدو جيفينام" لكتابه بينيامين. روائي موهوب من ولاية كيرالا الهندية.

لقد نالت هذه الرواية حظاً وافراً من القبول والاهتمام في الأوساط العامة والخاصة في الهند. فقدت أكثر ما قرئ من بين الروايات المالايالامية، واحتلت صدارة الكتب الأكثر مبيعاً في الهند. حيث تجاوز عدد طبعاتها مائة وخمسين طبعة. حازت الرواية على جوائز مرموقة داخل الهند وخارجها كما وضعت في المقررات الدراسية في بعض الجامعات والمدارس الثانوية بالهند. حظيت الترجمة العربية أيضاً بالبروز في الأوساط العربية العامة والخاصة، خاصة بعد ما أشيع تصنيفها ضمن الكتب الممنوعة في بعض الدول ونشرت مقالات استعراضية ونقدية حولها في عدد من المجلات والصحف العربية الرائدة.

تروي الرواية قصة حقيقية لعامل هندي بسيط. باع كل ما يملك في وطنه وسافر إلى الرياض - السعودية بحثاً عن لقمة العيش لأسرته. غير أن حظه العاثر حدا به إلى مزرعة أغنام تقع في مجاهيل صحراء الربع الخالي، عاش فيها كالأغنام مجرداً من إنسانيته يروح تحت قسوة رب عمل.

سهيل الوافي (المترجم)

978-1-78752-376-0



9 781787 523760

Tel.: +965 - 22258141

info@aafaqpublishing.com

Mob.: +965 - 51000197

www.aafaqpublishing.com

